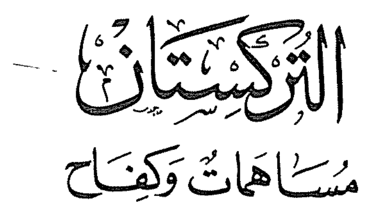

التركستان
مساهمات وكفاح

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩٠م



الدار السعودية للنشر والتوزيع

جدة

الادارة: البغدادية ـ عمارة الجوهرة
تليفون: ٦٤٢٤٠٤٣ ـ ٦٤٢٤٢٥٥
تلكس: ٤٠٤٣٥١ نشرا
602687 FONOON SJ
فاكس: ٦٤٣٢٨٢١
ص.ب.: ٢٠٤٣/ ٢١٤٥١، برقيا: نشردار

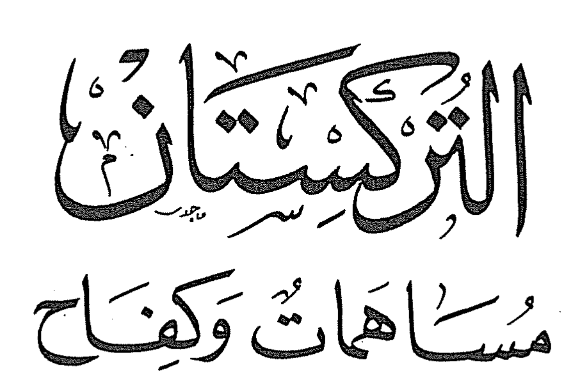
المستودعات: طريق مكة المكرمة، شرق المطار القديم
المكتبات: ١ ـ شارع الملك عبد العزيز، تليفون: ٦٤٧٨٧٢٣
٢ ـ شارع فلسطين، مركز الزومان، تليفون: ٦٦٠٨٩٦٤

الدمام

الادارة: تليفون: ٨٣٤٧٧٦٩ ـ ٨٣٤٧٨٣٧
المكتبة: شارع الظهران (بجوار امارة المنطقة الشرقية)
تليفون: ٨٢٣٤١٥٨ ـ ٨٣٢٣٥١٥
قسم توزيع الجملة:

تليفون: ٨٣٤٨٣٨٢ ـ ٨٣٤٦٣٩٨
فاكس: ٨٣٣٥٥٢٠ برقيا: نشردار
ص.ب.: ٨٩٩ الدمام ٣١٤٢١

د. محمد علي البار





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه.

وبعد،

فإنَّ شعوب آسيا الوسطى المعروفة باسم التركستان لها تاريخ مجيد وإسهامات رائعة في إثراء الحضارة الإسلامية والدفاع عنها.. وقد قامت دول باذخة فيما يعرف باسم التركستان على امتداد التاريخ الإسلامي، ولم يقتصر تأثير هذه الدول على المناطق الشاسعة المعروفة باسم آسيا الوسطى والتي تشمل حالياً: أجزاء واسعة من الاتحاد السوفيتي وغرب الصين الشعبية وإيران وأفغانستان.. ولكنها شملت العالم الإسلامي بأكمله.

فمن التركستان الشرقية ظهرت الدولة السلجوقية التي حكمت من مركزها في مرو مناطق واسعة من دار الإسلام امتدت من الأناضول في الشمال الغربي إلى اليمن في الجنوب الغربي ومن حدود سيبيريا في الشمال الشرقي إلى ما يعرف اليوم بباكستان في الجنوب الشرقي..

ومن التركستان الشرقية أيضاً ظهرت الدولة العثمانية التي صدت الغزو الصليبي الاستعماري الأوربي، وحمت بذلك معظم أراضي المسلمين وخاصة تلك الواقعة في شمال إفريقية من عدوان أوربا الغاشم. كما أنها قامت بنشر الإسلام في ربوع أوربا واحتلت

المجر ورومانيا وألبانيا واليونان ويوغسلافيا (البلقان بأكمله). . كما وصلت جيوشها إلى بولندا ذاتها. .

وقد أسهمت الدول التركية القادمة من التركستان في نشر الإسلام في ربوع القارة الهندية وذلك على يد الدولة الغزنوية التي أسسها سبكتكين التركي ثمّ قام ابنه محمود الغزنوي بتوسيع رقعة تلك الفتوح. .

وبعد عدة قرون أخرى ظهرت دولة تركية باذخة أسسها بابر التيموري في كابل (أفغانستان) وانحدر منها إلى الهند حيث أسس تلك الأمبراطورية الضخمة التي عرفت باسم الأمبراطورية التيمورية والتي أسماها الغربيون الأمبراطورية المغولية.

ولعل القارئ سيفاجأ تماماً عندما يجد أنَّ العنصر التركي القادم من التركستان هو الذي شكل معظم الدول الإسلامية المختلفة وذلك منذ أن استقدم المعتصم العباسي أعداداً غفيرة منهم وجعلهم خاصته وأهل مودته. . ومنذ ذلك الحين وقواد الجيوش والأمراء والسلاطين في معظم الأراضي الإسلامية يرجعون بصورة أو بأخرى إلى العنصر التركي القادم من التركستان، وبالذات من التركستان الشرقية التي ترزح اليوم تحت الاستعمار الصيني. . والتي جعلها مستعمرة له يستلب خيراتها وثرواتها. . وقد غير الاستعمار الصيني اسمها إلى اسم جديد هو «سينكيانغ» أي المستعمرة الجديدة.

وقد عانى التركستانيون الشرقيون معاناة شديدة أثناء الثورة الثقافية التي أقامها ماوتسي تونج كما عانى التركستانيون الغربيون معاناة فظيعة أثناء حكم لينين وستالين. ولا تزال قضية التركستان

بشقيها الشرقي والغربي تعاني من تعتيم إعلامي رهيب.. وقد تجاهلت أجهزة الإعلام الغربية الثورات المتكررة في أوزبكستان وفي قازاقستان.. وفي عصر جورباتشوف، المتزوج من اليهودية « رئيسة » والمتعاطف مع اليهود، قامت حملات ضخمة لمحاربة الإسلام والمسلمين.. وواجه المسلمون في آسيا الوسطى حرباً عنيفة تشبه إلى حد ما تلك الحرب الإيدولوجية التي شنتها أجهزة إعلام الأحزاب الشيوعية في عهد لينين وستالين وخروشوف..

ورغم اعترافنا بأنَّ عهد جورباتشوف أقل دموية من عهود أسلافه إلاَّ أنَّه مع ذلك لا يقل عنهم شراسة في محاربة التيارات الإسلامية التي بدأت تنمو في الآونة الأخيرة في قازاقستان وأزبكستان وطادجكستان وتركمنستان وقرغيزيا.. وتمتد لتصل إلى القوقاس في أذربيجان والداغستان والشاشان..

وفي هذا الكتاب الذي بين يديك بحثان أحدهما بعنوان:

آسيا الوسطى تحت براثن الدب الروسي. وقد أُلقي محاضرةً في النادي الأدبي الثقافي في مدينة جدة في ٢٢ ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ.

والثاني بحث مقدم لندوة «تاريخ وثقافة تركستان». وقد انعقدت هذه الندوة في مدينة اسطنبول بتركيا في ١٩ - ٢١ شعبان ١٤٠٨ هـ (٦ - ٨ أبريل ١٩٨٨). وشارك فيها عدد من المختصين بتاريخ التركستان وإسهاماتها..

ولا شكّ أنَّ القارئ العربي يحتاج إلى أن يتعرف إلى دور أخوته في العقيدة وإسهاماتهم في التاريخ الإسلامي. كما أنَّ عليه أن

يتفاعل مع مشاكلهم ومعاركهم ضد المستعمر الشيوعي.

والكتاب يعطي القارئ صورة موجزة لهذا التاريخ المشرق لشعب خرج منه الإمام البخاري والزمخشري والترمذي والنسائي وابن سينا والبيروني.. والشاشي والخوارزمي وعبداللّه بن المبارك والفضيل بن عياض وإسحاق بن راهويه.

كما يعطيه صورة موجزة عن الدول الإسلامية العديدة التي قامت على أكتاف العنصر التركي القادم من أرض توران (التركستان). ويذكر له قصة الأتراك والدولة العباسية منذ عهد المعتصم العباسي كما يذكر له قصة الدولة السلجوقية والدولة الغزنوية والدولة الطولونية والدولة الأخشيدية والدولة الخوارزمية والدولة التيمورية الكبرى وفروعها المختلفة.. وينتهي بعرض موجز للدولة العثمانية منذ قيامها إلى نهايتها على يد العلماني اليهودي الأصل كمال اتاتورك.. وقد زينا الكتاب بالعديد من الصور التي توضح الآثار الإسلامية الباذخة التي أقامتها تلك الدول... وكثير من هذه الصور مأخوذ من كتاب «فنون الترك وعمائرهم» الذي نشره مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة باستانبول.. وقد سمح لنا مدير المركز الأستاذ الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو باستعارة هذه الصور مشكوراً، فجزاه اللّه عنا خير الجزاء. كما أخذنا بعض الصور من كتابنا «المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ» وكتابنا «افغانستان من الفتح الاسلامي الى الغزو الروسي» لتعلقها بموضوع هذا الكتاب.

واللّه أسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره. وهو ولي التوفيق لا إله غيره ولا رب سواه.

إسهام التركستان الشرقية
في التاريخ الإسلامي (*)

جغرافية التركستان:

تمتد أرض التركستان من بحر الخزر (بحر قزوين أو بحر جرجان أو بكر كاسبيان، أو بحر الديلم أو بحر جيلان أو بحر باكو أو بحر شروان على اسم المناطق التي يحاذيها) في الغرب إلى جبال التاي في الشرق. ومن خراسان وصحراء قره قورم في الجنوب الغربي إلى جبال الأرال وسيبيريا في الشمال والشمال الشرقي.

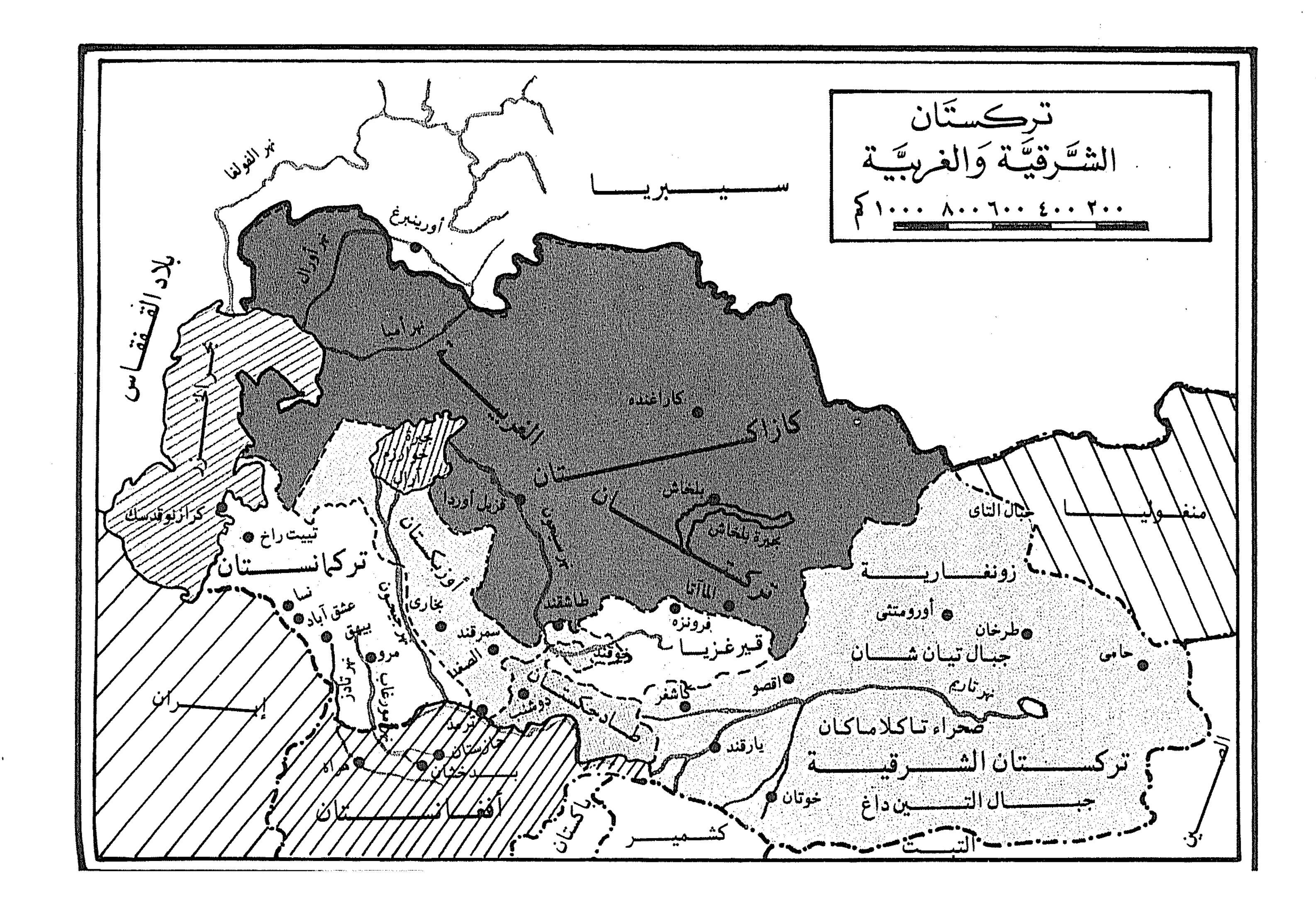
وتقع تركستان وسط آسيا وتحدها شمالاً سيبيريا ومنغوليا وجنوباً أفغانستان وكشمير والتبت وشرقاً الصين وغرباً إيران وبحر قزوين. وتبلغ مساحة التركستان قرابة خمسة ملايين كيلومتر مربع وتنقسم إلى قسمين:

١) التركستان الغربية:

وتخضع لحكم روسيا وهي مقسمة إلى خمس جمهوريات اتحادية هي أوزبكستان وقازاقستان وقرغيزيا وتركمنستان وطادجكستان. ومساحتها ٤،١٠٦،٠٠٠ كيلومتر مربّع وسكانها أكثر من ثلاثين مليوناً أغلبيتهم من المسلمين[١].

(*) بحث مقدم لندوة: «تاريخ وثقافة تركستان» المنعقدة في اسطنبول في الفترة ٦ ـ ٨ أبريل ١٩٨٨ (١٩ ـ ٢١ شعبان ١٤٠٨هـ).

(١) تذكر بعض التقديرات الحديثة أنهم أكثر من أربعين مليونا.



تركستان
الشرقية والغربية
٢٠٠ ٤٠٠ ٦٠٠ ٨٠٠ ١٠٠٠ كم
سيبريا
نهر الفولغا
أورينبرغ
نهر أورال
نهر أمبا
بلاد القفقاس
كارا غنده
كازاكستان
بلخاش
بحيرة بلخاش
قزيل أوردا
المآتا
طاشقند
فرونزه
قيرغزيا
خوقند
كراز نوفدسك
تبيت راخ
تركمانستان
نسا
عشق آباد
بيهق
مرو
نهر تادز
أوزبكستان
بخارى
سمرقند
الصغد
دوشنبه
ترمذ
إيران
أفغانستان
باكستان
كشمير
منغوليا
جبال التاى
زونغاريا
أورومتشي
طرخان
جبال تيان شان
حامى
اقصو
كاشغر
نهر تاريم
صحراء تاكلاماكان
يارقند
تركستان الشرقية
خوتان
جبال التين داغ
التبت
الصين

٢) التركستان الشرقية:

وتخضع لحكم الصين التي أسمتها سينكيانج أي المستعمرة الجديدة. وتبلغ مساحتها ١،٧١٠،٧٤٥ كيلومتراً مربعاً. ويبلغ تعداد سكانها ١٥ مليون نسمة، وقد تزايد العنصر الصيني، بينما فرَّ كثير من السكان التركستانيين الذين لم يلاقوا حتفهم من الاستبداد الصيني وخاصة أثناء الثورة الثقافية التي أقامها ماوتسي تونج.

وأغلب التركستان الشرقية صحارى وتنقسم أراضيها إلى قسمين بواسطة جبال تنغري الممتدة من هضبة بامير في الشرق إلى حدود الصين في الغرب. ويعرف القسم الشمالي بحوض زونغاريا وأغلبه صحارى ومراعٍ، بينما يعرف القسم الجنوبي بحوض نهر تاريم الذي ينبع من جبال قره قوروم ويصب في بحيرة قره بوران. ونتيجة وجود هذا النهر الذي يبلغ طوله ١٦٠٠ كم فإنَّ الأراضي المحيطة به خصبة وزراعية وتنتج بصورة خاصة القطن. أما بقية الأراضي فهي مراعٍ أو صحارى جدبة.

وأهم مدنها أربع: أورمجي (تيهوا) العاصمة وكاشغر ذات المجد الباذخ والتاريخ القديم وتدعى اليوم ستوفو، ويارقند وتسمى اليوم سوجي وخوتان وتدعى حالياً هوتين.

وقد عرَّف ياقوت في معجم البلدان التركستان بقوله (باختصار): «تركستان هو اسم جامع لجميع بلاد الترك.. وأوسع بلاد الترك قبائل التغزغز، وحدهم الصين والتبت، وقبائل الخرلخ والكيماك والغز والجفر والبجناك، والبذكش وخشقان وخرخيز (قرغيز). وأول حدهم من جهة المسلمين فاراب. قالوا ومدائنهم المشهورة ست عشرة مدينة والتغزغز في الترك كالبادية، أصحاب

عمد يرحلون ويحلون. . والبذكشية بلاد وقرى».

ومن الواضح الجلي أنَّ ياقوت كان يتحدث عن التركستان الشرقية. أما التركستان الغربية فلم يتحدث عنها باعتبار أنَّ الإسلام قد توطن فيها في ذلك الوقت.

أما بارتولد فقد اقتصر في تعريفه التركستان على بلاد ما وراء النهر التي تشمل المنطقة الممتدة من حوض نهر أمواداريا (جيحون) إلى حوض نهر سرداريا (سيجون). ولم يتعرض بارتولد للمناطق الواسعة الواقعة شرقي نهر سيجون (سرداريا) والتي تمتد حتى أطراف الصين والتي كان يسكنها الرعاة من بدو الأتراك، والتي كان الجغرافيون المسلمون يطلقون عليها اسم التركستان والتي تعتبر اليوم التركستان الشرقية المسماة سينكيانغ ومع هذا فقد اعترف بارتولد بأنَّ اسم التركستان يقصد به بلاد الترك عامة، أي الإصقاع المترامية الأطراق التي تمتد بين بلاد الإسلام ومملكة الصين (أي التركستان الشرقية) والتي كان يقطنها الرحل من الترك والمغول. .[1]

ولا شكّ أنَّ بلاد ما بين النهرين (سيحون وجيحون)[2] قد أصبحت مسرحاً لنشاط العنصر التركي الذي تفوق في عدده وقوته على العنصر الاري. ثمّ جاء الإسلام ووحد تلك البلاد وانطلق العنصر التركي ليسيطر على تلك البلاد الواسعة المعروفة فيما بين

---

(١) بارتولد، فاسيلي فلادمير: تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي، اصدار المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ١٩٨١، ص ١٤٥ وما بعدها.

(٢) يسمى نهر سيحون، نهر سرداريا ويسمى جيحون نهر أوكسوس كما يطلق عليه اسم أمودرايا

النهرين ـ ولم يكتف بذلك ولكن سرعان ما سيطر تماماً على مجريات الأمور في بغداد نفسها. وصارت له الغلبة في كـل أرجاء العـالم الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري وحتى بداية القرن الرابع عشر الهجري.

وخلال هذه القرون العشرة كان العنصر التركي القادم من أرض توران وبالذات مما يعرف اليوم بالتركستان الشرقية هو العنصر المسيطر والذي أنقذ الأمة الإسلامية من الانهيـار وأوقف الزحف الصليبي.. واستطاع أن يمتزج بالعنصر المغولي الذي يمت له بنسب قوي وأن يكون بذلك مدأ جديداً للإسلام في أراضٍ لم يطأها من قبل.

دخول التركستان الشرقية في الإسلام:

ذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان[1] أنَّ هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي أرسل إلى ملك التركستان الشرقيـة أو بالأحرى رئيس قبائلهم لأنهم كانوا بدواً في ذلك الحين، رسـولاً يدعوهم إلى الإسلام. ولما دخل الرسول وجد الملك يعمل سرجاً بيده فعرض عليه الإسلام وشروطه ومنها أن لا يعيشوا على النهب والسلب. فلما كان الغد استنفر الملك رجاله فإذا هم مائة ألف أو يزيدون، وأراهم الرسول ثمّ قال له: ليس في هؤلاء خيـاط ولا إسكاف ولا حجام ولا فلاح فإذا أسلموا والتزموا شروط الإسلام فمن أين يأكلون؟.

(١) معجم البلدان مادة التركستان ج٢: ٢٣ ـ ٢٦

وقد صدق فقد اشتهر هؤلاء البدو بشدة البأس وأصبحوا هم عماد جيوش الدول الإسلامية وما أن تمت لهم السيطرة على القوة العسكرية حتى صاروا الأمراء والسلاطين.

وقد تأخر دخول التركستان الشرقية في الإسلام عن التركستان الغربية التي بدأ غزوها منذ مرحلة مبكرة في التاريخ الإسلامي. فقد ذكر المقدسي كما ينقله عنه بارتولد[1] استشهاد ٢٧٠٠ من الصحابة والتابعين في إقليم فرغانه بالقرب من اسبيذبولان كان قد أرسلهم الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي اللّه عنه تحت أمرة محمد بن جرير فاستشهدوا جميعاً في واقعة مع الكفار..

وهذا إن صح يدل على أنَّ المسلمين قد توغلوا في أرض التركستان الغربية في عهد مبكر جداً. ومن المعروف أنَّ الصحابي الحكم بن عمرو الغفاري رضي اللّه عنه هو أول من عبر نهر جيحون (أمودار يا) وفتح الصغانيان سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) في عهد معاوية بن أبي سفيان.. ثمّ فتح عبيد اللّه بن زياد بيكند وبخاري سنة ٥٥ هـ (٧٦٤ م) ثمّ جاء بعده سعيد بن عثمان بن عفان وفتح سمرقند وفي تلك المعركة استشهد قُثم بن العباس رضي اللّه عنه (ابن عم رسول اللّه ﷺ). وقد تمّ ذلك كله في عهد معاوية بن أبي سفيان.

وفتح موسى بن عبداللّه بن خازم ترمذ سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م)

---

(١) بارتولد، فاسيلي فلادمير: تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨١.

ثمّ جاء قتيبة بن مسلم الباهلي الذي يعتبر بحق فاتح بلاد ما وراء النهر.. ووطد الإسلام في تلك البقاع (٨٨ - ٩٦ هـ/٧٠٦ - ٧١٤ م).. ووصلت جيوشه إلى حدود الصين وخضع له امبراطورها وبعث له بالجزية.

ويعتبر قتيبة بن مسلم الباهلي أول من وطد للإسلام في التركستان الغربية ونشره بين أهلها. ولا يزال قبر قتيبة بن مسلم معروفاً وموجوداً في رباط سرهنك بقرية كاخ من إقليم فرغانه ويعرفه الأهالي باسم الشيخ قتيبة في دائرة كدك من أعمال انديجان كما يقول بارتولد.[1]

وفي خوقند (خجنده) من إقليم فرغانه مشهد عبداللّه بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين السبط المتوفي سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م).

ورغم أنَّ قتيبة بن مسلم قد فتح كشغر قبل نهاية القرن الهجري الأول إلاَّ أنَّ مناطق التركستان الشرقية لم تدخل في الإسلام إلاَّ في مراحل متأخرة نسبياً. عندما دخل خاقان الأمبراطورية القراخانية ستوق بغراخان في الإسلام وذلك عام ٣٢٣ هـ (٩٤٣ م) وقد أسلم هذا الملك نتيجة جهود الدعاة إلى اللّه من الصوفية وأسلم معه أكثر من مائتي ألف خيمة أي قرابة مليون شخص.. وقد ضربت النقود باسم هارون بوغراخان حفيد ستوق بغراخان، ووسع رقعة مملكته لتشمل أجزاء من التركستان الغربية. كما ظهرت في عهده نهضة أدبية وعلمية وكتبت اللغة

---

(١) المصدر السابق.

التركية بالحرف العربي. وكانت أوقاف المدارس تشكل خمس الأرض الزراعية في عهده.

ومع ذلك بقيت أعداد كبيرة من بدو التركستان الشرقية بعيدة عن الإسلام وتناصبه العداء بل وتكونت دولة معادية للإسلام وتهدد المناطق الإسلامية المحاذية مثل الدولة القراخطائية (الخطل)[1] الذين استقروا في بلاساغون (الدولة الكورخانية) التي سيطرت على كثير من أراضي المسلمين المتاخمة.. والتي لم تخضع للإسلام بصورة نهائية إلاَّ في عهود متأخرة بعد إسلام القبيلة الذهبية.

ورغم أنَّ السلطان علاء الدين محمد الخوارزمي استطاع في بعض معاركه أن ينتصر انتصارات حاسمة ضد القراخطائيين (الكورخانيين) إلاَّ أنَّ دولتهم لم تنته إلاَّ بظهور جنكيزخان وانضوائهم تحت معكسره.. ولم يدخلوا في الإسلام إلاَّ مع دخول الأورد الذهبي من القبائل المغولية.

وكانت الصين منذ أمد بعيد تمد حكومة بلاساغون بالجيوش لمناوأة المد الإسلامي. وفي سنة ١٣٤ هـ (٧٥١ م) دارت معركة طاحنة بين القوات الإسلامية بقيادة زياد بن صالح والقوات الصينية

---

(١) القراخطائيون يدعون أيضاً الخطل أو الكورخانيون، أسسوا دولة قوية من سنة ١١٢٤ الى سنة ١٢١١م. وهم أتراك قدموا من الصين ثم الى التركستان الشرقية، واستقروا في جونغاريا وبلاساغون، وتغلبوا على القراخانيين المسلمين عام ١١٢٠م واتسعت دولتهم لتشمل أجزاء واسعة من التركستان الغربية. وتميّز حكمهم بالتسامح الديني، واستعانوا بالمسلمين. وقد انتهت دولتهم على يد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه سنة ١٢١١م ثم على يد جنكيزخان الذي انضمت اليه قبائلهم.

والتركية بقيادة كاوهسن شت الكوري الأصل. وانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً في تلك المعركة المعروفة بمعركة طلاس والواقعة على أبواب مدينة طراز في قرغيزيا اليوم. وقتل في هذه المعركة خمسون ألفاً من قوات الصين وأسر عشرون ألف وأدى ذلك إلى أن تبتعد الصين عن التدخل في شئون التركستان لفترة من الزمن. وعندما بعث أمير (أشرو سنة) في العام التالي لمعركة طلاس يطلب معونة الصين، آثرت الصين عدم التدخل بعد الدرس القاسي الذي لقنته إياها قوات زياد بن صالح..

ولقد كان للسامانيين الذين تولوا حكم منطقة آسيا الوسطى وامتد حكمهم إلى إيران وشمال أفغانستان، دور عظيم بارز في نشر الإسلام في التركستان الشرقية بصورة خاصة، وكما يقول الدكتور حسن أحمد محمود في كتابة (الإسلام في آسيا الوسطى): «والدور الخالد الذي قام به السامانيون ليس هو الجهاد فحسب وإنما كسبهم عالم الأتراك الشرقيين للحضارة الإسلامية. لقد كان السامانيون يطبقون سياسة الجهاد الحقة بالسيف من ناحية (لإخضاع القوة المعادية) والتبشير السلمي من ناحية أخرى».

وقد نشطت مدارس بخاري وسمرقند وفرغانة بين مختلف القبائل التركية.. وكان أوج نشاطها في القرن الرابع الهجري الذي يعتبر بحق عصر الدعوة الشاملة إلى الإسلام بين الأتراك الشرقيين. واشترك في هذه الجهود المباركة الفقهاء والصوفية والتجار والأمراء. وكما يقول بارتولد[1]: «لقد قام هؤلاء المتصوفة بدور كبير إلى جانب

---

(١) بارتولد: تركستان من الفتح العربي الى الغزو المغولي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨١.

الفقهاء في نشر الإسلام. فالفقهاء يخاطبون الطبقة المثقفة، والصوفية يتعمقون بالعقيدة في نفوس طبقات العوام.. ويكسبون قلوب الجماهير في مناطق البدو بحياتهم المتقشفة وسيرتهم وزهدهم وعمق إيمانهم وصدق دعوتهم».

وقد استطاع هؤلاء أن يكسبوا ملك القراخانيين ستوق بغراخان عام ٣٢٣ هـ (٩٤٣ م) حيث أسلم طواعية هو ومائتي ألف خيمة يسكنها ما لا يقل عن مليون شخص.. وقد تلقب هارون بن موسى حفيد ستوق بغراخان بلقب شهاب الدولة وظهير الدعوة ونقش هذا اللقب على السكة (النقود) التي ضربها بايتاق سنة ٣٣٢ هـ (٩٩٢ م).

ولعب القراخانيون دوراً في نشر الإسلام في المناطق الشرقية التي لم تسلم واستشهد خان كشغر وهو من القراخانيين أثناء جهادهم سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٨ م). وكانت البلاد التي على الثغور تعج بالمطوعة أي المتطوعين للجهاد في سبيل الله.

وكانت ولاية اسفيجاب وحدها تخرج كما يقول المقدسي سبعين ألف مجاهد بينما كانت سدران (صبران) من الثغور المليئة بالمطوعة وكذلك كانت جند. ولم تكن القبجاق وعاصمتهم سغناق قد أسلموا بعد (لا تزال موجودة باسم سناق قرغان كما يذكر بارتولد)[1].

وكان القبجاق هؤلاء في حروب مستمرة مع جيرانهم المسلمين.. وكثيراً ما كان يؤسر أولادهم وأطفالهم ويرسلون إلى

---

(١) المصدر السابق.

عاصمة الخلافة.. ومن هؤلاء القبجاق ظهر مجموعة من قادة العالم الإسلامي نذكر منهم الظاهر بيبرس (البندقداري) الذي حكم مصر والشام.. والسلطان قطز صاحب المعركة الفاصلة بين المسلمين والمغول في عين جالوت.

ولقد لعب القراخانيون دوراً بارزاً بعد إسلامهم في نشر الإسلام في الربوع المحاذية لأراضيهم وبين بقية مواطنيهم.. وفي عام ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) استطاع القراخانيون أن يكسبوا إلى صف الإسلام أكثر من عشرة آلاف خيمة من خيام القرغيز. واتجه القراخانيون مع التجار والصوفية صوب نهر الفولجا ينشرون الإسلام على ضفافه كما اتجهوا إلى جبال تيان شيان ونشرو الإسلام هناك.

وأظهر القراخانيون المسلمون خضوعهم للخليفة العباسي واتخذوا لقب موالي أمير المؤمنين وضربوا العملة باسم الخليفة القادر ودعوا له على منابر بلادهم واتخذ ملكهم إيلك خان لقب ناصر الحق.

وسرعان ما تحولت اليغورية وثقافتهم الصينية إلى الحرف العربي والطابع الإسلامي الصرف.. وكان أول من أسلم من الأتراك الشرقيين هم قبائل القرلوق الذين عرفوا فيما بعد باسم التركمان ـ أما قبائل التغزغز والغز فقد ظهر منهم السلاجقة الذين حكموا دار الخلافة الإسلامية في بغداد وأصبح نفوذهم فيها أقوى من نفوذ الخليفة ذاته. وبلغت دولتهم في عهد ملكشاه أقصى مداها والذي أضاف جزءاً كبيراً من الأناضول الذي كان مقر الدولة البيزنطية، إلى الخلافة العباسية.

ولقد لعب السلاجقة دوراً هاماً جداً في رفع رأية الإسلام في مناطق مختلفة. ولم يكتفوا بصد الغارات الصليبية والبيزنطية التي تفاقمت مع انحلال دار الخلافة ولكنهم قاموا أيضاً بفتح أجزاء واسعة من الأمبراطورية البيزنطية، وأسهموا بدور فعال في تقويض هذه الأمبراطورية المعادية للإسلام.. وأتمّ العثمانيون وهم فرع آخر من القبائل التركستانية الشرقية فيما بعد، ما بدأه السلاجقة وأنهوا الأمبراطورية البيزنطية إلى الأبد باحتلال عاصمتهم القسطنطينية على يد محمدالفاتح سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م).

الجند والأمراء من التركستان:

لقد حرصت الدولة الإسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين رضي اللّه عنهم على إشراك أهل البلاد المفتوحة في إدارة شئون بلادهم، وعاملوهم معاملة يتمثل فيها العدل بأسمى معانيه والسماحة الدينية التامة في أنقى صورها.. وأدى ذلك إلى دخول هذه الأمم أفواجاً في دين الإسلام.. وأدى دخول هذه الأمم المغلوبة في الإسلام إلى أن ينخرطوا في سلك الجندية فكان منهم القادة والسادة كما كان منهم العلماء والأدباء.

ولم ينصرم عهد الصحابة رضوان اللّه عليهم إلاَّ وكان الموالي هم أساتذة العلم والدين.. وهم الذين يتصدرون للفتيا.. وهم الذين تنحني جباه الجبابرة أمام علمهم وزهدهم وورعهم وتقواهم..

وكان للأتراك في ذلك دور بارز وأي دور.. فظهر منهم مئات بل آلاف العلماء والمفسرين والمحدثين وفقهاء الإسلام كما

ظهـر المئات من الأطبـاء والشعراء والأدبـاء واللغـويـين والنحـاة والجغرافيين والرياضيين والفلاسفة.

وكان دور التركستان الغربية في هذا واضحاً تمام الوضوح منذ القرن الثاني الهجري وكانت بخاري في القرن الثالث الهجري كما يقول الثعالبي: «مثـابة المجـد وكعبة الملك ومجمـع أفراد الـزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهـر».. وقد بلغت بخـاري ذروة مجدهـا في عهد السـامانيـين الذي جعلوهـا قاعـدة ملكهم..

والواقع أنَّ دور بخاري وما حولها في الإسلام، بدأ منذ فترة مبكرة جداً وذلك عندمـا فتحها عبيـد اللّه بن زياد سنـة ٥٤ هـ (٦٧٤ م) حيث أخذ عبيد اللّه بن زياد معه ألفين من خيرة الرماة من جند بخاري معـه فأحسن إليهم وأسلمـوا وكانـوا من جيشه اللجب.

وبتوالي الفتوحات انخرط الأتراك في الدولة الإسلامية الفتية وأصبحوا يشكلون جزءاً مهـما من القوات العكسريـة حتى خلال العهد الأموي الذي اشتهر بأنَّه اعتمد اعتماداً كبيـراً على العـرب فقط.. ومـع هذا فـإنَّ الأمويـين لم يهملوا العناصر الأخـرى بل أدخلوا الـبربر في جيـوشهم وتولى طـارق بن زياد الـبربري فتـح الأندلس.. كذلك أدخلوا الفرس والأتراك وغيرهم من الأجناس الذين شاركوا مشاركة فعالة في الفتوحات الإسلامية الواسعة التي تمت في عهدهم.

ولكنَّ ظلم بني أميـة واستئثارهم بـالحكم والمـال وتعصبهم بصورة عامة للعرب أدى إلى أن تنفر منهم الأجناس الأخرى وتلتف

حول مناوئيهم من آل بني هاشم، والعلويين بصورة خاصة، كما أدى إلى التفاف أعداد أخرى حول الخوارج الذين أقلقوا مضجع الدولة الأموية.. وهزوا كيانها بثوراتهم المتكررة والبالغة الشجاعة.

وما أن قامت الدولة العباسية على أكتاف الخراسانيين بصورة خاصة إلاَّ وظهر نفوذهم القوي فيها مما أدى إلى أن يقوم المنصور بقتل أبي مسلم الخراساني خوفاً من نفوذه.. وأن يقوم الرشيد بعد ذلك بنكبة البرامكة خوفاً من نفوذهم.

ظهور العنصر التركي على يد المعتصم:

ظهرت الجواري في القصور العباسية وفي قصور الأغنياء والتجار وبدأ العنصر التركي يظهر منذ أن تولى المعتصم العباسي سدة الخلافة حيث كان أخواله من الأتراك.. وكانت أمه تركية تدعى ماردة.

ولا شكّ أنَّ الأتراك الذين كانوا يجلبون للبيع في أسواق بغداد أو القاهرة أو دمشق لم يكونوا من التركستان الغربية التي أسلمت منذ فترة طويلة، بل كانوا يجلبون من التركستان الشرقية التي لم تسلم بعد في ذلك الحين. لأنَّ الإسلام يحرّمُ تحريماً تاماً استرقاق المسلم. ولاَ يجوز الرق إلاَّ في الحرب مع الكفار.

وتوسع المعتصم في جعل حرسه وجيشه من الأتراك الشرقيين.. والذين كان يجلبهم له التجار من التركستان الشرقية ومن القبچاق (قازاقستان).. وكان يتخذ معهم نظاماً جيداً وصارماً حيث كانوا يُعلّمون القرآن ثمّ فنون الحرب ثمّ يُترقون في الإدارة حتى يصبحوا أُمراء.

وازداد نفوذ الأتراك في جيش الخليفة وإدارته حتى أضطر الخليفة لبناء مدينة خاصة به بهم بعد أن كثرت المشاحنات بين بعض الجنود الأجلاف وبين سكان بغداد. وانتقل الخليفة العباسي ذو القوة البدنية الرهيبة إلى عاصمته الجديدة «سر من رأى» (سامرا)

وازداد النفوذ التركي في بلاط الخليفة المعتصم وجيشه وخاصة بعد أن قام القائد العربي عجيف بالتآمر سراً مع العباس بن المأمون لإقصاء الخليفة وجنده الأتراك. واتفقوا على قتل الأفشين وأشناس والمعتصم.. وعلم المعتصم بالمؤامرة فقضى عليها في مهدها.. وأقصى المعتصم العرب والفرس من ديوان العطاء واعتمد كلياً على العنصر التركي.

وقد ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء أنَّ المعتصم كان أول خليفة عباسي استعان بالأتراك وأسند إليهم المناصب.. وقد عُنيَ المعتصم باقتناء الترك فبعث في شرائهم إلى سمرقند وفرغانه وغيرهما من النواحي. وبذل في سبيل ذلك الأموال وألبسهم أنواع الديباج.

ولم يكن الباعث له أنَّ أمَّهُ تركية فقط بل وجد الأتراك ذوي شجاعة وصباحة واقدام وتمسك بأهداب الإسلام فولاهم حراسة قصرة، وأسند إليهم الولايات والمناصب وآثرهم على العرب والفرس وجعلهم خاصته وأهل مودته..[1]

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٢/١٩٣ نقلاً عن جيبون:

Decline and Fall of the Roman Empire, 4: 47

وتكاثروا في بغداد في عهد المعتصم حتى أربوا على خمسين ألفاً[2] وكان الشاب التركي يحصل على حريته إذا ما أخلص في خدمة مولاه. . وسرعان ما يصلون إلى مناصب القيادة والإمرة. بل أصبحت الخلافة بكاملها طوع أمرهم وبدأ عهد الخلافة في الذبول ونجم الأتراك في صعود حتى استبدوا بالخليفة وجعلوه ألعوبة في يدهم. . بل وصل الأمر بهم أن سملوا أعين الخلفاء وقتلوا بعضهم وحبسوا بعضهم. .

الأتراك في العصر العباسي الثاني:

كان العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٤٤٧ هـ) يمثل بداية الضعف والتخلخل في كيان الخلافة العباسية. . وأول هؤلاء الخلفاء المتوكل وآخرهم المقتدي. .

وكان بغا الكبير والفتح بن خاقان هما المدبران لأمر المتوكل الذي اغتاله بغا الصغير وباغر.

وكان موقف الخليفة المستعين بالله العباسي في نهاية الضعف حتى قال فيه الشاعر:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

ولما تولى المعتز الخلافة حاول أن يخفف جهده من طغيان هؤلاء عليه، فلما أحسوا منه ذلك قاموا بقتله شر قتله. . وكان موقف المهتدي الذي خلفه ضعيفاً حتى رفع يديه إلى السماء وقال

---

(١) المصدر السابق ج ٢/١٩٤.

كما يروي الطبري: «اللّهم إني أبرأ إليك من فعل موسى بن بغا وإخلاله بالثغر وإباحته العدو فإني قد أعذرت فيما بيني وبينه.. اللّهم تولَّ كيد من كايد المسلمين، اللّهم أنصر جيوش المسلمين حيث كانوا. اللّهم أني شاخص بنيتي واختياري إلى حيث نُكب المسلمون فيه، ناصراً لهم ودافعاً عنهم، اللّهم فآجرني بنيتي إذ عدمت صالح الأعوان، ثمّ انحدرت دموعه يبكي».[1]

ورغم أنَّ المهتدي كان من أحسن الخلفاء العباسيين سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة وخشوعاً وتشبهاً بعمر بن عبد العزيز في عدله وزهده إلاَّ أنَّه كان ضعيفاً لم يستطع أن يفلت من تدخل قواده وحاشيته، وثقل على الخاصة والعامة بحمله إياهم على الطريق الواضحة فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه وعملوا الحيلة حتى قتلوه كما يقول المسعودي.[2]

إلاَّ أنَّ هؤلاء القواد أفادوا الدولة العباسية حيث قضوا على الثورات التي نشبت والفتن التي استعرّت بالعراق وغيرها مثل ثورة بابك الخرمي، وثورة الزنج والقرامطة وثورات العلويين وغيرها..

ومع هذا فإنَّ الضعف أخذ ينتاب هذه الدولة العجوز في عقر دارها حتى أن توزون وزير البلاط وأمير الأمراء سمل عيني خليفتين هما المتقي والقاهر. قال السيوطي[3]: ولما كُحل المتقي قال القاهر:

---

(١) ابن جرير الطبري ج ١٣٣/١١.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ج ٤٣١/٢.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣.

صـرتُ وإبـراهيم شيخي عمى   لا بـدّ لـلشيـخـين من مـصـدر
مـا دام تـوزون لـه إمـرة   مـطاعـة فـالميـل في المـجـمـر

وظل المتقي مسجوناً خمساً وعشرين سنة إلى أن مات في شعبان سنة ٣٥٧ هـ. وقد ظهر في هذا العصر العباسي الثاني مجموعة من الدول الإسلامية المستقلة والتي لم تكن تدين للعاصمة بغير الولاء الأسمي والدعاء للخليفة على المنابر وإرسال بعض الجبايات والأموال.

وكان للأتراك الشرقيين في هذه الدول دور وأي دور فقد قامت الدول التالية وجلها أن لم يكن كلها من العنصر التركي الآتي من التركستان الشرقي وهي:

١- الدولة الغزنوية.
٢- الدولة الطولونية.
٣- الدولة الأخشيدية.
٤- الدولة السلجوقية الكبرى والسلاجقة العظام ثمّ السلاجقة في الأمصار المختلفة والأتابكيات.
٥- الدولة الخوارزمية.

ولا شكّ أنَّ أكثر هذه الدول تأثيراً وأطولها عمراً هي الدولة السلجوقية تليها الدولة الغزنوية. وسنتحدث عن كل واحدة من هذه الدول بإيجاز شديد.

وقد تبع هذا العهد دول كثيرة لعب فيها العنصر التركي القادم من التركستان الشرقية وبلاد القبجاق دوراً بارزاً. وذلك في العصر المملوكي حيث كان كثير من حكام المماليك من تلك المناطق.

ثمّ ظهرت دولة تيمورلنك الذي ظهر من قبائل البرلاس التركية وكان يمت بنسب إلى جنكيز خان من جهة أمه. وأقام أمبراطورية باذخة امتدت من حدود الصين إلى موسكو ووارسو. . وخضعت له معظم بلاد العالم القديم المعروف آنذاك. ثمّ تولى أبناؤه من بعده وأقاموا دولاً باذخة في أفغانستان والهند. وقد عرفت الدولة التيمورية في الهند باسم الدولة المغولية، وبقيت هذه الدولة حتى القرن التاسع عشر الميلادي. وفي نفس الفترة ظهرت الدولة العثمانية وكانت أطول عمراً وأعظم تأثيراً من كل الدول السابقة ويرجع آل عثمان إلى الأتراك الشرقيين. . وقد استطاعوا أن يوسعوا رقعة الإسلام في أوروبا كما استطاعوا أن يحموا الأقطار الإسلامية الأخرى من الغزو الصليبي والاستعماري الأوربي لفترة طويلة من الزمان.

ولم تنته هذه الدولة العظيمة إلاَّ بعد الحرب العالمية الأولى بعد أن تكالبت عليها دول أوربا قاطبة وتمكنت من تمزيق أوصالها. .

لهذا كله نجد أنَّ إسهامات التركستان الشرقية في التاريخ الإسلامي تمتد عبر عشرة قرون تقريباً كما أنَّها تمتد عبر المكان فتشمل مناطق واسعة من حدود الصين وحتى أسوار فينا.

وليس من السهل الإلمام بهذا التاريخ الحافل في هذا البحث إلاَّ بصورة موجزة جداً.

الدولة الغزنوية

٣٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٢-١١٨٦م

كان البتكين ذا منزلة رفيعة عند الأمير عبد الملك بن نوح الساماني الذي جعله حاجباً له كما عينه سنة ٣٤٤ هـ عاملاً له على مدينة هراة (في شمال غرب أفغانستان). . والبتكين هذا من التركستان الشرقية التي أخذ منها وصار مولى لعبد الملك بن نوح. ثمّ تولى البتكين حكم غزنه عام ٣٥٢ هـ ولكنه توفي بعد عام واحد.

ويعتبر سبكتكين، أحد موالي البتكين وزوج ابنته، المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية وسبكتكين أيضاً من التركستان الشرقية.

واستطاع سبكتكين بحكمته وشجاعته أن يؤسس دولة قوية قامت على دعائم باذخة وأستولى سبكتكين على معظم الأراضي المعروفة اليوم بأفغانستان، كما أسس مدينة بشاور الموجودة اليوم في شمال باكستان وفتح سبكتكين شمال الهند. وظل سبكتكين في الحكم عشرين عاماً وطد فيها أركان مملكة قوية (٣٦٦-٣٨٧هـ/٩٧٦ - ٩٩٦ م).

وكانت علاقته بآل سامان طيبة وحارب معهم جميع أعدائهم وحقق لهم انتصارات بالغة فولاه نوح بن منصور الساماني على جميع خراسان وذلك سنة ٣٨٤ هـ وبذلك اتسعت رقعة مملكة سبكتكين من شمال الهند إلى خراسان.

وكان سبكتكين كما وصفه ابن الأثير عادلاً خيراً كثير الجهاد جسن الاعتقاد، ذا مرؤة تامة وحسن عهد ووفاء».[1]

يمين الدولة وأمين الملة محمود الغزنوي (٣٨٨ - ٤٢١ هـ) (٩٨٨ - ١٠٣٠ م).

لقد استطاع محمود الغزنوي أن يوطد بناء المملكة التي أسسها أبوه وأن يعلي بناءها شامخاً باذخاً ووصلت هذه الدولة أقصى اتّساعها وذروة مجدها في عهده الميمون المبارك.. واشتهر محمود الغزنوي بتقواه وعلمه وجهاده وقد وصفه ابن الأثير بقوله: «كان محمود الغزنوي عاقلاً ديناً خيّراً عنده علم ومعرفة، له كثير من الكتب في الفنون، وقصده العلماء من أقطار البلاد، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم.. وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم، كثير الغزوات ملازماً للجهاد، وفتوحه مشهورة مذكورة».

وقد بلغ محمود الغزنوي في فتوحاته في الهند، كما يقول ابن خلكان «إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية ولم تنل به قط سورة ولا آية. فدحض عنها أجناس الشرك وبني بها مساجد وجوامع وأقام بدلاً عن بيوت الأصنام مساجد الإسلام وعن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والإيمان».[2]

ووصفه المؤرخ العتبي بقوله. «إنَّ راية الإسلام لم تظل على

---

(١) ابن الأثير: ج ٤٨/٩.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٨٤

سلطان أحسن ديناً وأصدق يقيناً وأوقع حلماً وأسدَّ سيرة وأخلص سريرة وأتم وفاء وأعم سخاء....... من الأمير السيد الملك المؤيد يمين الدولة وأمين الملة أبي القاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سبكتكين». [1]

«وقد دوخ الهند من أقصاها إلى أقصاها» كما يقول شكيب أرسلان[2] «وتألب عليه رجوات لاهور وانبغال ودهلي واجمير وقنوج وغفا ليور وكالنجار وأودجين حزمة واحدة. ووقف العالم البرهمي بإزاء العالم الإسلامي في واقعة باتنداه وتمزق شمل الراجاوات كل ممزق وفتح محمود كشمير ودهلي وأقام ولاة من قبله في لاهور.... وقصد كوجرات وحطم الصنم الأعظم سومنات وفتح بها ذلك الفتح الذي تضاءلت أمامه الفتوح وأثنت عليه الملائكة والروح.»

وبسبب هذه الفتوحات المتعددة أطلق عليه الخليفة العباسي المقتدر لقب سلطان وسماه يمين الدولة وأمين الملة..

ولم يكتف السلطان محمود بمحاربة العالم البرهمي الوثني ولكنه وسع دولته شمالاً وحارب الإسماعيلية والباطنية وأهل البدع والأهواء حتى قال عنه الإمام الذهبي: [3]

«وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر باللّه وبثَّ كلمته في عماله بخراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة

---

(١) كما ينقله عنه د.حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي ج٣/ ٩٥

(٢) حاضر العالم الاسلامي ج٢/١٩٧

(٣) كما ينقله عنه د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي ج٣/ ٨٩.

الإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة..».

وقد وسع رقعة دولته بسبب اضطراب الدولة السامانية وتآمر مماليك آل سامان الذين ثاروا على منصور بن نوح الساماني فهب محمود الغزنوي لتأديب بكتزون وفائق اللذين سملا عين منصور الساماني. وقضى عليهما قضاء مبرماً.. كما غزا محمود الغزنوي الدولة البويهية في الري (طهران) والجبل سنة ٤٢٠ هـ وذلك لأنَّ الدولة البويهية شيعية رافضة فهاجم دولتهم كما هاجم القرامطة الإسماعيلية في معاقلهم في قزوين.

ولم يكتف محمود الغزنوي بهذه الانتصارات العسكرية الباهرة ولكنه اهتم اهتماماً شديداً بالعلماء والأدباء.. وفي زمانه ظهرت نهضة علمية وعقلية وصارت غزنه مركزاً للعلم والعرفان ومشرقاً لأشعة الحكمة والبيان.. وكان في بلاطه العلماء والفلاسفة والمؤرخين والأدباء والشعراء ومن أشهرهم أبو النصر الفارابي وأبو الريحان البيروني وأبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني ومن الشعراء العجم الفردوسي صاحب الشاهنامة والشاعر العنصري والشاعر الفروخلي.. وغيرهم كثير.

وحدثت نهضة علمية وأدبية وشعرية وعمرانية لم يسبق لها مثيل في تلك الديار.. وتتمثل أهمية الدولة الغزنوية في أنها فتحت شمال الهند وحولته بصورة عامة إلى الإسلام عن طريق الإقناع. كما يتمثل دورها في نشر الإسلام في منطقة الغور الجبلية الواقعة في وسط أفغانستان والتي ظهرت منها فيما بعد الدولة الغورية الباذخة والتي أسهمت أيضاً في نشر الإسلام في البنغال.

وباختصار فإنَّ باكستان المسلمة هي نتاج فتوحات محمود

الغزنوي بينما نجد سكان بنجلادش مسلمين بجهود الغوريين بصورة خاصة، فضلاً من اللّه ونعمة.

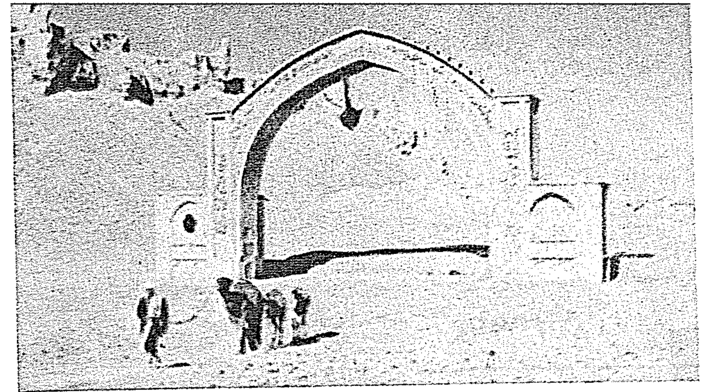
كما تتمثل أهمية الدولة الغزنوية في النهضة العلمية والأدبية التي أوجدتها باحتضانها العلماء والأدباء والحكماء.. وكانت تلك النهضة قائمة باللغة العربية منذ قرون سبقت واستمرت على ذلك. وفي العهد الغزنوي برز الشعر الفارسي واللغة الفارسية بصورة لم يسبق لها نظير بل لم يلحقها حتى في العصور التالية.. ويكفي أن نذكر الفردوسي صاحب الشاهنامة، تلك الملحمة الطويلة التي تكاد تتفوق على الألياذة التي أنتجتها قريحة هوميروس في اليونان،.. كما يكفي أن نذكر الفروخلي والعنصري والأسجودي وجميعهم من الشعراء المبرزين في اللغة الفارسية، وظهرت في عهده أيضاً الكتب العديدة في الطب والتاريخ والدين باللغتين العربية والفارسية وازدانت بها المكتبات الإسلامية.. وكان من أشهر العلماء في بلاط محمود الغزنوي أبو الريحان البيروني. واستمرت الدولة الغزنوية على منهج محمود الغزنوي في عهد ابنه مسعود.. وللأسف بدأت المعارك تشتد بين الدولتين التركيتين السنيتين المتجاورتين: الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية.. وقد استمرت هذه المعارك الطاحنة فترة طويلة من الزمان استغرقت جزءاً من عهد محمود الغزنوي نفسه ثمّ عهد ابنه مسعود ثمّ حفيده مودود بن مسعود حتى زالت الدولة الغزنوية على يد السلاجقة من جهة ويد الغوريين من جهة أخرى.

وكان زوال الدولة الغزنوية على يد شهاب الدين الغوري سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) وبقيت آثارهم في الهند فترة أخرى ثمّ قضى عليها الغوريون قضاء تاماً.

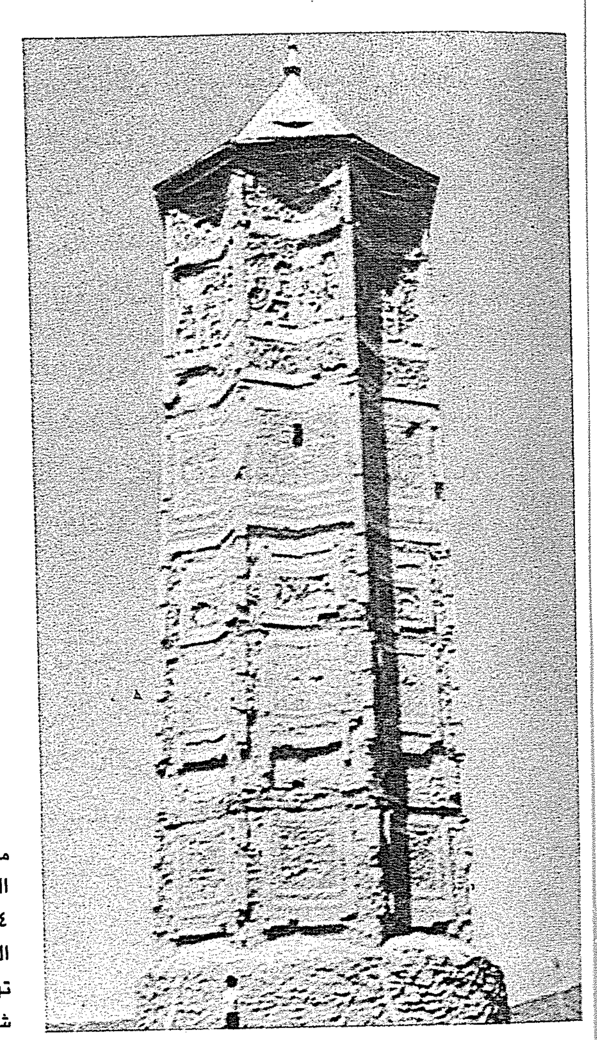
وبصورة عامة كان السلاطين الغزنويون كما ذكر ابن الأثير: «من أحسن الملوك سيرة ولا سيما جدهم محمود فإنَّ آثاره في الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهودة.»[1]

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص ٦٩.

بعض آثار مدينة بست



بقايا قصر السلطان مسعود الغزنوي في بست التي كانت العاصمة الشتوية.



منارة مسجد السلطان مسعود بن محمود الغزنوي (٤٩٣ ـ ٥٠٨ هـ) (١٠٩٩ ـ ١١١٤ م) الموجودة في غزنة، ولا تزال آثار الخط الكوفي باقية على المنارة المضلعة... لقد تهدم المسجد ولم تبقَ منه إلا هذه المنارة شاهدة على ما قدمه الغزنويون للإسلام وأهله.

الدولة السلجوقية

٤٢٩ - ٥٥٢ هـ/ ١٠٣٨-١١٥٧م

تعتبر الدولة السلجوقية من أعظم الدول الإسلامية التي قامت في العصر العباسي.. وكانت دولة باذخة استطاعت أن تفتح الفتوح وخاصة في الأناضول وتمهد الطريق للقضاء على الدولة البيزنطية قضاء مبرماً على يد فرع آخر من القبائل التركستانية هي الدولة العثمانية.. كما صدت هذه الدولة الغزو الصليبي على الشام والجزيرة وساهمت في نشر الإسلام فيما بقي من أراضي التركستان.

وللأسف دخلت هذه الدولة أيضاً في حروب طاحنة مع الدولة الغزنوية (تركستانية الأصل) كما دخلت في حروب لا تنتهي بين أفراد الأسرة السلجوقية حتى قتل الابن أباه والأخ أخاه وكثرت هذه الحروب بدرجة أدت إلى تفكك هذه الدولة ومعاناة الأهلين الآمنين..

ويرجع السلاجقة إلى سلجوق بن دقاق (تقاق) من بلاد كشغر التي تقع حالياً في التركستان الشرقية المعروفة باسم سينكيانج والتي تحتلها الصين الشعبية. وكان دقاق كما وصفه ابن الأثير(١) زعيم الأتراك الغز «شهماً ذا رأي وتدبير».. وكان ابنه سلجوق عالي الهمة واسع العقل والكرم حتى جعله ملك الأتراك الشرقيين قائد

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج٩ ص ١٧٦.

جيشه. ولكنَّ الملك أوجس منه خيفة بعد أن استمال سلجوق قلوب رجال الدولة إليه وأصبح الأمر لا يبرم دونه فدبر مكيدة لاغتياله فعلم بها سلجوق وخشيَ على حياته فسار هو وقبيلته إلى ديار الإسلام بنواحي جَنَد وأعلن إسلامه. وأصبح منذ ذلك الحين قوة للمسلمين واستعان به السامانيون في صد غارات الأتراك الشرقيين الذين لم يسلموا بعد. وكان لسلجوق أربعة من الولد كلهم على مثل شجاعته.

ولما رأى محمود الغزنوي تعاظم قوة السلاجقة في بلاد ما وراء النهر خشيَ مغبة تلك القوة على دولته ففرقهم ولكنهم تجمعوا في عهد خليفته مسعود. واستطاع طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق أن يستولي على مرو عاصمة خراسان وذلك عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) وخُطب له باسمه وتلقب بلقب ملك الملوك واشتعلت الحرب بين مسعود الغزنوي وطغرلبك السلجوقي، وانتهت تلك المعارك العديدة بالهزيمة للجيش الغزنوي وصعود نجم بيت سلجوق وامتدَّ سلطان السلاجقة حتى قضى على كل الدويلات المجاورة. واعترف الخليفة العباسي بطغرلبك وذكر اسمه في الخطبة في بغداد ونقشه على السكة قبل اسم السلطان البويهي.

وكان البويهيون قد استولوا على عاصمة الخلافة وأصبحت الإمرة فيهم... ورغم اعترافهم بالخليفة العباسي وخضوعهم الأسمى له إلاَّ أنَّ ميولهم كانت شيعية. واستطاع الداعي الفاطمي الداهية مؤيد الدين أن يؤثر على السلطان البويهي أبي كاليجار تأثيراً قوياً بحيث أصبح يحضر مجلس درسه ولا يكاد يتصرف دون أمره حتى كتب الداعي الفاطمي مؤيد الدين إلى الخليفة الفاطمي

بالقاهرة يبشره أنّ الديالمة قد أصبحوا إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين.

لهذا كله سُرَّ الخليفة العباسي بظهور طغرلبك السلجوقي السني. ودخل طغرلبك بغداد في احتفال مهيب في يوم الجمعة لثمان بقين من شهر رمضان سنة ٤٤٧ هـ.. وقام طغرلبك على عادة الأعاجم والأتراك بتقبيل الأرض بين يدي الخليفة القائم واعترف به القائم سلطاناً وحاكماً على أراضي الدولة.

وعندما انشغل طغرلبك بمعركة مع أخيه إبراهيم ينال استغل الفرصة قائد تركي آخر كان في بغداد يدعى البساسيري.. والغريب حقاً أنَّ هذا التركي كان إسماعيلياً على نقيض الأتراك بصورة عامة الذين كانوا من أشد الناس تمسكاً بالمذهب السني وأكثرهم بغضاً لمذاهب الشيعة.[١]

وقد أستولى البساسيري على بغداد ووقع الخليفة القائم أسيراً بين يديه.. واستعطفه الخليفة بحق البيت النبوي وحق بني هاشم عندما هم بقتله فتركه وحبسه في إحدى الدور.. وأعلن البساسيري الدعوة للخليفة الفاطمي ودعا له على المنابر.. ولأول مرة في التاريخ تصبح بغداد فاطمية واستمرت على ذلك لمدة عام.

واستنجد الخليفة بطغرلبك سراً وأعد طغرلبك للأمر الخطير عدته فتظاهر بأنَّه يريد الحج ثمّ هجم على بغداد وحارب البساسيري حتى ظهر عليه وقتله وحمل رأسه إلى بغداد وأعاد الخليفة

---

(١) بقي الاتراك لاكثر من عشرة قرون على مذهب السنة، وبالذات مذهب الامام أبي حنيفة النعمان.. ومع هذا فإن أتراك أذربيجان في غالبيتهم شيعة جعفرية إمامية، ويوجد في طاجكستان أيضاً مجموعة من الشيعة الاسماعيلية.

العباسي إلى مقره معززاً مكرماً. . وازدادت ثقة الخليفة العباسي بطغرلبك فجعله ملك المشرق والمغرب، وخلع عليه سبع خلع سود تمثل أقاليم المملكة السبعة وعممه بعمامة مذهبة وقلدَّه سيفه وأعطاه عهده وذلك في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٤٥١ هـ. وتفرغ القائم بعدها للعبادة فلزم مصلاه ولم يضع رأسه على مخدة وأكثر من الصيام والقيام حتى لاقاه الحِمام.

وكان طغرلبك كما وصفه ابن الأثير[١] عاقلاً حليماً من أشد الناس احتمالاً وأكثرهم كتماناً لسره وكان يحافظ على الصلاة ويصوم يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع وكان يلبس الثياب البيض كريماً. ولم يكن له عقب فلما توفي خلفه ألب أرسلان بن أخيه داود.

وكان من حسن حظ ألب أرسلان أن وزر له رجل في منتهى الذكاء والدهاء والعلم والبصيرة يدعى نظام الملك. وإليه تنسب المدارس النظامية التي انتشرت في عهده وهو (أبو الحسن على بن إسحاق الطوسي)، والتي أصبحت من أشهر الجامعات في العالم والتي كان يتولى التدريس فيها أفذاذ العلماء من أمثال الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي كما درس فيها نظام الدين نفسه.

وقد كان عهد ألب إرسلان حافلاً بجلائل الأعمال رغم قصره (٤٥٥ ـ ٤٦٣ هـ). وقد وسع رقعة المملكة شرقاً وأخضع بلاد ما وراء النهر كما وسع رقعة المملكة غرباً وشمالاً في الأراضي البيزنطية. . وأسلم على يديه ويدي أتباعه كثير من أهالي الأناضول. . وحارب الدولة الفاطمية في الشام وأخضع حلب ومكة

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ج١٠ ص ١٠.

والمدينة بعد أن كان الفاطميون قد تسلطوا عليها. . وتعتبر معركة ملاذجرد من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ الإسلامي والتي وقعت سنة ٤٦٣هـ.

وقد تجمع جيش الأمبراطورية البيزنطية بقيادة الأمبراطور دويوجنيس رومانوس في مائتي ألف مقاتل وسار حتى وصل ملازجرد (ملاذجرد) من أعمال خلاط (في أرمينيا السوفيتية اليوم). وكان السلطان ألب أرسلان في مدينة خوي بأذربيجان وعساكره متفرقة في البلاد ولم يكن في عسكره سوى ١٥،٠٠٠ (خمسة عشر ألف) مقاتل وحاول أول الأمر أن يتجنب قتال الأمبراطور لما رأى من جيشه اللجب الكثيف، ولكن أرمانوس رفض الهدنة فعقد السلطان أرسلان العزم على القتال وصلّى السلطان بالناس الجمعة، وبكى السلطان متضرعاً إلى اللّه في النصر وأخذ السيف ولبس البياض وتحنط وقال إن قتلت فهذا كفني. وقال لجنده «من أراد القتال فليقاتل رغبة في الشهادة فليس ثمة أمير ولا مأمور ومن أراد العودة فليعد». فما تخلف واحد من جنده، وصدقوا اللّه في القتال فانتصروا انتصاراً مؤزراً باهراً. وأُسر أمبراطور الروم. ومنَّ عليه السلطان فأطلق سراحه فأصبح من أنصار السلطان وسيَّر إليه الأموال وخضعت جورجيا (كرجستان) وأرمينيا وأرّان(أذربيجان السوڤيتية) وجميعها الآن في الاتحاد السوڤيتي لحكم السلطان ألب أرسلان وانتشر فيها الإسلام كما انتشر أيضاً في الأناضول انتشاراً واسعاً على يدي هذا السلطان المجاهد.

كان ألب أرسلان كما وصفه ابن الأثير[١]: «كريماً عادلاً عاقلاً

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٢٨/١٠.

رحيم القلب مقراً بأنعم اللّه عليه وكان يتصدق على الفقراء طوال العام ويجزل لهم العطايا في شهر رمضان من كل عام. وكان يكره السعايات فقد رأى ذات يوم سعاية ووشاية في مصلاة بوزيره نظام الملك فلما قرأها سلمها الوزير وقال له: «خذ هذا الكتاب فإنّ صدقوا فيما كتبوه فهذِب أخلاقك وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلتهم وأشغلهم بمهمٍّ يشتغلون به عن السعاية بالناس.»

وكان كما يقول ابن خلكان[1] قد عظمت مملكته ورهبت سطوته وفتح من البلاد ما لم يكن لعمه طغرلبك مع سعة ملك عمه.

وخلفه بعده ابنه ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ) واتسع ملكه اتساعاً عظيماً ودُعيَ له على منابر البلاد الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى بلاد الشام غرباً ومن الأناضول شمالاً إلى اليمن جنوباً.

واستطاع ملكشاه أن يسوس هذا المملكة الواسعة بفضل حزمه وذكائه وشجاعته يساعده في ذلك الوزير الهمام العالم الألمعي نظام الملك الطوسي الذي وزر لأبيه من قبل.

وقد اتسعت العمارة وصلحت الزراعة وانتشر العلم في عهد السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك الذي رصد الأموال الضخمة لنشر العلم وتأسيس المدارس (الجامعات الكبرى) وتشجيع العلماء وتكوين المراصد الفلكية وإقامة الجسور وإصلاح الزراعة وتفقد الرعية. وقد عمل في هذا المرصد الهام الفلكي والشاعر المشهور عمر الخيام وأبو المظفر الاسفزاري وميمون بن النجيب الواسطي.

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج٤/١٦١

وعندما زار ملكشاه بغداد فوَّضَ إليه الخليفة العباسي أمر البلاد والعباد.. وأصهر الخليفة إلى ملكشاه. وكان ملكشاه كما وصفه ابن خلكان[1]: «أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل» وكان يجلس للمظالم بنفسه ويقضي بين الناس بالقسطاس والعدل وكانت السبل في أيامه آمنة والقوافل تسير من بلاد ما وراء النهر في أمن وطمأنينة.

وبموت السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) انتهى العصر السلجوقي الأول الذي عرف في التاريخ باسم العصر الذهبي للدولة السلجوقية.

وتولى الحكم سنجر بن ملكشاه بعد وفاة أبيه، وبعد أن تولى مجموعة من أخوته وأبناء إخوته الحكم واشتدت فيها المعارك بين السلاجقة. وقد حكم خراسان وبلاد ما وراء النهر قبل توليته السلطنة وبعدها حكماً يتميز بالحكمة والحزم.. ورغم صفات سنجر الحسنة العديدة إلاَّ أنَّ الحروب العنيفة التي ظهرت داخل البيت السلجوقي نفسه أدت إلى ضعف هذا البيت. وإلى أن تظهر قوة منافسة في الشرق هي قوة الخوارزميين. وذلك على يد إتسز المملوك التركي السلجوقي الذي ولاه سنجر منطقة خوارزم فاستطاع أن يحكمها حكماً قوياً جعله يستقل بها عن حكم سنجر وقد وقعت بينهما حروب عدة انهزم فيها إتسز. والغريب حقاً أنَّ سنجر كان يعفو عنه في كل مرة ويعيده إلى حكم خوارزم.[2]

---

(١) المصدر السابق ج٤/ ٣٧١ - ٣٧٤.

(٢) هناك أسباب عدة أدت إلى عودة اتسز إلى عرشه في خوارزم. انظر فصل الدولة الخوارزمية ص ٥٤.

كما أنَّ الغوريين الذين ظهروا من أفغانستان ثاروا عليه ولكن سنجر استطاع أن يهزم علاء الدين حسين الغوري ويأخذه أسيراً ولكنه عفا عنه وأعاده إلى مملكته في أفغانستان بعد أن أظهر الخضوع له.

وفي سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) هُزِمَ سنجر لأول مرة هزيمة منكرة على أيدي الأتراك المعروفين باسم الخطا الذين لم يكونوا قد أسلموا بعد. واستولى كورخان زعيم الخطا (الأتراك الشرقيين الكفار) على مرو وسرخس ونيسابور وبيهق.

وقد اهتز الشاعر فريد الدين الكاتب وتلميذ الأنوري شاعر سنجر فقال معزياً للسلطان سنجر بالفارسية:

«أيها الملك إنَّ الدنيا قد استقامت بفضل سنانك.

وانتقم سيفك من أعدائك طوال أربعين سنة.

فإن تكن عين السوء قد أصابتك فذلك فعل القضاء.

واللّه وحده الباقي على حالة واحدة.»

وقد استطاع سنجر بعد ذلك أن يهزم الخطا، كما يذكر ذلك الأنوري شاعر سنجر الخاص في قصيدته التي يقول له فيها:

ـ «الآن غدت قوائم الملك ثابتة وقواعده راسخة لأنَّ ركابك قد استقر.

ـ لقد رأيتَ أياماً اضطرب فيها الملك على يد الخطا ثمّ خجلت الأيام فاعتذرت واحتضنت عرشك.»

ولكنَّ سنجر في أيامه الأخيرة حارب الغز من بدو الترك الشرقيين المسلمين الذين كانوا يقطعون الطريق وانتهى الأمر

بانتصار الغز وأسر سنجر وزوجته. . ورغم أنَّ الغز كانوا يبدون له الاحترام الفائق أثناء أسره إلاَّ أنَّهم عاثوا في الأرض فساداً بعد هذه الوقعة.

واستغل من بقي من قواد سنجر والإسماعيلية غياب سنجر في الأسر فاستولوا على المناطق المجاورة.

وعندما ماتت زوجة سنجر في الأسر قرر الفرار. ولكنه عندما عاد إلى مرو عاصمة ملكه وجد الخزائن خالية والبلاد خربه والرعية مشردة فانتابه الحزن والغم. وسقط فريسة مرض عضال أودى بحياته. وكانت وفاته بمرو سنة ٥٥٢ هـ/١١٥٧ م.

وكانت وفاة سنجر نهاية عصر الملوك العظام في الدولة السلجوقية وبدأ بعدها عصر السلاجقة الصغار الذين استقل كل واحد منهم بقطر من الأقطار وعرفوا بسلاجقة العراق وسلاجقة كرمان وسلاجقة آسيا الصغرى (سلاجقة الروم) وسلاجقة الشام. . وظهر بعدهم الأتابكة. . والأتابكة أيضاً من المماليك الأتراك الذين جلبوا من القفجاق والتركستان الشرقية.

ويتميز العصر السلجوقي بالميزات التالية:

١- وسع أراضي الدولة الإسلامية في الأناضول ووطّد أركانها في كرجستان (جورجيا) وأرمينية وأذربيجان (وجميعها جمهوريات في الاتحاد السوڤيتي حالياً). . ونشر الإسلام بصورة واسعة في تلك الأصقاع.

٢- حمى الخلافة العباسية من الاندثار، ورفع لواء السنة وحارب الشيعة وخاصة الشيعة الإسماعيلية وقضى على ثورة البساسيري

التي تمّ الاستيلاء فيها على بغداد والدعاء على المنابر بها للخليفة الفاطمي الإسماعيلي.

٣ـ شارك في الذود عن حياض الإسلام في بيت المقدس والشام من الحملات الصليبية التي كان ينظمها بابا روما وتشترك فيها دول أوربا.

٤ـ نشر العدل والرخاء في كثير من الأقطار الإسلامية ـ وساهم في نشر المعرفة والعلوم بإقامة المراصد والمستشفيات والجامعات التي عرفت باسم المدارس النظامية.. وظهر كثير من إفذاذ العالم الإسلامي في عصرهم وتحت رعايتهم نذكر منهم الفلكي الرياضي الشاعر عمر الخيام والفيلسوف الأصولي المتكلم الفقيه حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي والإمام ابن الجوزي. وتقدمت في عهدهم صناعة الورق وكثر الوراقون والنساخ وازدهرت المكتبات وخاصة في مرو عاصمة السلاجقة الأولى. وقد أشاد ياقوت الحموي (الرومي) بمكتبات مرو في كتابه معجم البلدان ولا سيما في عصر السلطان سنجر السلجوقي. حتى قال فيها ياقوت «فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد وأكثر فوائد هذا الكتاب (أي معجم البلدان) وغيره (مثل معجم الأدباء) مما جمعته فهو من تلك الخزائن».

وقد ظهر الإمام الزمخشري في أيامهم واشتهر تفسيره الكشاف شهرة واسعة، وهو مطبوع، والناس تقبل عليه إلى يومنا هذا فهو من أمهات كتب التفسير. وظهر ابن منويه (توفي سنة ٤٦٨) كنحوي بارز ومفسر متوسع وقال عنه ابن خلكان في الوفيات:

«كان أوحد زمانه في التفسير. .». وظهر عدد من أهل الحديث في عهد السلاجقة منهم أبو زكريا يحي بن عبد الوهاب بن منده والمحدث الفقيه الحسين بن مسعود البغوي الفراء وكريمة بنت أحمد المروزية التي اشتهرت برواية صحيح البخاري وتوفيت بمكة سنة ٤٦٤ هـ.

كما ظهر في عصر السلاجقة الإمام المحدث الفقيه شيخ الإسلام عبدالله الأنصاري الهروي المتوفي سنة ٤٨١ هـ وظهر في العصر السلجوقي من النحاة أبو البركات عبد الرحمن الأنباري المتوفي سنة ٥٧٧ هـ وأبو نزار البغدادي وابن الدهان المتوفي سنة ٥٦٩ هـ وابن الخشاب البغدادي المتوفي سنة ٥٦٧ هـ.

وظهر ابن الأثير صاحب كتاب «الكامل في التاريخ» وأسد الغابة في تمييز الصحابة وتوفي سنة ٦٣٢ هـ.

وكان السلاطين من السلاجقة بصورة عامة يميلون للشعر ويتذوقون الشعر الفارسي بصورة خاصة واشتهر مجموعة من الشعراء في بلاطهم منهم الأنوري شاعر السلطان سنجر. . وظهر في عهدهم نظامي عروضي والرودكي وفرخي الجرجاني. . وكان على الشاعر في زمنهم أن يكون واسع الثقافة متنوعاً في أنواع العلوم آخذاً بأطراف الرسوم، لأنَّ «كل علم يتصل بالشعر كما يتصل الشعر بكل علم» كما كانوا يقولون.

ومن أئمة الأدب السلجوقي الطغرائي الشاعر الأديب المتفنن الذي وزر للسلطان سعود بن محمد بن ملكشاه وصاحب لأمية العجم المشهورة. . كما ظهر الحريري صاحب المقامات المعروفة. .، ومن مشهوري الأطباء في العصر السلجوقي محمد بن

علي السمرقندي والمختار بن بطلان وعبداللّه بن أبي الغنائم.

واهتم السلاجقة بعلم الفلك والنجوم وبنوا المراصد المختلفة وجعلوا فيها العلماء الفلكيين المشهورين وأغدقوا عليهم العطاء، وقد تقدم ذكر عمر الخيام الشاعر الفلكي الرياضي وأبو المظفر الأسفزاري وميمون الواسطي الذي عملوا في مرصد السلطان ملكشاه ووزيره نظام الدين على ابن إسحاق الطوسي وكان نظام الدين مولعاً بالنجوم وعلومها وكذلك كان السلطان متلمش السلجوقي يتقن علم النجوم.

ولا نستطيع أن نحصر العلماء الذين نبغوا في كل فن في العصر السلجوقي وتحت رعايتهم فذلك يستغرق مجلدات وفيما ذكرنا غنية في هذه العجالة.

الدولة السلجوقية الصغيرة ودول الاتابكة

بانتهاء عصر سنجر الذي يعتبر آخر السلاجقة العظام بدأت هذه الدولة في التفكك وهزمت في المشرق (إيران وأفغانستان وما يسمى اليوم التركستان الغربية الواقعة تحت براثن الدب الروسي، والمعروفة باسم جمهورية اوزبكستان وتركمنستان وطادجكستان وجزءاً من جمهورية قازاقتسان) وانتهت هذه الدولة على يد الغوريين من جهة ويد الخوارزميين من جهة أخرى.

ورغم أنَّ الدولة السلجوقية في عصر السلاجقة العظام كانت شبه متحدة إلاَّ أنَّها في الواقع كانت تحكم ضمن عدة دول يحكمها فرع من آل سلجوق.. ويسيطر عليها في النهاية عميد هذه الأسرة بالسيف في معظم الأحيان وبالسن والدهاء في أقلها..

وقد قامت عدة دول سلجوقية نذكر منها سلاجقة كرمان وسلاجقة سوريا وسلاجقة العراق وكردستان وسلاجقة الروم (آسيا الصغرى). وقد بقيت هذه الأخيرة إلى فترة متأخرة بعد اندثار الدول السلجوقية الأخرى، وانتهت في عصر علاء الدين كيقباذ الثاني الذي حكمها من سنة ٦٩٦ إلى سنة ٧٠٠ هـ (١٢٩٦ - ١٣٠٠ م).. وربما دخل السلاجقة الداسمندية الذين حكموا سيواس وقيصرية وملطية في الأناضول أيضاً ضمن سلسلة سلاجقة الروم. وكان آخرهم إبراهيم بن محمد الثاني الذي حكم حتى عام

٥٦٠هـ/١١٦٥ م.

وقد حل محل دول السلاجقة حكام من الأتراك (الشرقيين) يعرفون بالأتابكة وكان هؤلاء الأتابكة في الأصل مماليك يجلبون من التركستان الشرقية ومن سهول القبچاق (قازاقستان)..

وكلمة أتابك أو أطابك كما يقول القلقشندي[1]. معناها الوالد الأمير. وذلك لأنَّ السلاطين السلاجقة كانوا يعهدون بتربية أولادهم إلى من يثقون به في حكمته وشجاعته.. وقد يتوفى السلطان وابنه صغير فيتولى الأتابك الحكم باسمه ونيابة عنه. وأول من تلقب بهذا اللقب نظام الملك الطوسي (وهو فارس الأصل على نقيض بقية الأتابكة الذين كانوا أتراكاً) وذلك في عهد السلطان ملكشاه سنة ٤٦٥ هـ. والأتابك يقوم في كثير من الأحيان بتربية الأمير أو الأمراء أولاد السلطان، كما يتصرف في أمور الدولة.

وعندما ازدادت الحروب والخلافات بين السلاجقة، استطاع بعض هؤلاء الأتابكة الاستقلال بحكم المناطق التي كانوا فيها.

وهكذا ظهر الأتابكة في مناطق مختلفة فهناك مثلاً أتابكة دمشق وما حولها وأتابكة ماردين وأتابكية الموصل وأتابكية الجزيرة.. إلخ.

وقد ظهر من أتابكية الموصل عماد الدين زنكي الذي اشتهر شهرة واسعة في محاربة الصليبيين في الشام.. وقد تولى والد عماد الدين زنكي ويدعى آق سنقر حكم الموصل وحلب وحماه واللاذقية

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى ج ٤ ص ١٨

وحمص وذلك في عهد ملكشاه الذي كان يحبه حباً جما. . وعندما ولى بركياروق بن ملكشاه وقف آق سنقر مع ابن صديقه وولى نعمته يحارب تتش السلجوقي (عم بركياروق) وقتل آق سنقر في تلك المعركة.

وقام السلطان بركياروق برعاية عماد الدين زنكي الذي كان طفلاً عند وفاة والده آق سنقر وأظهر شجاعة فائقة في جميع المعارك التي نشبت مع الصليبيين. . كما استطاع أن يكسب رضا السلاطين السلاجقة وولاه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي أمر البصرة، ثمّ تولى شرطة بغداد والعراق. ثمّ صدر منشور السلطان بإقطاعه الموصل والجزيرة والشام وفي سنة ٥٢٢ هـ استولى عماد الدين على حلب التي كان الصليبيون يهددونها. .

وقد توثقت العلاقة بين نجم الدين أيوب وعماد الدين زنكي على أثر هزيمة الأخير في معركة ضد سلجوق شاه. وأدى ذلك إلى ظهور البيت الأيوبي ودورهم العظيم في المعارك الكبرى ضد الصليبيين الذين شنوا الغارات المكثفة على الشام (بمعناه الواسع الذي يشمل سوريا ولبنان والأردن وفلسطين) ومصر.

وقد استطاع نور الدين زنكي بتفانيه وأخلاصه أن يصد الغارات الصليبية على حلب وكثير من مناطق الشام. وكان مستعداً للتنازل عن حكمه بشرط واحد هو أن لا تدخل قوات الصليبيين بلاد المسلمين. وقد قال قولته المشهورة لقاضية الذي خاف من أن تستولى قوات السلطان مسعود السلجوقي على حلب أن هم طلبوا منه المعونة، قال: «إنَّ الصليبيين قد طمعوا في البلاد، وأن هم استولوا على حلب لم يبقَ في الشام إسلام. وعلى كل حال

فالمسلمون أولى بها من الكفار.»[1] واستطاع عماد الدين أن يحقق عدة انتصارات هامة ضد الصليبيين حتى لقبه السلطان السلجوقي بلقب الأمير الكبير العادل المؤيد المظفر الأوحد عماد الدين زنكي ابن آق سنقر نصير أمير المؤمنين».

واستطاع نور الدين بن عماد الدين زنكي أن يحقق شهرة واسعة بمواصلته سياسة أبيه العادلة وبمحاربته الصليبيين والأمراء المسلمين المتعاونين معهم.

وقد عمل نور الدين محمود زنكي على توحيد البلاد الشامية ليستطيع محاربة الصليبيين واستولى على دمشق سنة ٥٣٩ هـ/١١٥٤ م ومدَّ نفوذه إلى مصر بواسطة قواده من الأيوبيين وأشهرهم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين.. وقد أصبح صلاح الدين بعد وفاة نور الدين زنكي أكبر زعيم إسلامي في الشرق واستطاع أن يحقق الانتصارات الباهرة ضد الصليبيين بفضل أخلاصه ومثابرته وصبره.

واستطاع سلاجقة الروم (آسيا الصغرى) وسلاجقة الدانسمندية الذين حكموا سيواس وقيصرية وملطية أن يوسعوا رقعة الأرض الإسلامية في الأناضول على حساب الأمبراطورية البيزنطية وأن يحولوا أعداداً كبيرة من السكان طواعية إلى الإسلام. وبقيت دولتهم من سنة ١٠٧٧ حتى عام ١٣٠٨ م (٤٧٠ ـ ٧٠٨ هـ).

---

(١) د. حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي ج٤/٧٤ نقلا عن ابن الجوزي المنتظم ج١٠ ص ٦٧

بعض آثار سلاجقة الأناضول (الروم)

قونية عاصمة سلاجقة الأناضول (الروم):

تقع مدينة قونية في وسط الأناضول وتبعد ٢٦٠ كم عن أنقره عاصمة الدولة التركية الحديثة. وكانت قونية عاصمة دولة السلاجقة المعروفين باسم سلاجقة الأناضول أو سلاجقة الروم. وقد ظلت عاصمتهم من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر الميلاديين. ووصلت قونية ذروة مجدها في عهد السلطان علاء الدين كيكقباذ Keykubat وخلفائه (النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي) وقد ظهرت في عهده العديد من المساجد والمدارس الواسعة الجميلة التي لا تزال باقية إلى اليوم.

وفي عهده أيضاً ظهر الشاعر الصوفي المشهور جلال الدين الرومي صاحب المثنوي والذي اشتهر لدى الاتراك باسم مولانا Mevlâna وإليه تنسب الطريقة المولوية والدراويش. وتعتبر مقبرة جلال الدين الرومي تحفة فنية معمارية.. وقد بنى إلى جوارها مسجد ومدرسة ومساكن للطلاب والقاصدين.. وفي هذه المجموعة المعمارية توجد كثير من المخطوطات من العهد السلجوقي بما في ذلك نسخة قديمة من ديوان المثنوى الذي ألفه جلال الدين الرومي.

ويقع في وسط المدينة مسجد السلطان علاء الدين كيكقباذ.

ويعتبر منبر هذا المسجد ومحرابه من التحف الفنيـة المصنوعـة من خشب الابنوس المطعم بالعاج.. وبجـانب المسجد تـوجد مقـبرة تضم رفات العديد من سلاطين آل سلجوق.

وتقع مدرسة قاراطـاي في مواجهـة مسجد السلطان عـلاء الدين كيكقباذ. وقد بنيت هذه المدرسة أيضاً في القرن الثالث عشر الميلادي (في العهد السلجوقي) وتتميز بمدخلها المصنوع من المرمر الخالص... وقد تحولت الآن إلى متحف الخزفيات.

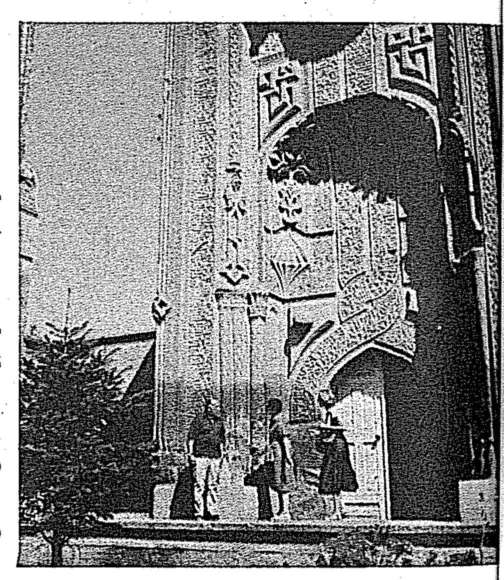
أما مدرسة مناريلي فتقع إلى جانب حديقة مسجد السلطان علاء الدين. وتتميز بأشكالها الهندسية البديعة المنحوته على الصخر والخشب.. وهي الآن متحف للمنحوتات الخشبيـة والصخريـة. وتضم مجموعة من المنحوتات السلجوقية.

وتتميز مدينة قونية الحديثة مثل قونيه القديمة بصناعة السجاد الفاخر بإلوان الزاهية الجميلة.

مدينة قونية عاصمة سلاجقة الأناضول (الروم)



قونية: مسجد السلطان علاء الدين كيكقباذ (واجهة الصحن). ويرجع بناء المسجد إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وتكسو واجهة صحن المسجد كتابات كثيرة عن الآيات القرآنية وأسماء مهندسي المسجد وهما محمد خولان الدمشقي وكريم الدين أردشاه. كما يظهر اسم السلطان علاء الدين كيكقباذ، والسلطان كيكاوس، والأتابك إياظ. وتظهر في المسجد آثار الفن الدمشقي الزنكي، حيث أن مهندس المسجد الأول هو محمد خولان الدمشقي.

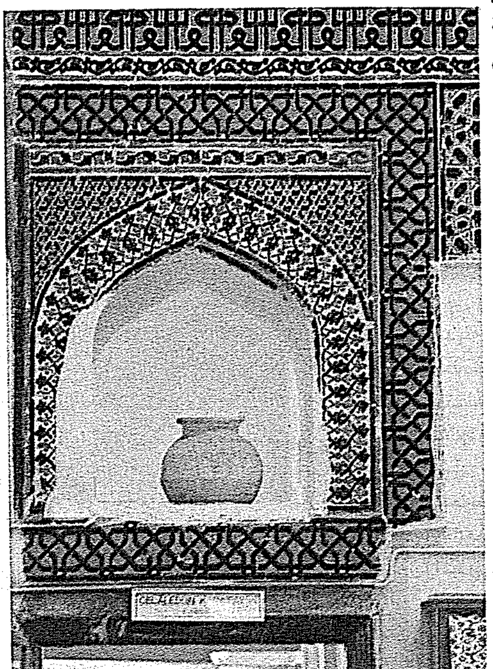


مدخل مدرسة مناريلي التي تقع إلى جانب حديقة السلطان علاء الدين كيكقباذ السلجوقي، والتي تتميز بأشكالها الهندسية الرائعة. وتوضح مدى اهتمام سلاجقة الأناضول ببناء المدارس... وقد تحولت في الوقت الحديث إلى متحف يضم المنحوتات الخشبية والحجرية التي ترجع إلى العهد السلجوقي.

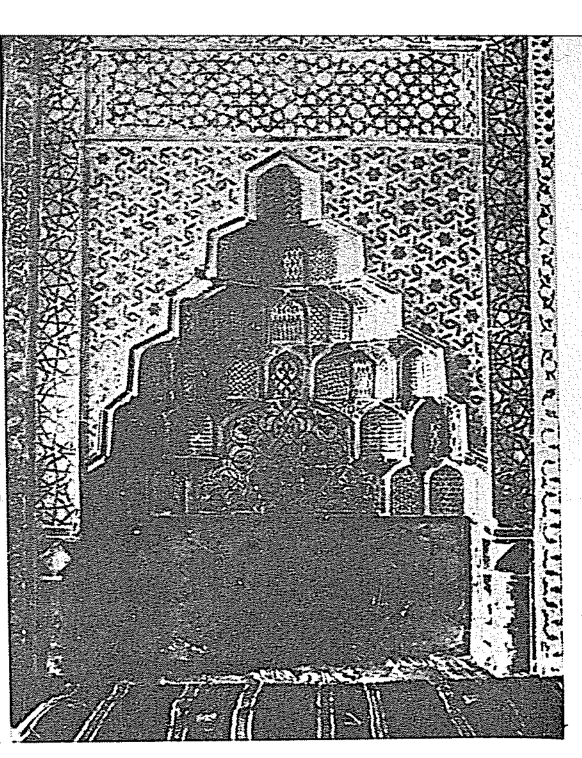
والمدرسة ومحتوياتها ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٦٠ ـ ١٢٦٥) وقد بنيت بأمر الوزير السلجوقي صاحب أتا وقام بالبناء المعماري قلوق بن عبد الله.



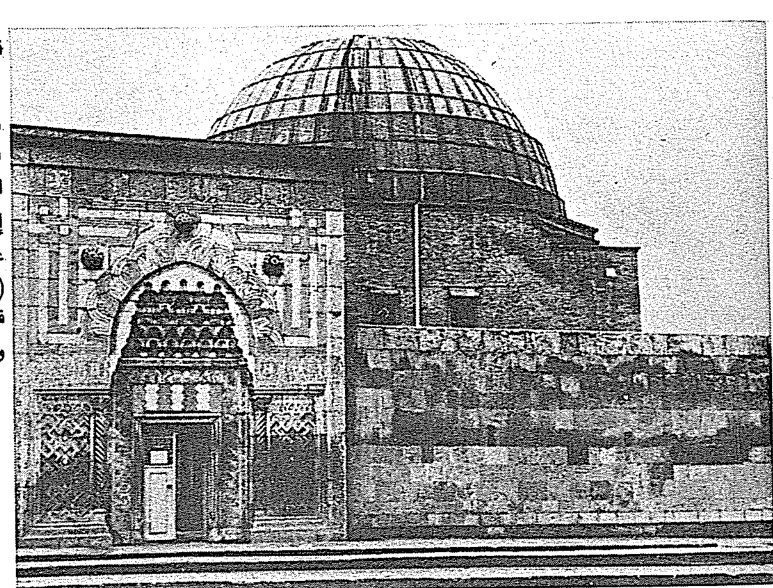
مسجد السلطان علاء الدين كيكقباذ من الداخل. ويتوسط المسجد مدينة قونية عاصمة السلاجقة. ويرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث عشر الميلادي.



مدخل مدرسة قره طاي المصنوع من المرمر الخالص والمنقوش بالقيشاني بزخرفات عديدة. وترجع المدرسة إلى العهد السلجوقي (القرن الثالث عشر الميلادي) (٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م).



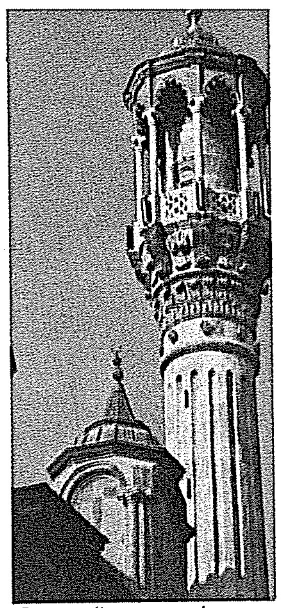
قونيه: مسجد صاحب أتا، المحراب. ويرجع بناء المسجد إلى القرن الثالث عشر الميلادي (هذه الصورة من كتاب: فنون الترك وعمائرهم إصدار مركز الأبحاث والتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول).



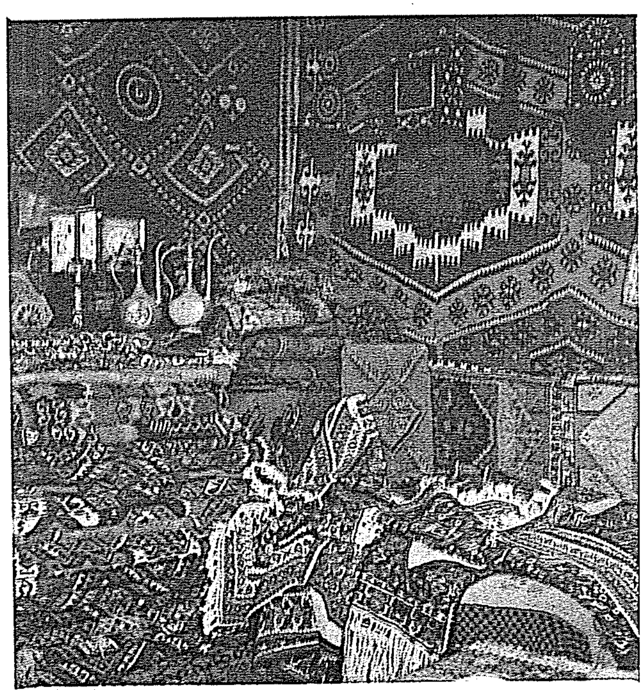
قونيه: مدرسة قرِه طاي من الخارج.. وهي تمثل الفن السلجوقي في الأناضول. وترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي. (الصورة من كتاب فنون الترك وعمائرهم).



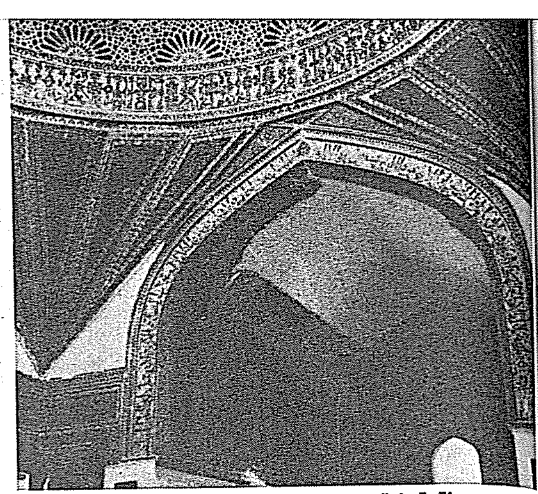
مدفن الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي صاحب المثنوي ومؤسس الطريقة المولوية الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي وإلى جانبه قبور مجموعة من السلاطين السلاجقة الذين حكموا هذه المنطقة.



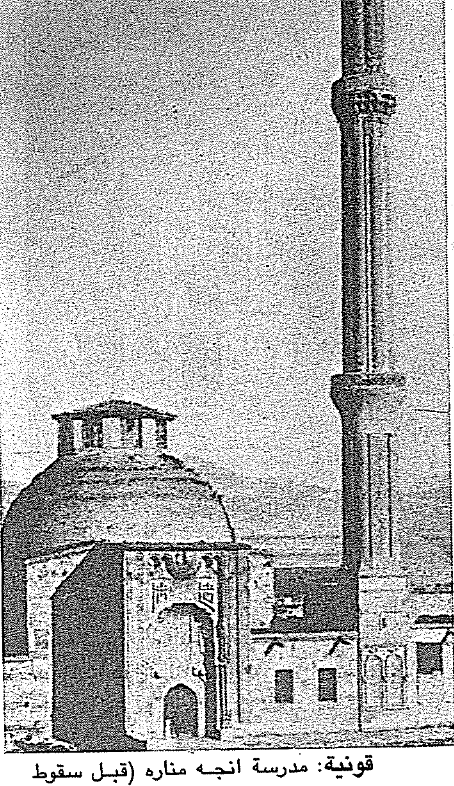
منارة مسجد العزيزية ذات الزخارف الجميلة، ويرجع المسجد إلى العهد السلجوقي.



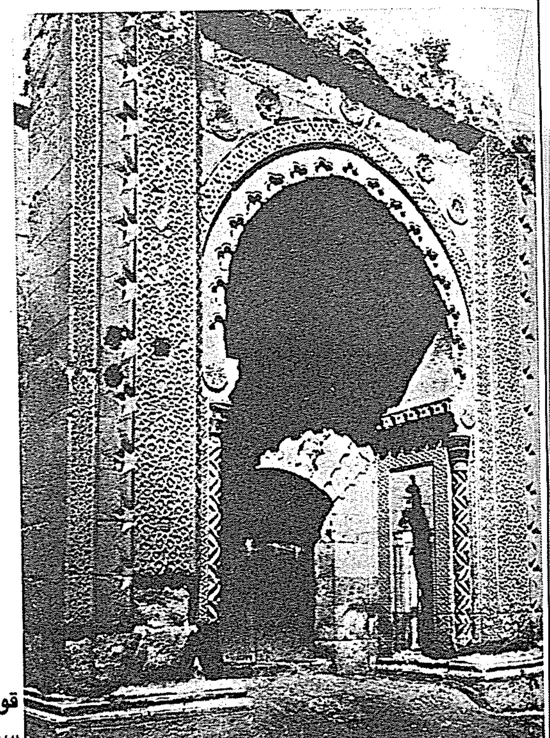
صناعة السجاد الذي اشتهرت به مدينة قونية. ويتميز بألوانه البراقة ونقوشه المتعددة.. وترجع هذه الصناعة إلى العهد السلجوقي.



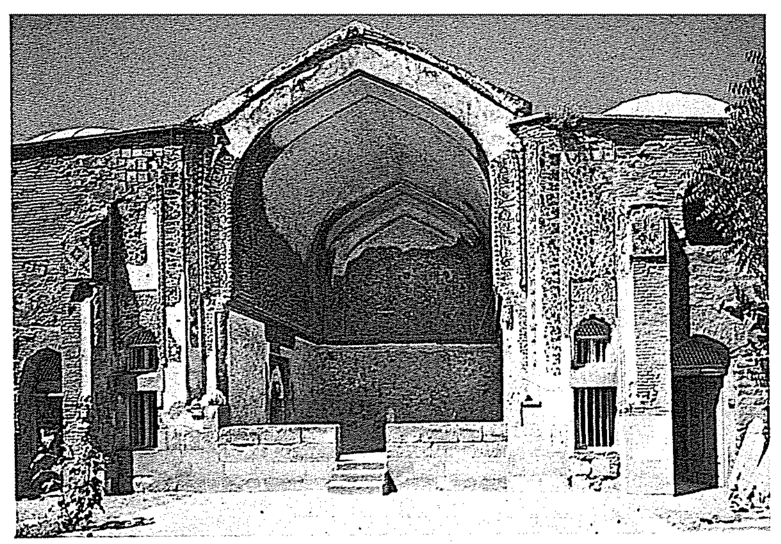
مدينة قونية: مدرسة قره طاي من الداخل تتميز بكثرة الغرف ذات القباب.



قونية: مدرسة انجه مناره (قبل سقوط المئذنة). وقد أخذت الصورة قبل عام ١٩٠٠ (نقلاً عن كتاب فنون الترك وعمائرهم).

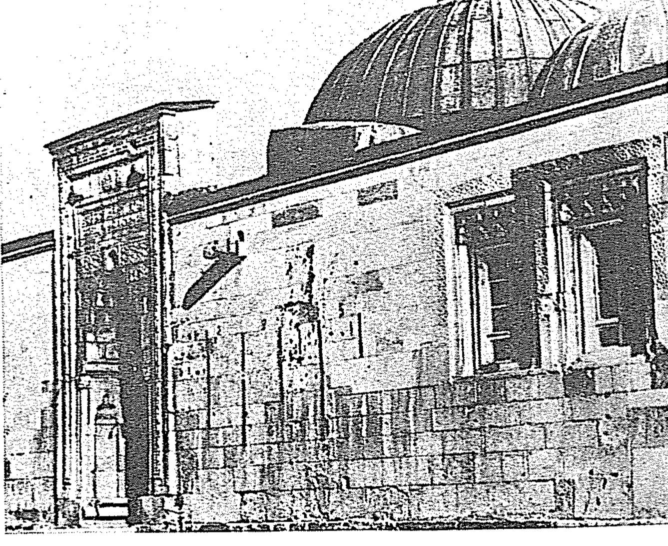


قونيه: مدخل مدرسة صرجالي (مصورة قبل سنة ١٩٠٠).

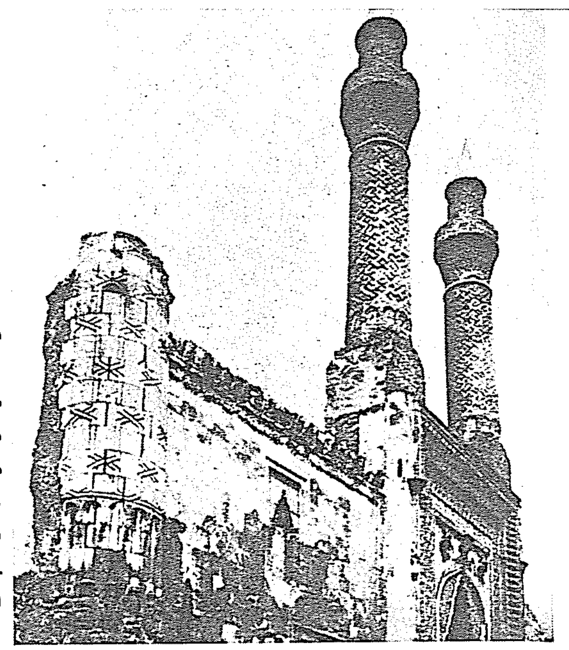


قونية: مدرسة صرجالي التي يرجع بناؤها لعام ١٢٤٢ م وهي بناء كبير من طابقين وإيوانات. ويمكن اعتبارها من الأمثلة الأولى للمدرسة التقليدية السلجوقية. وقد اشتق اسم هذه المدرسة من أسلوب زخرفتها بالبلاطات الخزفية ذات الطلاء البراق. وعلى مدخلها البارز زخارف هندسية ونقش كتابي يحدد تاريخ البناء. ويوجد إلى يمين المدخل قبر بدر الدين مصلح، مؤسس المدرسة وقد كان هذا الرجل معلماً للسلطان كيكقباذ الثاني... وبداخل الإيوان اسم مهندس المبنى: محمد بن محمود البناء الطوسي. وكتب إلى جانبه يقول بالفارسية: «إن ما أقمته لا نظير له في كل العالم، وسوف أذهب أنا ويبقى هذا الأثر حافظاً لذكري».

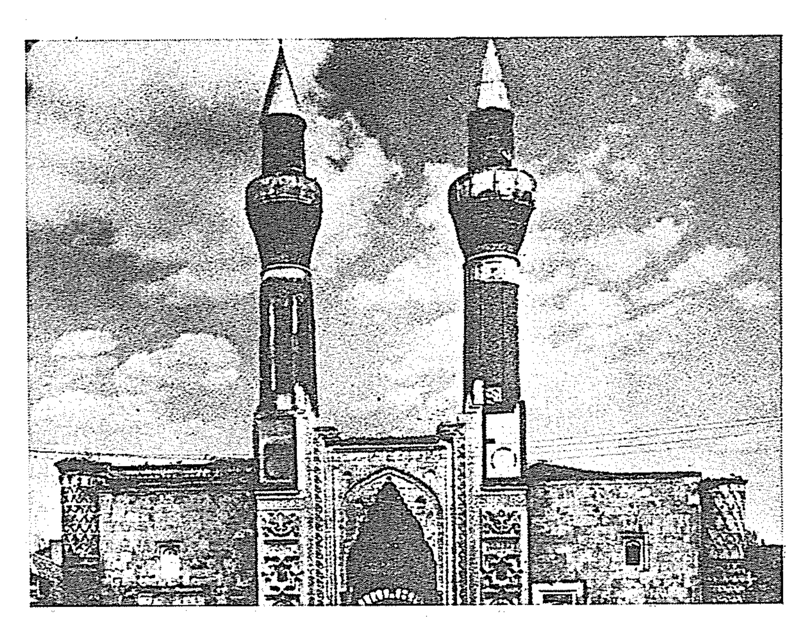
(أنظر كتاب فنون الترك وعمائرهم ص ١٠٤)



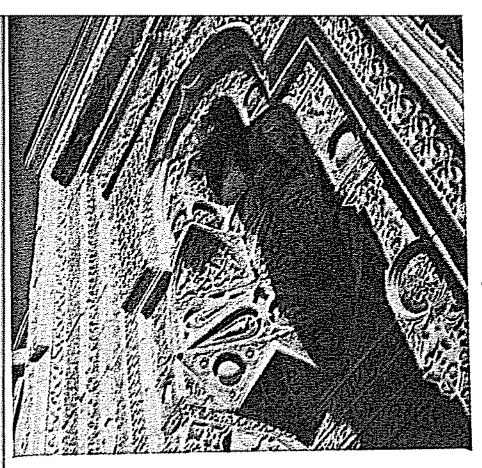
ولاية أفيون مدينة جاي:
جاي: المدرسة من الخارج وتعود إل العهد السلجوقي في الأناضول الذي كثرت فيه المساجد والمدارس والمستشفيات. وتتميز قبة مدرسة جاي بوجود معينات هندسية. وكانت هذه المدرسة تدرس العلوم الشرعية واللغة العربية والحساب والهندسة والطب والفلك. وقد تم بناء هذه المدرسة سنة ١٢٧٨ م على يد المهندس أوغول بك ابن محمد.



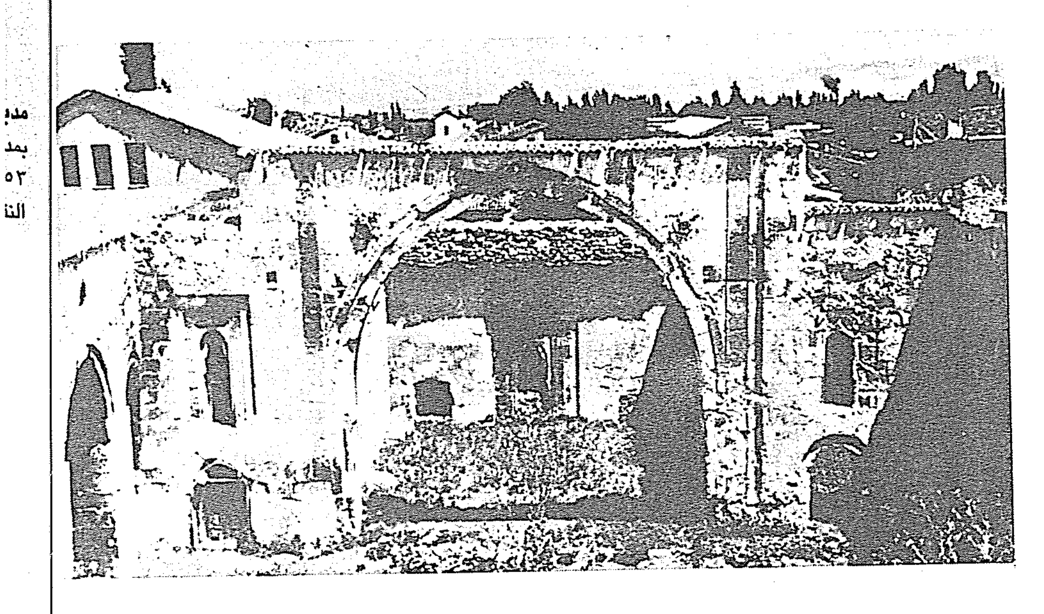
مدينة سيواس: مدرسة جفتة منارة إحدى المدارس الثلاث الضخمة التي أسست في مدينة سيواس سنة ١٢٧١. والمدرستان الأخريان هما مدرسة كوك ومدرسة بروجيرد وتواجه مدرسة جفتة منارة مستشفى كيكاوس الضخم. وقد بناها شمس الدين الجويني الايلخاني (أي يرجع إلى العنصر التتاري الذي حكم إيران وما حولها) واسم مهندسها كالوك ابن عبد الله.



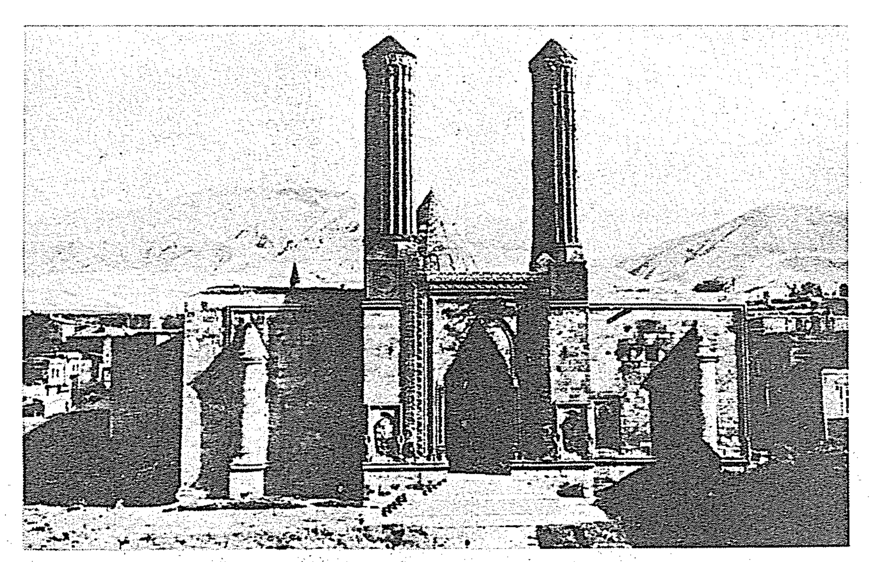
مدينة سيواس: مدرسة كوك التي اشتهرت منذ العهد السلجوقي والتي كانت تدرس فيها مختلف العلوم الدينية مع علوم الطب والفلك والحساب والهندسة.. وقد بنيت هذه المدرسة عام ١٢٧١ مع مدرستين أخريين هما مدرسة جفتة منارة ومدرسة بروجيرد.



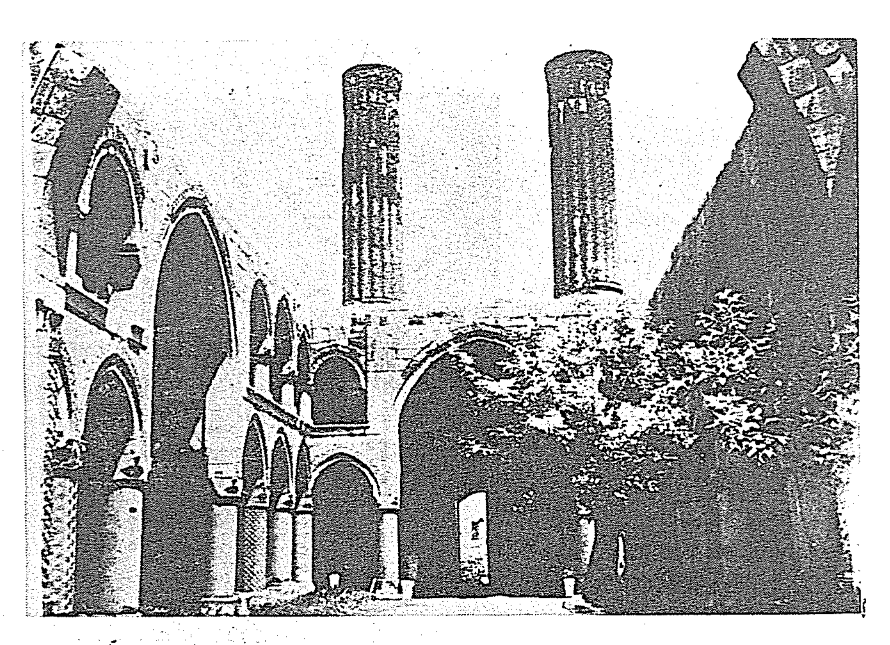
مدخل مسجد الوغ في مدينة سيواس وهو من العهد السلجوقي (القرن الثالث عشر الميلادي).



مدينة سيواس: مستشفى كيكاوس: منظر عام للإيوان الكبير من الفناء. أسس هذا المستشفى الضخم السلطان عز الدين كيكاوس سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٨ م. وهو بناء ذو أربعة إيوانات وله فناء كبير وتدور من حوله الغرف. ويوجد قبر السلطان كيكاوس خلف الإيوان إلى يمين الفناء. ويعتبر المستشفى والمقبرة من الأمثلة الفنية العالية من حيث استخدام الطوب والخزف معاً. وبما بهما من كتابات كوفية متداخلة، وبالحجارة المتباينة الألوان، وأشكال النجوم... وقد قام الصانع أحمد المرندي بوضع الزخارف الرائعة على واجهة المقبرة والمستشفى - وهو من أذربيجان - وهي مطابقة لآثار الأعمال الموجودة للسلاجقة العظام (في إيران). وإلى جوار المستشفى تقع مدرسة للطب. وهي الآن عبارة عن خرائب. وهكذا كان الطلبة يتلقون التعليم الطبي ثم يدرسون الممارسات الطبية في المستشفى.. وكانت بالمستشفى تخصصات عديدة مثل: الأمراض الباطنية (الطبائعي) والجراحة (الجراح) وطب العيون (الكحال) وأمراض الجلد.. إلخ. وقد خصص السلطان كيكاوس الأول قائمة طويلة جداً من الأوقاف على هذا المستشفى... وقد كتب السلطان على واجهة ضريحه «إن ثروتي لا تنفعني بشيء الآن. وها قد زال عني سلطاني ودالت دولتي وحان رحيلي عن دار العبور هذه إلى الدار الآخرة» ٤ شوال ٦١٧ هـ وتوفي السلطان بعدها بقليل بمرض السل.

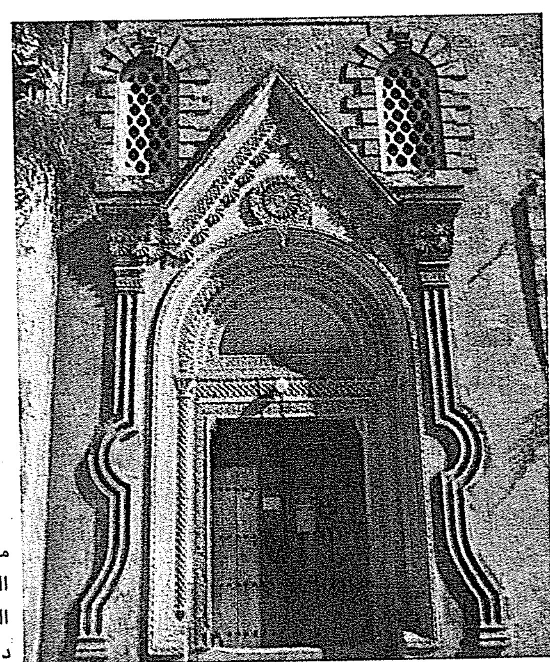


مدينة ارضروم: مدرسة جفتة منارة ذات طابقين وأربعة إيوانات. وقد بنيت قبالة سور المدينة وهي تشبه مدرسة كوك بمدينة سيواس إلى حد كبير. وقد بنيت هذه المدرسة على يد خوند خاتون ابنة السلطان علاء الدين كيكقباذ الأول سنة ١٢٥٣ م. ولهذا فهي تُسمى أحياناً المدرسة الخاتونية. وفي الصورة العليا نقوش على المنارة تمثل شجرة الحياة. وتوجد النقوش على كلا المنارتين.



مدينة ارضروم: مدرسة جفتة منارة من الداخل. وكلمة جفتة تعني توأم أي المنارتين التوأم. ويتضح في الصورة الفناء والإيوانات والأروقة ذات الطابقين. وتجمع هذه المدرسة أكبر قدر من العناصر المتعددة للعمارة السلجوقية بالأناضول. (من كتاب فنون الترك وعمائرهم).

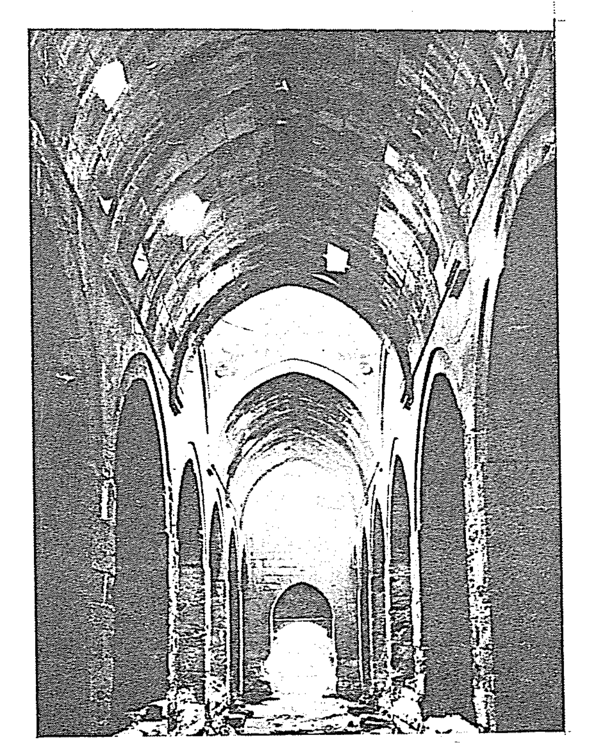
صورة لمسجد قديم ومدرسة في شرق الأناضول وقد بُني المسجد والمدرسة في العهد السلجوقي (القرن الثالث عشر الميلادي).



مدخل مسجد أولوغ. يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي (العهد السلجوقي) في مدينة ماردين في ديار بكر.

رباط الآي خان الموجود على طريق أقسراي ـ قيصرية يعتبر من أوائل الخانات التي بناها السلاطين وقد بناه السلطان قليج أرسلان الثاني (١١٥٦ ـ ١١٩٢ م) ويجمع هذا الخان في تخطيطه وعمارته كل العناصر المميزة للخانات السلجوقية، من ذلك الباب الداخلي والحنية ذات المقرنصات التي لا توجد إلا في الخانات السلطانية، والقبو الرئيسي الذي توجد به قبة مفتوحة، والأقبية السبعة على كل جانب. وفناء الخان لحقه التدمير بفعل الزمن، أما الواجهة والمدخل ففي حالة لا بأس بها.. والمبنى كله من الحجر وأشكاله الهندسية متداخلة بطريقة بديعة من المثمنات المتداخلة.. وتوجد صور رمزية مثل الأسد ذي الجسدين والرأس الواحدة الجانبية الوضع... وهي شعار السلطان قليج أرسلان الثاني.. ويعتبر هذا الخان أقدم الخانات السلطانية الموجودة. وقد اختفت كل الخانات السلطانية التي بنيت بعده حتى عام ١٢٢٩ الذي تم فيه تشييد خان السلطان الذي لا يزال باقياً حتى اليوم.

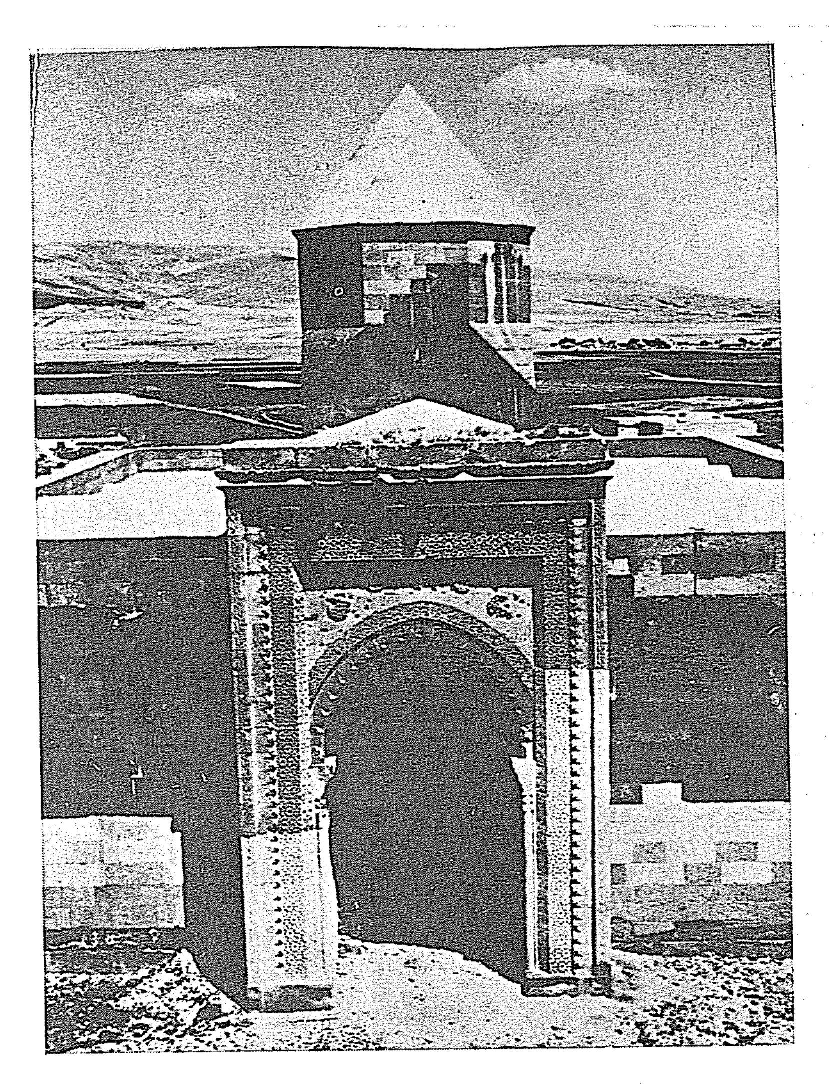
(من كتاب فنون الترك وعمائرهم ص ١٢١ ـ ١٢٢).



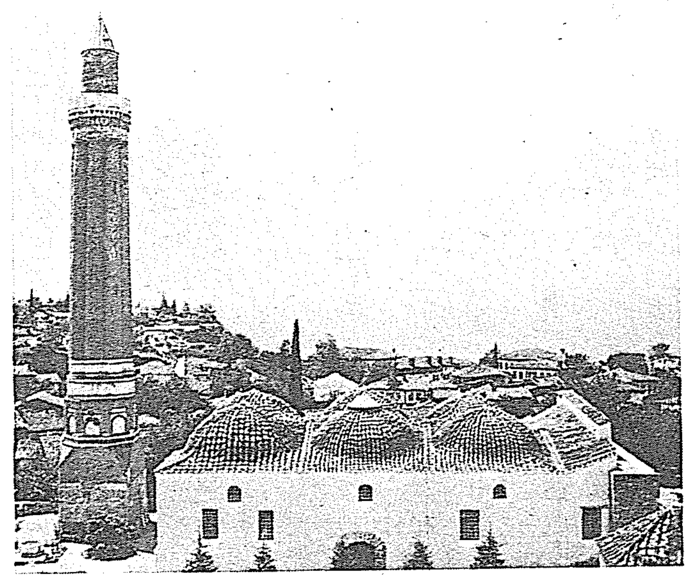
خان السلطان علاء الدين كيكقباذ على طريق قيصرية ـ سيواس (عند قرية بالاس) الذي بناه بين عامي ٣٠ ـ ٦٣٤ هـ / ٣٢ ـ ١٢٣٦ م وهو ثاني خان سلطاني ضخم يبنيه السلطان علاء الدين كيكقباذ الأول. ويقع الخان الأول على طريق قونية أقسراي.

ويتشابه الخانان في طريقة البناء وعمل الزخارف، ووجود مسجد ضخم داخل الخان ووجود الأبراج القوية والجدران الصماء الضخمة بحيث توفر الحماية للخان ونازليه.

والصورة توضح الخان من الداخل والأقبية المتعددة فيه.. وقد تهدم المبنى بفعل عاديات الزمان ولا تزال هناك قباب تغطي الحمامات. كذلك لا يزال المسجد في حالة جيدة. وتوجد رؤوس الحيات بجوانب العقود المساندة وأفواهها فاغرة.. وتوجد تصميمات لزخارف هندسية على المدخل الرخامي للبهو.

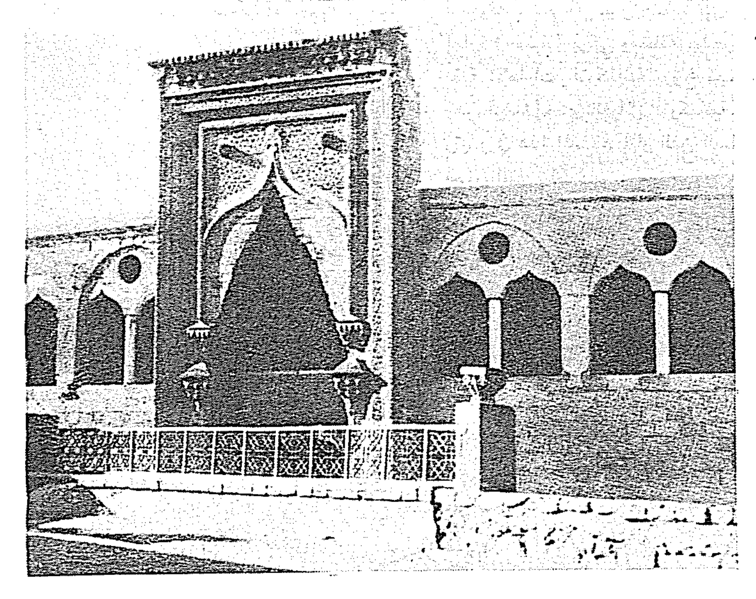


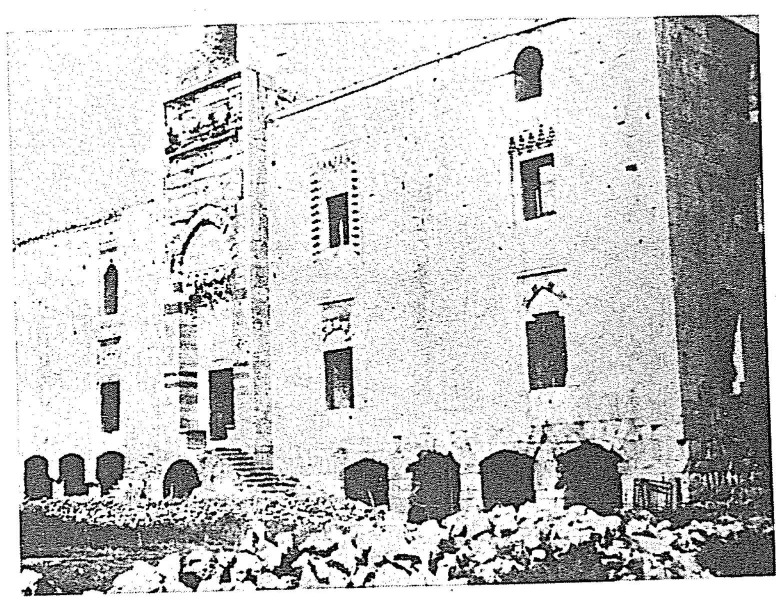
خان قره قطاي على طريق قيصرية ـ ملطية الذي بدأ بناءه جلال الدين قره قطاي في عهد السلطان علاء الدين كيقباذ. وتم البناء في عهد السلطان غياث الدين كيخسرو سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م. وتخطيطه وفق الأسلوب التقليدي للخانات السلجوقية بما لها من أبراج مساندة وأشكال هندسية متشابكة وزخارف تغطي العقود. وفي هذا الخان ميازيب مبتكرة تصور أسوداً مجنحة وتنتهي أفواهها بشكل ثعابين فاغرة أفواهها.. وتوجد تيجان على الدعائم الركنية في حنية المدخل. وهناك أيضاً زوج من الطيور المحفورة وزوج من الأسود بالإضافة إلى نقوش حيوانات أخرى.. وجميعها مزينة بالأفرع النباتية ومراوح النخيل المنحوتة. وإيوان المدخل مرتفع وله عقد مدبب وبعد الإيوان يبدأ الفناء وإلى يمين المدخل يوجد المسجد ذو القبة... ورغم أن هذا الخان لم يبنه أحد السلاطين إلا أنه لا يقل عن الخانات السلطانية ضخامة وثراء وأبهة. ولا يدانيه من الخانات غير السلطانية إلا خان «أغزي قرا» الذي بناه خواجه مسعود بن عبد الله في عهد السلطان علاء الدين كيقباذ.



مدينة نيكدة: مدرسة آق من الداخل بناها القره مانيون (١٢٥٦ ـ ١٤٨٣) أقوى دول الأمراء التركمان وأطولها عمراً. وقد بُنيت آق مدرسة وفق التقاليد السلجوقية كما يبدو من تخطيطها ذي الطابقين وإيوانيها المتماثلين إلا أن مدخلها أشد فخامة وأكثر روعة من المدارس السلجوقية.. وقد أسسها علي بك القره ماني سنة ١٤٠٩ م، الذي تزوج من ابنة السلطان العثماني محمد جلبي.

مدينة انطالية: مسجد بييرلي منارة الذي أسسه محمد بك الحميدي سنة ١٣٧٣ م ويرجع الحميديون إلى القبائل التركمانية التي حكمت الأناضول بعد انتهاء حكم الإيلخانيين (التتار) المسلمين الذين كانوا يحكمون إيران والعراق وما حولهما. وتركز حكم الحميديين في أغريدير والمبنى مقام فوق أنقاض كنيسة، ويتميز بوجود ست قباب مغطاة من الخارج ببلاطات حمراء، وهو أول مثال للمساجد الكبيرة المتعددة القباب. وتتميز المنارة بالنصوص المتعددة وهي شعار مدينة إنطالية.





مدينة (سلجوق): مسجد عيسى بك الذي بني عام ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م، ومهندسه علي بن الدمشقي.. ويعتبر هذا المسجد من أهم آثار القبيلة التركمانية المعروفة باسم الإيدينون نسبة إلى إيدين الذي أسس إمارة في منطقة بركي ومنطقة سلجوق والتي وحدها مع بقية الإمارات التركمانية بزوغ نجم الدولة العثمانية وهي أيضاً إحدى القبائل التركمانية.

وتبدو في هذا المسجد آثار الفن السلجوقي والزنكي مع بعض التعديلات.

الأروقـة (الخانات)
في عهد سلاجقة الأناضول

لقـد أقام السـلاجقـة العـظام في المنـاطق التي حكمـوهـا الآف الأربطة. وقام سـلاجقة الأنـاضول بـانشاء العـديد من هـذه الأربطة وسموها خانات. وهي تمتد على طـول الطرق الممتـدة من دنيزلي إلى ارضروم وقارص. ومن كوتاهيه إلى بتليس وأخلاط. ومن أنطالية إلى سينوب وسمسون. . وغالباً ما تبنى هذه الخانات من الحجارة المنحوته وهي أبنية ضخمة رائعة جليلة. .

والخانات منشآت تجارية وخيرية قامت على طرق الارتحال ببلاد الأناضول. وأمر ببنائها السلاطين من آل سلجوق أو وزراؤهم وأغلبها ثم بناؤه في القرن الثالث عشر الميلادي. ويضم الخان منشأت عديدة وأمـاكن للنزل والـراحة وحمـامات ومسجـد ومستشفى صغـير وأمـاكن للدواب وأطباء بشريون وبيطريون وعـدد من أهل الحـرف والصناعـة للقيام بخدمات الخان والمسافرين.

ويوجد في الأناضول آثار ما يقرب من مائة خان سوى الأربطة العديدة التي أصابها الدمار الكامل.

رباط الآي خان: الموجود على طريق أقسراي ـ قيصرية يعتبر من أوائل الخانات التي بناها السلاطـين وقد بنـاه السلطان قليج أرسلان الثاني (١١٥٦ - ١١٩٢ م) ويجمع هذا الخان في تخطيطه وعمارته كل العناصر المميزة للخانات السلجوقية، من ذلك: الباب الداخلي والحنية ذات المقـرنصات التي لا تـوجد إلا في الخـانات

السلطانية، والقبو الرئيسي الذي توجد به قبة مفتوحة، والاقبية السبعة على كل جانب.

وفناء الخان لحقه التدمير بفعل الزمن أما الواجهة والمدخل ففي حالة لا بأس بها.. والمبنى كله من الحجر وأشكاله الهندسية متداخلة بطريقة بديعة من المثمنات المتداخلة.. وتوجد صور رمزية مثل الأسد ذي الجسدين والرأس الواحدة الجانبية الوضع وهي شعار السلطان قليج أرسلان الثاني.. ويعتبر هذا الخان أقدم الخانات السلطانية الموجودة. وقد أختفت كل الخانات السلطانية التي بينت بعده حتى عام ١٢٢٩ الذي تم فيه تشييد خان السلطان الذي لا يزال باقياً حتى اليوم

(من كتاب فنون الترك وعمائرهم باختصار ص ١٢١ ـ ١٢٢).

الدولة الخوارزمية

٤٧٠ ـ ٦٢٨ هـ

١١٧٧ ـ ١٢٣١ م

كان أنوشتكين أحد المماليك الأتراك الذين جلبوا من التركستان الشرقية وخدموا في بلاط السلطان السلجوقي ملكشاه. وترقى في البلاط حتى وصل إلى درجة الطشتدار (أي المشرف على الأواني السلطانية).. وكانت نفقات هذا الجانب من ميزانية بلاط السلطان تغطى من خراج خوارزم. وهكذا تولى خراج خوارزم ثمّ صار حاكماً لها سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م. وتولى قطب الدين محمد، ابنه، الحكم بعده. فساسها بالعدل والحكمة. وقرَّبَ العلماء.. وكان أنوشتكين وابنه قطب الدين يظهران الخضوع للسلطان السلجوقي ويرسلان له الخراج ويحاربان معه حروبه.

ولما تولى إتسز عام ٥٢٢ هـ (١٢٢٧م) بدأ يتطلع إلى الاستقلال عن الدولة السلجوقية بعد أن وطَّد دعائم ملكه ووسع رقعة دولته.

وقامت الحرب بين إتسز والسلطان السلجوقي سنجر وانتهت المعركة بهزيمة إتسز، وذلك سنة ٥٣٢ هـ. ولكن ما لبث سنجر أنَّ أعاده للحكم بعد أن ثار سكان خوارزم على الوالي الجديد الذي أرسله بسبب ظلمه.. وأعلن إتسز خضوعه لسنجر.

وفي سنة ٥٣٦ هـ سار إتسز إلى مرو عاصمة السلطان سنجر نفسه بعد أن وطد دعائم ملكه في خوارزم ودارت رحى معركة

رهيبة انتهت بهزيمة إتسز مرة أخرى، وقتل أحد ابنائه، واستولى سنجر على خوارزم وأقطعها ابن أخيه غياث الدين سليمان شاه. واستطاع اتسز بعد عودة سنجر إلى مرو أن يسترد خوارزم مرة أخرى..

وحلت الهزيمة بسنجر لأول مرة في حياته على يد الخطا الأتراك الذين لم يسلموا حتى ذلك الوقت، ثمّ أسر سنجر وزوجته على يد قبائل الغز التركية الشرقية المسلمة.. واهتبل اتسز الفرصة فوسع رقعة مملكته حتى وصل إلى مرو.

وهكذا تربع اتسز على عرش أمبراطورية واسعة تمتد من جبال الأورال إلى الخليج العربي ومن جبال السند إلى حدود الفرات.

واستطاع اتسز أيضاً أن يفتح أجزاء واسعة من أراضي القبجاق الذين لم يسلموا بعد، وهاجم مدينتهم سغناق على ضفاف سرداريا (سيحون) واستولى اتسز أيضاً على مدينة جند الهامة. وفي عام ٥٥١ هـ تُوفي اتسز تاركاً لخلفه أيل أرسلان دولة مترامية الأطراف قوية البنيان وأصبحت الخطبة تقرأ باسم أيل أرسلان بعد ذكر الخليفة العباسي في خراسان وجميع بلاد ما وراء النهر.. ووسع أيل أرسلان دولته إلى شمال أفغانستان على حساب الدولة السلجوقية والدولة الغورية.

وتولى بعد أيل أرسلان علاء الدين تكش بعد حرب قصيرة بينه وبين أخيه الأصغر شاه محمد. واستطاع تكش أن يوسع رقعة حكمه حتى وصل إلي العراق غرباً بعد أن هزم قوات طغرل ابن ألب أرسلان السلجوقي وقتله في المعركة سنة ٥٩٠ هـ.. وأما من

جهة الشرق فقد استطاع علاء الدين تكش أن يوسع دولته على حساب الخطا الكفار.. واستمر علاء الدين تكش في الحكم حتى وافته المنية عام ٥٩٦هـ فخلفه ابنه علاء الدين محمد الذي امتدت الدولة في أيامه إلى أقصى حدودها واتسعت من العراق غرباً إلى السند في الجنوب الشرقي وتركستان الشرقية في الشمال الشرقي.. وأصبح بحر قزوين بكامله ما عدا شواطئه الشمالية ضمن الدولة الخوارزمية.. ووصلت الحدود الشمالية للدولة إلى البحر الأسود. بينما وصلت الحدود الجنوبية إلى الخليج العربي والمحيط الهندي.

وقضى علاء الدين محمد على الدولة الغورية في أفغانستان واضطرها أن تذهب إلى ممتلكاتها في الهند وتقيم دولتها هناك بعد أن هزم غياث الدين محمود الغوري سنة ٦٠٥ هـ. واستطاع علاء الدين محمد أن يهزم الخطا الذين هزموه (ويطلق على الخطا اسم الكورخانيين وأحياناً القراختائيين).

وكانت حياة علاء الدين محمد مليئة بالحروب كما كان نفوذ أمه على الدولة قوياً جداً.. وكانت أمه تعتمد على قبيلتها التركية القوية في تصريف الأمور حتى ساءت الأمور جداً بين الأم وابنها. ومما زاد الأمور تعقيداً أنَّ علاء الدين كان في خصومة شديدة مع الخليفة العباسي الذي رفض أن يوليه السلطنة بدلاً من السلاجقة.. وقامت الحروب بين خوارزمشاه علاء الدين محمد والخليفة العباسي حتى ضعفت قوات البلدين جميعاً..

وأراد خوارزمشاه أن ينصب خليفة من آل البيت النبوي من نسل الإمام علي وخطب له على منابر خوارزمشاه.. وأدى ذلك الإجراء إلى تذمر كثير من رعيته الذين كانوا يكنون للبيت العباسي

الولاء واتهموا علاء الدين محمد بالتشيع.

ورغم هذه الحروب والقلاقل فقد ظهر في عهد علاء الدين خوارزمشاه كثير من العلماء الفطاحل الذين أولاهم رعايته وكان من أشهرهم الإمام فخر الدين الرازي المفسر الأصولي الفقيه الشافعي الفيلسوف الطبيب الذي أحتضنه علاء الدين محمد وقربه إليه. وكان السلطان علاء الدين إذا رغب في رؤية الفخر الرازي ذهب بنفسه إليه.

وكانت نهاية عهد السلطان علاء الدين محمد علي يد جنكيزخان الذي تعلل بقصة التجار الذين قُبض عليهم في أترار بتهمة التجسس وقتلهم حاكم مدينة أترار. . ولا شكّ أنَّ عدداً من الجواسيس كانوا ضمن أولئك التجار. فقد استطاع جنكيزخان أن يوطد مملكة قوية وشرهت نفسه لتوسيع رقعتها على حساب الدولة الخوارزمية التي كانت تعاني من الحروب والفتن الداخلية، كما كانت تعاني أيضاً من انقسام بلاط السلطان وجيشه إلى فرقتين أقواهما بيد أم السلطان التي كانت تُصرِّفُ الأمور دون مشورة ابنها، بل بلغ الأمر بينهما إلى حد الخصومة والقطيعة.

وزاد الأمر سوءاً عندما قام علاء الدين محمد بقتل رسل جنكيزخان الذين طلبوا منه تسليم حاكم أترار ليقتل جزاء قتله تجار جنكيزخان، (أو جواسيسه). . وأدى هذا الأمر إلى أن يقوم جنكيزخان باجتياح خوارزم.

وللأسف كانت سياسة علاء الدين محمد خرقاء من كل جانب فلم يستعد الاستعداد الكافي لمواجهته ولم يستمع لنصيحة ابنه جلال الدين منكبرتي ولكنه وزع قواته على عدد من البلدان

على هيئة حاميات صغيرة استطاع جنكيزخان أن يجتاحها بسهولة . . وذلك عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م).

وهرب علاء الدين من وجه قوات جنكيزخان التي ظلت تطارده حتى مات شريداً طريداً. وقام جلال الدين منكبرتي أكبر أبناء علاء الدين الذي فَرَّ إلى الهند بتجميع قواته لمحاربة المغول وقد استطاع جلال الدين أن يهزم المغول في بعض المعارك وأبدى ضروباً فائقة من الشجاعة والصبر. . وانتقل إلى خراسان وإيران ثمّ وصل إلى كنجه في أذربيجان (السوفيتية) بعد أن تخلى عنه جيشه ورفاقه . .

ومات جلال الدين بعد أن خلدً ذكره بتلك البطولات الخارقة التي جعلت جنكيزخان نفسه ينبهر ببطولته وشجاعته . . وقد تحول جلال الدين هذا في الأدبيات الشعبية إلى أسطورة وإلى ولي ذو كرامات خارقة . . ولكن ذلك كله لم يمنع القدر المحتوم أن يحل به، فقد كانت جحافل القوات المغولية أضخم من أن تصدها قواته القليلة. ولم تستطع شجاعته النادرة وأقدامه وبسالته أن تحميه من الهزيمة، فمات طريداً وحيداً على شواطئ بحر الخزر.

وقد تميزت الدولة الخوارزمية مثل غيرها من الدول الإسلامية المعاصرة برعاية العلماء والأدباء والأطباء والفلاسفة . . وحدثت في أيامها نهضة علمية وعمرانية قوية ولكنها للأسف اتسمت بمثل ما اتسمت به الدول الإسلامية الأخرى؛ وهي الحروب المستمرة بين الأخ وأخيه أو الأب وابنه . . أو الأم وابنها من أجل الحكم . . كما هدتّها تلك الحروب المستمرة بينها وبين الدول الإسلامية المجاورة مما أضعف الجميع وجعلهم لقمة سائغة لجحافل جنكيزخان وأولاده وأحفاده من بعده.

الـدولـة الطولونيـة

٢٥٤-٢٩٢هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م

كان أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة من الموالي الأتراك الذين جُلبوا من التركستان الشرقية ومن منطقة القبجاق وعاصمتهم سغناق (والتي تعرف أيضاً باسم سناق قرغان) والتي فتحت فيما بعد في أيام الدولة الخوارزمية.

وقد أرسل أحمد بن طولـون وهو صغـير إلى بلاط الخـلافة العباسية في عهد المعتصم فشبَّ وترعرع ضمن البلاط العباسي، وتربى على الفروسية وفنون القتال بعد أن أخذ خطاً وافراً في دراسة القرآن والدين واللغة العربية.

وعندما تولى القائد التركي «باكباك» أمر مصر استخلف عليها أحمد بن طولون نيابة عنه، وجعله على حاضرتها فدخلها في شهر رمضان سنة ٢٥٤ هـ؛ بينما كان القضـاء والخراج بيد أشخاص آخرين حتى لا تتجمع السلطة بيد واحد منهم.

وقد تغلب أحمد بن طولون على كثير من الصعاب واستطاع أن يؤسس دولة قوية زاهرة وخاصة بعد أن تولى أمر مصر يارجوخ صهر أحمد بن طولون الذي كتب إلى أحمد قائلاً له: «تسلم من نفسك لنفسك» واستخلفه على مصر كلها.

وعندما مـات يارجـوخ تولى أحمـد بن طولـون حكم مصر مباشرة من الخليفة المعتمد الذي ولاه أيضاً خراج مصر سنة ٢٦٣ هـ.

ووسع أحمد بن طولون دولته في مصر والشام وقضى على كثير من الفتن ولكنه اصطدم بالخليفة العباسي. ورغم هذا فقد استطاع أحمد طولون أن يتغلب على هذه الصعاب جميعاً، لما يتميز به من الحنكة والدهاء والشجاعة وقوة البأس والكرم وحسن الإدارة وتفقد أحوال الرعية. وقد شهدت مصر والشام في عهده رخاء لا نظير له. واهتم بالزراعة وعُني بإقامة الجسور وحفر الترع وحصَّن الثغور وكون جيشاً قوياً خافه أمبراطور الروم. كما كوّن أسطولاً ضخماً.

وكان كثير الصدقات حافظاً للقرآن مجلاً للعلماء ناشراً للعلم وأسسَّ الكثير من المساجد والمدارس ومن أشهرها جامعة المشهور والباقي إلى اليوم في القاهرة والمعروف باسم جامع أحمد بن طولون.

وخلفه ابنه خمارويه (٢٧٠ ـ ٢٨٢) وكان محباً للترف؛ ولكنه مع ذلك كان يحتفظ بجيش قوي إذ بلغت نفقات جيشه تسعمائة ألف دينار في كل عام.. وكان كريم النفس كثير الصدقات شديد الشغف بمساعدة المعوزين والفقراء.

وقد اشتهرت قصة زواج قطر الندى بنت خمارويه من الخليفة العباسي وما دفعه أبوها من أموال هائلة وبذخ على هذا الزواج حتى أصبح مصدراً للقصص الشعبي والأدبي.

ولم يطل عمر الدولة الطولونية بعد وفاة خمارويه حيث اشتدت الخلافات والقلاقل والحروب مما أدى الى ظهور دولة تركية أخرى هي الدولة الأخشيدية.

الدولة الأخشيدية ٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م.

قامت هذه الدولة التركية في مصر والشام. وكلمة الأخشيد لفظة تركية تعني الملك وكان أول من تلقب بهذا اللقب في مصر أبو بكر محمد بن طغج بن جف بعد أن صدَّ هجوم الفاطميين على مصر.

ويطلق لقب الأخشيد عادة على ملوك فرغانه.. والمناطق المجاورة من التركستان الشرقية. وقد سار جف (جد الأخشيد) إلى الخليفة المعتصم فأكرمه وجعله ضمن رجال بلاطه ثمّ بقي بعد ذلك في نفس المكانة في خلافة الواثق والمتوكل.

وظهر طغج مع الطولونيين، ولما توجه إلى بغداد ترفعَّ عن النزول والترجل للسلام على وزير الدولة العباس بن الحسن الذي أوقع به عند الخليفة. وكان من نتيجة ذلكُ الكيد أن حبس طغج مع ابنيه محمد وعبيد اللّه. وبقي في الحبس حتى وفاته سنة ٢٩٤ هـ فلما تُوفي طغج أطلق الوزير سراح ابنيه محمد وعبيداللّه فلزما خدمته، ولكنهما استغلا الفرصة ذات يوم وثأرا لأبيهما فقتلاه.

واشتهر أمر محمد بن طغج منذ سنة ٣٠٦ هـ حين تولى حكم طبرية بالشام، فأحكم أمرها وقضى على الفتن والقلاقل فيها. ثمّ انتصر على الجيش الفاطمي الذيَ غزا مصر (٣٢١ ـ ٣٢٤ هـ) فأمر الخليفة العباسي إضافة لقب الأخشيد لمحمد ودعى له به على منابر الشام ومصر سنة ٣٢٧ هـ.

وحاول الخليفة الفاطمي أن يستميله إلى جانبه ولكنه فشل في ذلك، ورغم ذلك قام الخليفة العباسي بعزل الأخشيد وإرسال والٍ

جديدٍ إلى مصر هـو ابن رائق. وغضب الأخشيد وخـرج بجيش لجب لملاقاة ابن رائق فهزمه وتوقف عن الدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة لفترة من الزمن.

واستطاع الأخشيد أن يحكم مصر وأجزاء واسعة من الشام حكماً قوياً رغم ما أعتور ذلك العهد من حروب وقلاقل.

ولما تُوفي الأخشيد محمد بن طغج تولى الأمـر بعده خـادمه كافور الحبشي وصار وصياً على العرش لأنَّ ابن الأخشيد محمد كان لا يزال طفلاً.. واستمر كافور في الحكم حتى بعد أن كبر الغلام أنوجور.. ولما توفي أنوجور وتـولى أخوه السلطة أبـو الحسن ظل كافور يدير دفة الحكم بحكمة ودهاء.

ولما توفي كافور عاد الأمر للأتراك، ولكن هذه الدولة أصابها التفكك بسبب الصراع على السلطة وانتهت بدخول جوهر الصقلي قائد الفاطميين إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ.. وتميزت الدولة الأخشيدية بظهور عدد من الشعراء والعلماء مثل القاضي أبو بكر بن الحداد ومحمـد بن موسى المعـروف بسيبويـه المصري وأبو عمـر الكنـدي والحسن بن زولاق.. كما زار المتنبي مصر في عهد كافور راغباً في ولاية إحدى المقاطعات.. فلما لم يوله هجاه أقذع الهجاء.

وقد استطاع الأخشيديون أن يرتقوا بالزراعة في مصر وارتفع الخراج إلى أكثر من أربعة ملايين دينار مع ارتفاع مستوى المعيشة وتحسن حالة السكان.. وكان كافور الأخشيدي يجعل رواتب دائمة لمستحقي الصدقة بلغت نصف مليون دينار سنوياً.[1]

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ج ٣٠٤/٣.

كما استطاع الأخشيديون أن يكونوا جيشاً ضخماً بلغ تعداده أربعمائة ألف مقاتل سوى الحرس الخاص والعبيد والمماليك الذين كان يزخر بهم قصر الأخشيد.

ولا شكّ أنَّ عهد الأخشيدين كان شبيهاً إلى حد كبير بعهد الطولونيين وكلاهما من الأتراك الشرقيين..

وقد تميزت عهودهما برخاء مصر وزيادة خراجها وازدياد قوتها العسكرية كما ظهرت فيها نهضة عمرانية باذخة صحبتها نهضة علمية وأدبية.

وقد استطاع الطولونيون والأخشيديون أن يصدوا غارات الفاطميين وأبقوا على مصر ضمن مذاهب السنة.. ولم يتعصبوا لمذهب دون آخر من مذاهب السنة وكان القضاة يحكمون حسب مذاهبهم السنية.. وقد اشتهر قضاة هذا العصر بالنزاهة والاستقامة وعدم المحاباة ونبغ منهم القاضي بطار بن قتيبة الذي كان من أشهر القضاة في زمنه.[1]

(١) المصدر السابق ج ٣/٢٨٧.

الدولة التيمورية

يعتبر تيمورلنك من أكابر عظماء العالم وقادته وقد برز تيمورلنك الذي يعرف أيضاً باسم تيمور كركن من قبيلة برلاس التركية كما يؤكد ذلك المستشرق فامبري، بينما يعتقد جماعة من المؤرخين أنَّ تيمورلنك ينتسب إلى تومان خان الذي يعتبر الجد الأكبر لجنكيزخان وكاراشار نويان[1].

وقد أسلم كاراشارنويان كما يذكر ذلك بابر في يومياته[2]. . وكان بابر يؤكد نسبة تيمورلنك من أمه إلى جغتاي بن جنكيزخان. . ومن المعروف أنَّ الأسرة الجغتائية حكمت منطقة التركستان وجزءاً كبيراً مما يعرف اليوم باسم الاتحاد السوڤيتي لعدة قرون من الزمان.

وقد أستطاع تيمورلنك (٧٦٥ - ٨٠٧ هـ) ١٣٦٣ - ١٤٠٥ م) أن يقيم أمبراطورية باذخة سيطرت على معظم ما كان معروفاً من العالم القديم. . ووصلت جيوشه إلى موسكو ووارسو كما أستطاع أن يهزم السلطان العثماني بايزيد الأول هزيمة منكرة. .

وكانت سمرقند في عهده تتيه على المدن بما حوته من فنون

---

1)Keen H.G. The Turks in India. Idrah Adabiyat–Delhi, India 1972

(٢) بابر هو مؤسس الدولة التيمورية في الهند والتي عرفت باسم الأمبراطورية المغولية.

وصناعات وبمن سكنها من العلماء والأدباء..

ورغم بطش تيمورلنك وكونه من طغاة العالم إلاَّ أنَّه شجع العلم والعلماء كما شجع الفنون المعمارية بدرجة مذهلة..

وعندما مات تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م خلَّف لأولاده أمبراطورية باذخة مترامية الأطراف تمتد من وارسو وموسكو حتى بلاد العرب في الجنوب ومن حدود الصين في الشرق حتى الأناضول في الغرب شاملة بذلك الاتحاد السوفيتي بأكمله ومعظم أراضي الدولة التركية العثمانية والعراق والشام وإيران وأفغانستان وباكستان وأجزاء من الصين (التركستان الشرقية المعروفة باسم سينكيانغ والمقاطعات الغربية من الصين) وكشمير والتبت وشمال الهند.

وقد تقاسم أولاده من بعده هذه الأمبراطورية الضخمة وأقتتلوا عليها وسرعان ما أعاد أحفاد جنكيز خان المسلمون أجزاء واسعة من أرضهم السابقة.. ومع هذا بقي التيموريون يحكمون التركستان (بلاد ما وراء النهر) لمدة قرن من زمان.

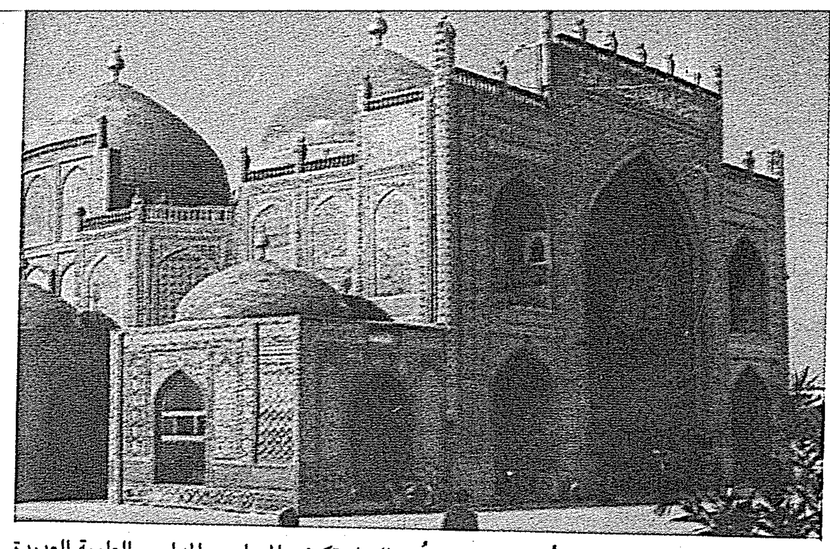
وتميز حكم التيموريون (شاه رخ والوغ بك وأبو سعيد التيموري) باهتمامهم الكبير بالعلم والعلماء وإنشاء المدارس والمستشفيات والمراصد الفلكية. وكان ألوغ بك شديد الشغف بمختلف العلوم. وقد أسس الجامعات الضخمة في بخاري وسمرقند وهراة وبلخ.. وكان ألوغ بك يُدرِّس بنفسه للطلبة في هذه الجامعات.

واشتهر السلطان حسين بإيقراء، وهو من البيت التيموري، بحبه للعلم والشعر والأدب. وحكم هراة من عام ٨٧٤ إلى عام

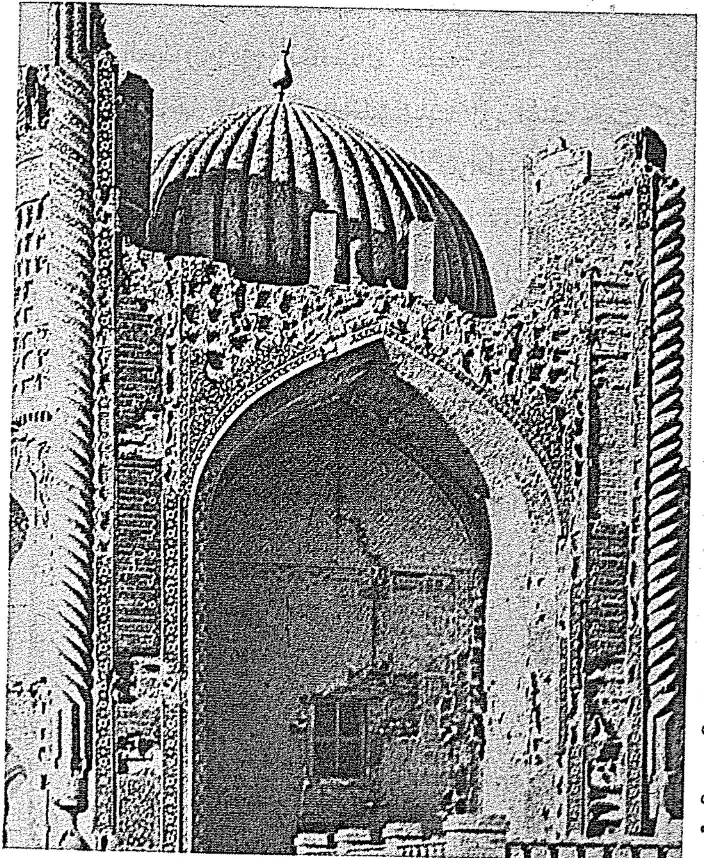
٩١٥ هـ (١٤٦٩ - ١٥٠٦). وكانت هراة (في شمال غرب أفغانستان) في عهده كعبة القصاد من العلماء والأدباء والفنانين والشعراء. وازدهرت في عهده العلوم والفنون والأشعار وصناعة السجاد والرسوم الفنية الرائعة التي كانت تزين الدواوين والكتب. وقد ظهرت في أيامه الشاهنامة المزينة باللوحات الرائعة. وكذلك ديوان السعدي ونظامي وجامي.. وترقى فن المعمار في عهده إلى مستويات لم يبلغها من قبل.

وفي أواخر عهد السلطان حسين بايقرا ظهر فرع جديد للبيت التيموري في أفغانستان أسسه محمد بابر. وكوّن دولة باذخة مركزها كابل ثمّ انحدر منها إلى الهند حيث كوّن الأمبراطورية الباذخة التي عرفت باسم الأمبراطورية المغولية والتي استمرت تحكم الهند حتى عهد الملكة فيكتوريا ملكة المملكة المتحدة. وكان آخر ملوكهم بهادرشاه الذي نفاه الإنجليز إلى رانجون والذي توفي سنة ١٢٧٩ هـ/١٨٦٢ م.

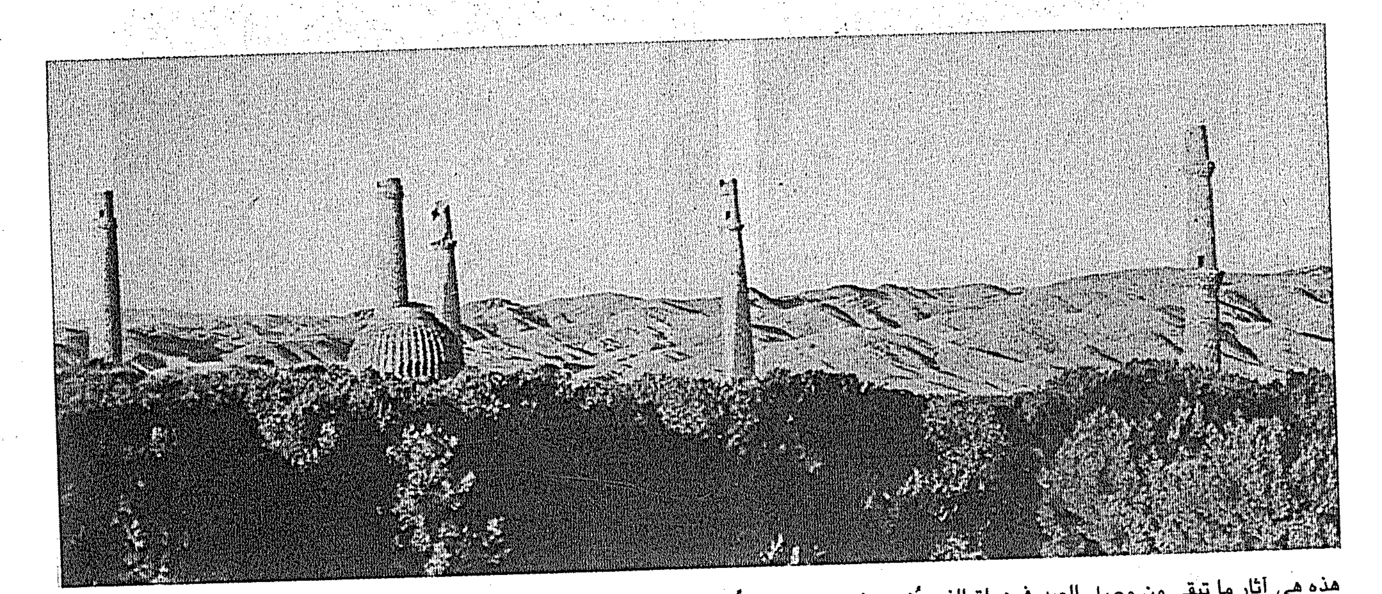
ولقد أقامت الدولة التيمورية في الهند حضارة إسلامية عظيمة ونشرت الإسلام إلى أعماق القارة الهندية وبقيت آثاوها الخالدة تدل على عظمة الإسلام وعظمة هؤلاء الملوك الذين حكموا شبه القارة الهندية بالعدل والتسامح الديني بصورة لم يسبق لها مثيل.



مدينة مزار شريف في شمال أفغانستان: توضح الفن لتيموري الذي ظهر لى يد شاهرخ بن يمورلنك. وفي هذه لدينة التي أقيمت لى أساس أنها مزار لسيدنا علي بن أبي طالب الذي زُعم أن جثمانه نُقل إليها، تكونت المساجد والمدارس العلمية العديدة.



المسجد الأخضر ببلخ في شمال افغانستان. تُعتبر بلخ قبة الإسلام ،إحدى أهم مدن خراسان ومنها ظهر آلاف العلماء. وهذا المسجد الجميل أحد مآثر التيموريين في شمال أفغانستان.
(نقلاً عن كتاب «أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي» للمؤلف).



هذه هي آثار ما تبقى من مصلى العيد في هراة الذي بُني منذ زمن قديم جداً. والمصلى عبارة عن عدد من الأبنية الجميلة خارج هراة لم يبقَ منها سوى رواقين وأربع من المنارات التي يبلغ ارتفاع كل واحدة منها ١٥٠ قدماً.
وقد زالت النقوش الموجودة على المنارات ولكنها بقيت داخل الأروقة وهي تمثل روعة الفن الزخرفي والمعماري في عهد السلطان حسين بايقرا التيموري الذي أعاد بناء هذا المصلى (٨٧٤ ـ ٩١٥ هـ) (١٤٦٩ ـ ١٥٠٦ م). وكان أول من بنى هذا المصلى الأميرة جوهر شاد زوجة السلطان شاهرخ بن تيمورلنك، التي كانت محبة للعلم وفن المعمار، وكان زوجها شاهرخ متأثراً بها وكذلك كان ولدهما الوغ بيك الذي حكم سمرقند.

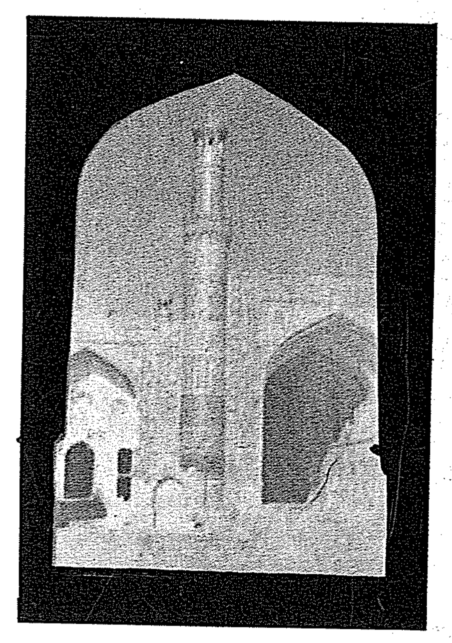
ولم يكن المصلى مكاناً للصلاة فقط ولكنه كان أيضاً مدرسة عظيمة لتدريس كافة العلوم.

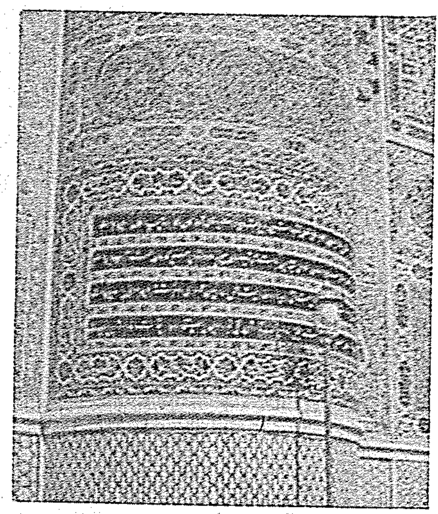
وقد بُني هذا المصلى في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي). (نقلاً عن كتاب «أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي» للمؤلف).

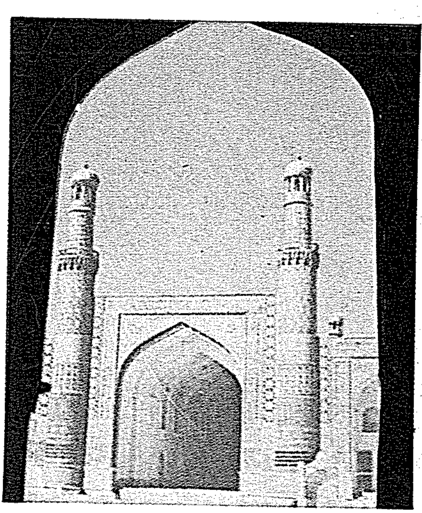
آثار الفن المعماري التيموري في مدينة هراة

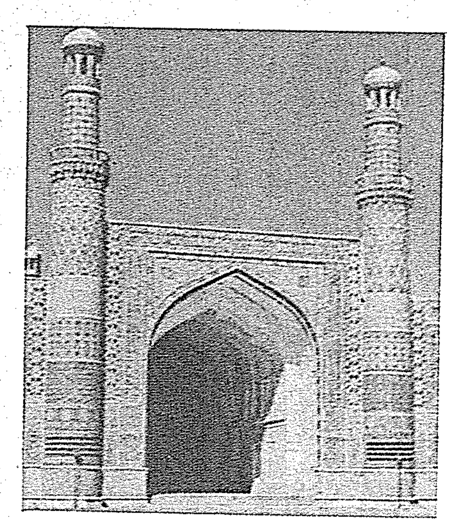
المسجد الجامع في هراة

صورة النقوش والآيات المكتوبة على جدار المسجد من الداخل.









المنظر الأمامي للمسجد الجامع في هراة.

(نقلاً عن كتاب «افغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي» للمؤلف).

الدولة العثمانية

تعتبر الدولة العثمانية أعظم الدول التي أخرجتها لنا التركستان الشرقية قاطبة، وأطولها عمراً وأعظمها نفعاً للإسلام والمسلمين.

يرجع الأتراك العثمانيون الذين أسسوا أمبراطورية باذخة، والتي استمرت من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر الهجري، إلى قبيلة قابي وهي إحدى قبائل الغز التركية التي هاجرت من التركستان الشرقية بسبب الضغط المغولي إلى الغرب صوب أراضي الدولة العباسية.

وكانت هذه الهجرة بقيادة أحد قوادها البارزين ويدعى سليمان. وقد قتل هذا القائد عند نهر الفرات قرب مشارف مدينة حلب في سوريا عام ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م بالقرب من قلعة جبر وانقسمت هذه القبيلة بعد وفاته إلى قسمين قسم يريد العودة إلى وطنه والقسم الثاني اتجه نحو آسيا الصغرى بقيادة أرطغرل بن سليمان. وقد التحق أرطغرل بخدمة علاء الدين الثاني السلجوقي سلطان قونيه وساعده في جهاده ضد البيزنطيين فأقطعه في مقابل ذلك إقليم المستنقعات مقابل الحدود البيزنطية..

وكانت هذه المقاطعة الصغيرة النواة الأولى للدولة العثمانية الباذخة. وقد وسع أرطغرل مقاطعته التي بلغت مساحتها حوالى ٣٠٠٠ كم^{٢} عند وفاته ٦٨٧هـ/١٢٨٨ م والتي كانت عاصمتها

سكود.. وتولى الحكم بعد أرطغرل ابنه الغازي عثمان الذي يعتبر بحق مؤسس الدولة العثمانية والتي تنسب إليه. فقد استطاع أن يوسع رقعة مقاطعته الصغيرة بالتوسع نحو بحر مرمرة وجعل عاصمته «قرة حصار» بدلاً من سكود الصغيرة. وعند وفاته كانت مساحة الأرض التي كان يحكمها أكثر من ٨٠٠٠ كم٢. وتولى أورخان بن عثمان الحكم بعد أبيه (٧٢٦ - ٧٦٣ هـ) وفتح بورصة عام ٧٢٧ هـ ١٣٤٦ م ومدينة أزنيق عام ٧٣٤هـ/١٣٣١ م وإقليم قرة سي عام ٧٣٧ هـ/١٣٣٦ م وضرب النقود باسمه لأول مرة وجعل عاصمته بورصة وشيَّد فيها المنشآت المتعددة الرائعة وأكثر من فتح المساجد والمدارس وفتح إزميت وأنقرة وعبر الدردنيل إلى البر الأوربي عند غاليبولي..

واستطاع أورخان أن يستولي على أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى.. وأن ينشر الإسلام في تلك البقاع الواسعة التي احتلها وعندما وافته المنية كانت مساحة مملكته تزيد على مائة ألف كيلومتر مربع.

وفي عهد مراد الأول ٧٦٣ - ٧٩١ هـ (١٣٦١ - ١٣٨٩) توسعت الدولة العثمانية توسعاً كبيراً، واستولى على أدرنة وفيليبيا وكلاهما في بلغاريا ثمّ استولى على صوفيا وسلانيك.

وفي عام ٧٦٥ هـ (١٣٦٤ م) ارتاع الأوربيون ونظموا حملة صليبية بسبب نداءات البابا وتداعت أوربا لحرب هذه القوة الإسلامية الفتية الصاعدة. وكانت تلك الحملة بقيادة ملك المجر وبجيش قوامهُ مائة ألف مقاتل وكان الجيش العثماني قليل العدد حيث لم يزد أفراده عن عشرة آلاف مقاتل.. ومع هذا أنزل اللّه

نصره على جنوده المجاهدين الصابرين وانهزم الصليبيون هزيمة نكراء.

وارتاع الصليبيون لهذه الهزيمة فتنادوا لإقامة حملة أخرى للانتقام من العثمانيين وخرج جيش كثيف من مجموعة من الدول الغربية وتقابل الجيشان في «جيرمِن» سنة ٧٧٢ هـ/ ١٣٧١ م وكانت حصيلة المعركة هزيمة أخرى للصليبيين وانتصاراً ساحقاً للعثمانيين وقد مكنهم هذا الانتصار من الاستيلاء على «صوفيا» «وأجكودرا» «وبوصنة» ووصلوا إلى بحر الأدرياتيك؛ وأدى هذا التوسع للجيش العثماني داخل أوربا إلى فزع العالم الأوربي المسيحي وتنادوا لإقامة حملة صليبية ثالثة ـ والتقى الجيشان في صحراء قوصوه سنة ١٣٨٩/٧٩١ م وللمرة الثالثة تمت هزيمة الصليبيين.

وبينما كان مراد الأول يتجول في ساحة المعركة اغتاله أحد الموتورين فذهب إلى ربه شهيداً. وعندما تولى بعده السلطان بايزيد كانت أراضي الدولة العثمانية قد وصلت إلى وسط أوربا وبلغت مساحتها أكثر من أربعمائة ألف كيلومتر مربع.

ولم تسكت أوربا وللمرة الرابعة تجمعت جيوش ١٥ دولة أوربية لمحاربة المدِّ الإسلامي الصاعد على يد الدولة العثمانية الفتية والتقى الجيشان في معركة نيغبرلي سنة ٧٩٨ هـ/١٣٩٦ هـ وكانت نتيجة المعركة الضاربة نصراً مؤزراً للجيش العثماني بقيادة السلطان بايزيد.

ولم تستطع جحافل أوربا أن تنتصر على هذا السلطان المسلم، ولكن حاكماً مسلماً آخر استطاع أن يخضع السلطان بايزيد ويهزمه، هو تيمورلنك، في معركة أنقره عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢ م.

وانتهت المعركة بأسر بايزيد وموته في الأسر بعد عام واحد كمداً وحزناً.

وتمزقت الدولة العثمانية لفترة محدودة، ما لبثت أن عادت بعدها لتواصل مسيرتها القوية على يد محمد الأول بن السلطان بايزيد.. وعندما جاء مراد الثاني استطاع أن يعيد لهذه الدولة قوتها حتى وصلت جيوشه المجر مما أدى إلى قيام حملات صليبية جديدة وقد استطاع السلطان مراد الثاني هزيمتها.

وقد تنازل السلطان مراد الثاني لابنه محمد الثاني (محمد الفاتح) الذي لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من العمر ليتفرغ هو للعبادة.

وعندما علمت أوربا بذلك جردت حملة صليبية ضخمة.. وأرسل محمد الثاني لوالده تلك الرسالة المشهورة قائلاً له: «إن كنت أنا السلطان فإنني آمرك بقيادة الجيش، وإن كنتَ أنت السلطان فدافع عن مملكتك».

آنذاك قام السلطان مراد الثاني بواجب الجهاد وهزم جيش الصليبيين البالغ أكثر من مائة ألف جندي.. وأراد مراد الثاني بعد هذه المعركة أن يعود إلى عزلته فأبى عليه ذلك رجال الدولة والجيش واستمر في الحكم لحين وافته المنية سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م.

وتولى محمد الفاتح الشاب القوي الجريء الحكم بعد والده (٨٥٥ - ٨٨٦ هـ/١٤٥١ - ١٤٨١ م) واستطاع هذا السلطان الشاب أن يفتح القسطنطينية التي قال فيها الرسول ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية.. فلنعم الجيش جيشها ولنعم الأمير أميرها».. وبفتح

القسطنطينية انتهت الأمبراطورية البيزنطية إلى الأبد. وقد تمّ ذلك الفتح المبين سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م. وعامل محمد الفاتح النصارى بكل شهامة وكرم على عكس ما يفعله الصليبيون عندما يظفرون بالمسلمين. وقد جاء في كتاب محمد الفاتح إلى أهل القسطنطينية بعد أن أقسم بالله خالق الأرض والسماوات بـأنه يعـطي الأهالي المسيحيين حريتهم في العبادة والتجارة، قائلاً لهم: «يستطيع الأهالي أن يديروا أموالهم وبيوتهم ومتاجرهم وبساتينهم ومراكبهم وتجارتهم وأن يحافظوا على أولادهم وزوجاتهم كما يشاؤون. وهم أحرار في بيع تجارتهم في جميع أنحاء البلد.. وسيحافظ على كنائس وصلوات أهل المدينة «وإنني لن أحوّل كنائسهم إلى جوامع ولن آخذ أبناءَهم إلى الإنكشارية (الخدمة العسكرية آنذاك) ولن أكرههم على الدخول في ديننا. وأعدهم بأنني لن أعاملهم كعبيد، بل سأحافظ عليهم وأدافع عنهم كما أحافظ وأدافع عن نفسي».

وقد برَّ بوعده.. وهكذا كان المسلمون بصورة عامة رحماء بالنصارى يعاملونهم معاملة كريمة في جميع مراحل الفتوح الإسلامية منذ عهد الراشدين إلى يومنا هذا.. وهم على العكس من ذلك لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة. وعندما تسنح لهم الفرصة يقومون بذبح النساء والأطفال والشيوخ والضعفاء. وكم هي جرائمهم في الحروب الصليبية في الشام وفي بيت المقدس.. وكم هي جرائمهم في الأندلس.. وكم هي فظائعهم في روسيا القيصرية التي أجبرت المسلمين على التنصر أو القتل تماماً مثلما فعل الإسبان.. وكم وكم من مآسي لا تزال تحدث حتى اليوم..

وفي عام ٨٦٥ هـ/١٤٦٠ م تمّ الاستيلاء عـلى أمبراطـورية

طرابزون وفي عام ٨٨٠ هـ/١٤٧٥ تمّ الاستيلاء على جزيرة القرم. واستطاع هذا السلطان الشاب أن يوسع رقعة الأمبراطورية العثمانية حتى بلغت عند وفاته أكثر من مليوني كيلومتر مربع.

وفي عهد السلطان سليم الأول ٩١٨ـ ٩٢٦/١٥١٢ـ ١٥٢٠ م تمت فتوحات كثيرة واستولى على أرضرورم ومرعش وأذربيجان.. وعندما مات آخر خليفة عباسي (المتوكل على اللّه) في القاهرة جمع العلماء واعترفوا به خليفة للمسلمين.. وبذلك كان أول خليفة للمسلمين من غير قريش.. واستمرت الخلافة بعد ذلك في آل عثمان لمدة ٤٠٥ سنة وانتهت بحكم أتاتورك العلماني.

ووصلت الخلافة العثمانية أوج مجدها في عهد السلطان سليمان القانوني ٩٢٦ـ ٩٧٤هـ ١٥١٩ـ ١٥٦٦م. الذي أطلق عليه الأوربيون لقب المفخم أو المعظم The Magnificent. ولقد اتسعت الدولة العثمانية في عهده لتشمل كل بلاد البلقان والمجر وجنوب روسيا وجزءاً من بولنده بالإضافة إلى مصر والشام والسودان والحبشة وشمال إفريقيا.. وأطراف الجزيرة العربية والحجاز ونجد واليمن. وقد اشتهر السلطان سليمان باسم القانوني لأنّه وضع القوانين المنظمة لجميع مرافق الدولة.

وامتد حكم العثمانيين ليشمل العراق وإقليم أرّان (أذربيجان السوڤيتية) بالإضافة إلى جزيرتي قبرص وكريت.

ولعب العثمانيون دوراً كبيراً في صد هجمات البرتغاليين والدول الأوربية الأخرى على البلاد العربية ابتداء من الشمال الإفريقي (المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا) وانتهاء باليمن وعمان والصومال.

كما لعب العثمانيون دوراً بارزاً وهاماً في صد الامتداد التوسعي للدولة الصفوية في إيران والتي استولت على العراق. وللأسف فإنَّ الحرب بين الدولتين المسلمتين أدت في النهاية إلى أضعافهما جميعاً وتحولهما إلى لقمة سائغة للجيوش الروسية خاصة والأوربية عامة.

وقام العثمانيون بدور هام في توحيد صفوف المسلمين تحت راية واحدة.. كما لعبوا دوراً كبيراً في العناية بالحرمين الشريفين، وتحقيق أكبر قدر من الأمن والرفاه لهما رغم الاعتداءات المتكررة من الأعراب على الحجيج.

وعملت عوامل عديدة على ضعف الدولة العثمانية وإنهاكها وأهم هذه العوامل:

١ـ المعارك الطاحنة من أجل الاستيلاء على الحكم والسلطنة.. وقد كانت هذه المعارك الدامية تدور بين الأخ وأخيه أو بين الابن وأبيه..

٢ـ فساد الجيش ونظام الإنكشارية: وقد كان نظام الإنكشارية في بداية الأمر مثلاً للانضباط والمقدرة العسكرية حيث كان يؤخذ أطفال الأسرى من الأوربيين ويربون على الإسلام وينشأون تنشئة عسكرية.. ومع تطاول الزمن أخذ هؤلاء الإنكشارية في الفساد وامتدت سلطتهم لتصبح مصدر ازعاج للدولة.

٣ـ فساد نظام الإدارة في الولايات وازدياد الرشوات ثمّ ظهور النعرات القومية.

٤ـ تدخل الدول الأجنبية بحجة رعاية مصالح المسيحيين الموجودين في الدولة. وقد تكالبت دول أوربا على الدولة العثمانية لتمزيقها

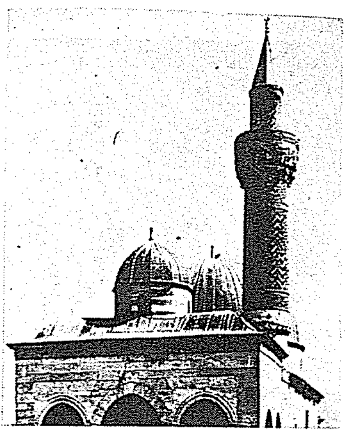
من الداخل والخارج.

٥ـ انصراف علية القوم إلى الترف والمباذل مما أدى إلى إضعاف روح الجهاد.

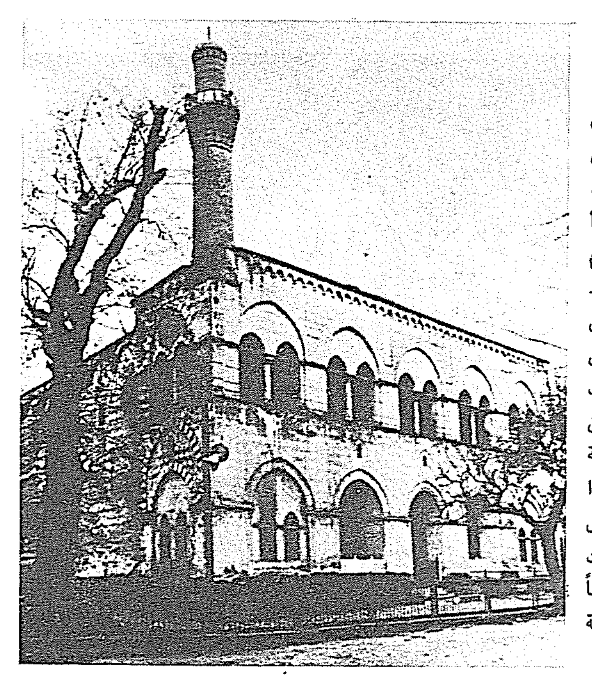
وانتهت هذه الدولة الإسلامية بعد ٦٢٠ عاماً من الجهاد والمعارك المتصلة وذلك عام ١٩١٨ بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وتحولت جميع الأراضي التي كانت تحت الحكم العثماني إلى مستعمرات للدول الأوربية. ولا تزال الدول الغربية حريصة كل الحرص على إبعاد الأتراك عن منهج الإسلام لأنهم يعرفون مدى أخلاص الأتراك لدينهم.. وأخشى ما تخشاه هذه الدول الغربية والشرقية (الرأسمالية والشيوعية) هو عودة جذوة الإسلام إلى قلوب المسلمين عامة والأتراك خاصة.

ولكن كيدهم سيخيب وسيعود المسلمون إلى دينهم مرة أخرى وسيكون للأتراك في ذلك دور وأي دور بإذن اللّه تعالى.

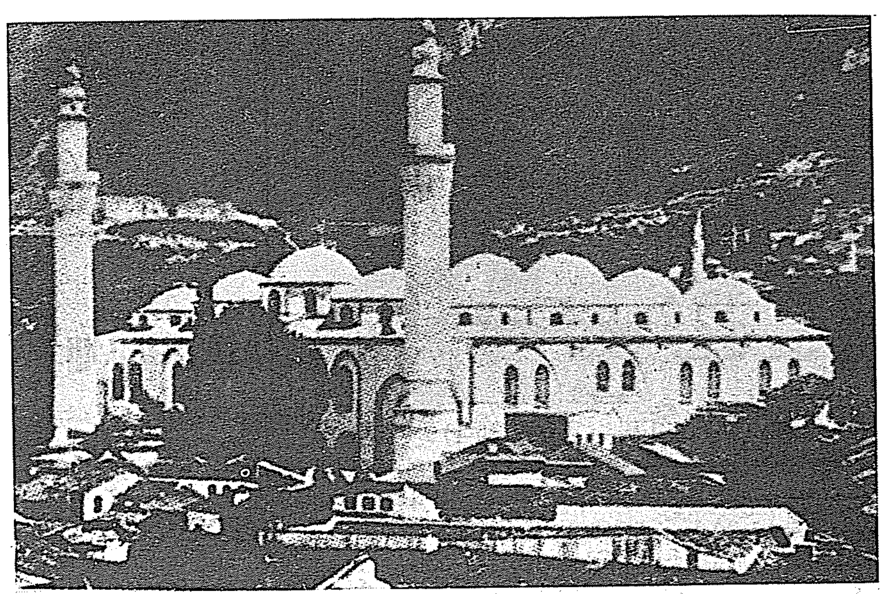
الآثار العثمانية



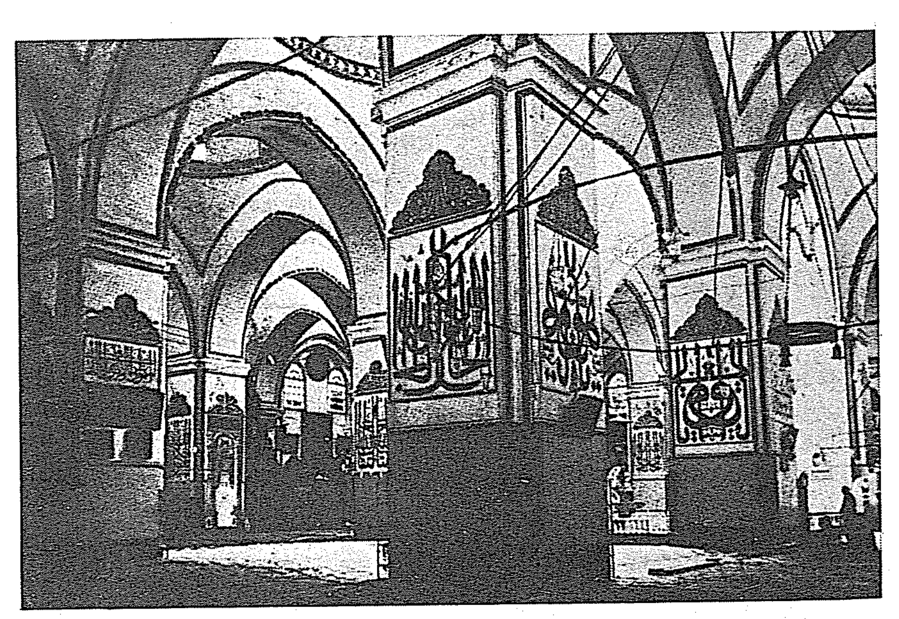
المسجد الأخضر (يشيل جامع) في مدينة أزنيق الذي يُعتبر أهم أثر معماري عثماني في هذه المنطقة. ويتكون المسجد من ثلاثة أقبية من الداخل يغطيها قبو واحد مكون من عدة حشوات وتتوسطه قبة مضلعة على رقبة طويلة مثمنة... ويبلغ قطر القبة الرئيسية ١١ متراً وتمثل نصف كرة تامة.. ويكسو الرخام واجهة المسجد من الخارج والداخل. وهناك صفان من النوافذ يشغلان كلا الواجهتين الشرقية والغربية ويشكل المحراب الرخامي وزخرفاته وأعمدته الركنية ابتكارات عثمانية جديدة. (من كتاب فنون الترك وعمائرهم).



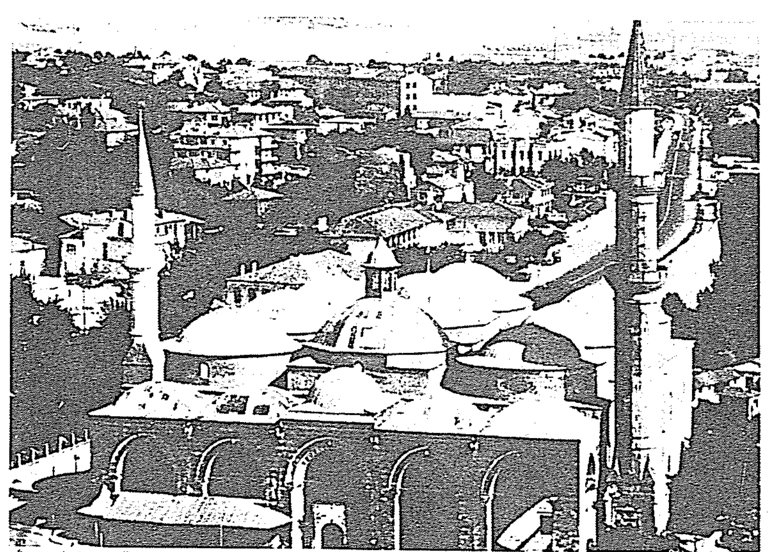
مدينة بورصة: عاصمة العثمانيين الأولى. ولهذا فقد حظيت بالكثير من آثارهم المعمارية الهامة ومنها مسجد خداوندكار (مراد الأول) الذي بدأ بناؤه عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م وتم البناء عام ٧٨٨ هـ / ١٣٨٥ م. ويتكون المسجد من طابقين خصص أعلاهما ليكون مدرسة. والطابقان تغطيهما قبة رئيسية مرتفعة وإيوانات ذات أقبية تحيط بالقبة وتسندها من ناحية القبلة ومن الجانبين وتحت القبة شادروان (نافورة)... ويحتوي هذا البناء الفخم الضخم بالإضافة إلى المدرسة والمسجد العديد من دورات المياه وأماكن الوضوء، وضريحاً للسلطان وداراً للمرق (مطبخاً للطلبة والفقراء يوزع الطعام طوال العام).



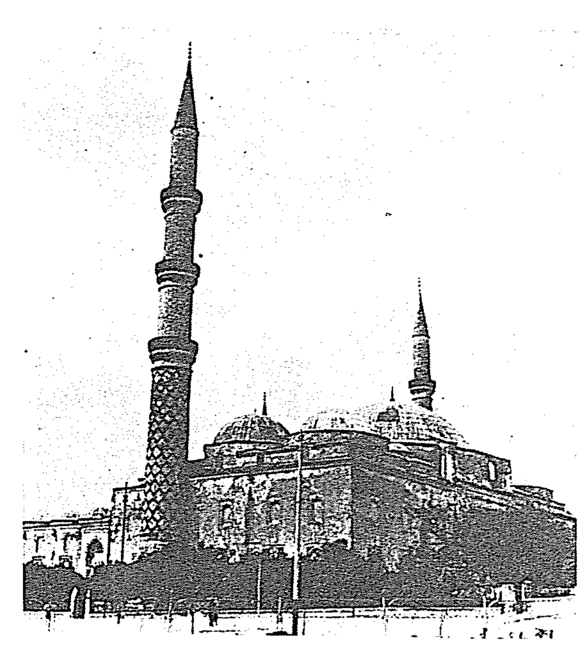
بورصة: الجامع الكبير الذي بناه السلطان بايزيد الأول عام ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م وهذا المسجد من أرحب المساجد التي بناها السلطان بايزيد إذ يضم عشرين قبة تحملها دلايات ترتكز على ١٢ دعامة ضخمة. وللمسجد مئذنتان من واجهته الشمالية.



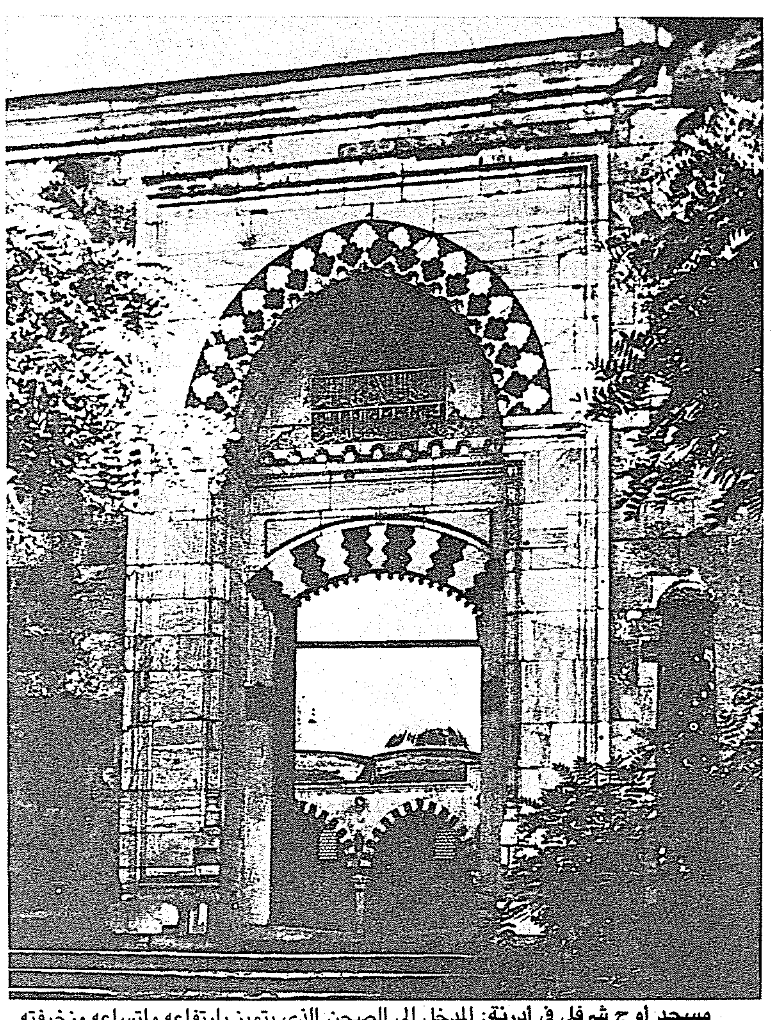
بورصة: الجامع الكبير من الداخل.



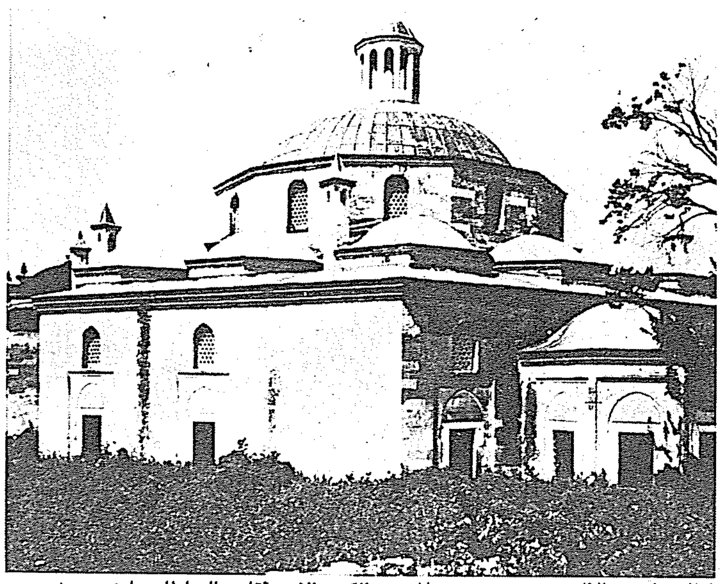
مدينة أدرنة:
المسجد القديم (أسكي جامع) أول المنشآت العثمانية في أدرنة. فقد بدأه الأمير سليمان جلبي سنة ١٤٠٣ م وأتمه السلطان محمد جلبي عام ١٤١٤ م ومهندسه حاجي علاء الدين من قونية والمسجد بناء مربع تعلوه تسع قباب. وللمسجد مئذنتان إحداهما بمطاف واحد والأخرى بمطافين.



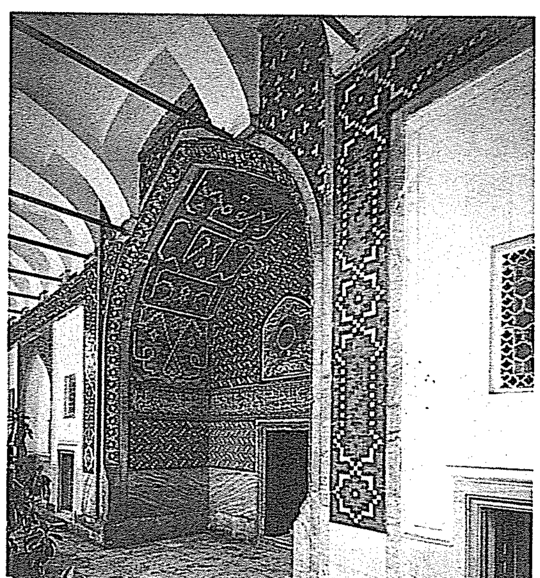
أدرنة: مسجد اوج شرفلي الذي بناه السلطان مراد الثاني في أدرنة بين عامي ٨٤١ ـ ٨٥١ هـ / ١٤٣٧ ـ ١٤٤٧ م. يعتبر ظاهرة فنية معمارية مختلفة عما سبقها والتي استفاد منها فيما بعد المهندس سنان. وهناك قبة رئيسية (قطرها ٢٤,١٠ متراً) و ٤ قباب جانبية (قطر الواحدة ١٠,٥٠ متراً).. وبين القباب مثلثات غطيت بقباب أصغر. وصحن المسجد مستطيل ويتوسطه شادروان (نافورة) ويكوّن الصحن ورواق الصلاة كلاً معمارياً واحداً وهناك ٢٢ قبة حول الصحن.. وتوجد في جوانب المسجد ظلل ثلاث. والمسجد له أربع مآذن تقوم واحدة منها عند كل ركن وتختلف كل واحدة منها عن الأخرى في أسلوب صناعتها وزخرفتها.



مسجد أوج شرفلي في أدرنة: المدخل إلى الصحن الذي يتميز بارتفاعه واتساعه وزخرفته.



أدرنة: مستشفى السلطان بايزيد الثاني، وهو جزء من المجمع الكبير الذي أقامه السلطان بايزيد على يد المهندس خير الدين في أدرنة بين عامي ١٤٨٤ و ١٤٨٨ م، ويشتمل هذا المجمع على مسجد ودار للمرق ومستشفى ومدرسة وحمام ومطبخ ومخزن للميرة (المؤن).



استانبول:
المدخل الرئيسي لمبنى (جينيلي كوشك) الذي يعود بناؤه لسنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م الذي أنشأه السلطان محمد الفاتح...
وهو الآن جزء من قصر طوب قابي وفي هذا المبنى المجموعة الخزفية النادرة. وتكسو الفسيفساء الخزفية الإيوان الكبير الذي يتوسط جدار واجهة المدخل.. ويبدو التداخل في الفن السلجوقي المعماري والفن العثماني واضحاً في هذا المبنى... ويعتبر آخر إبداعات الفسيفساء الخزفية التركية (نقلاً عن كتاب فنون الترك وعمائرهم).

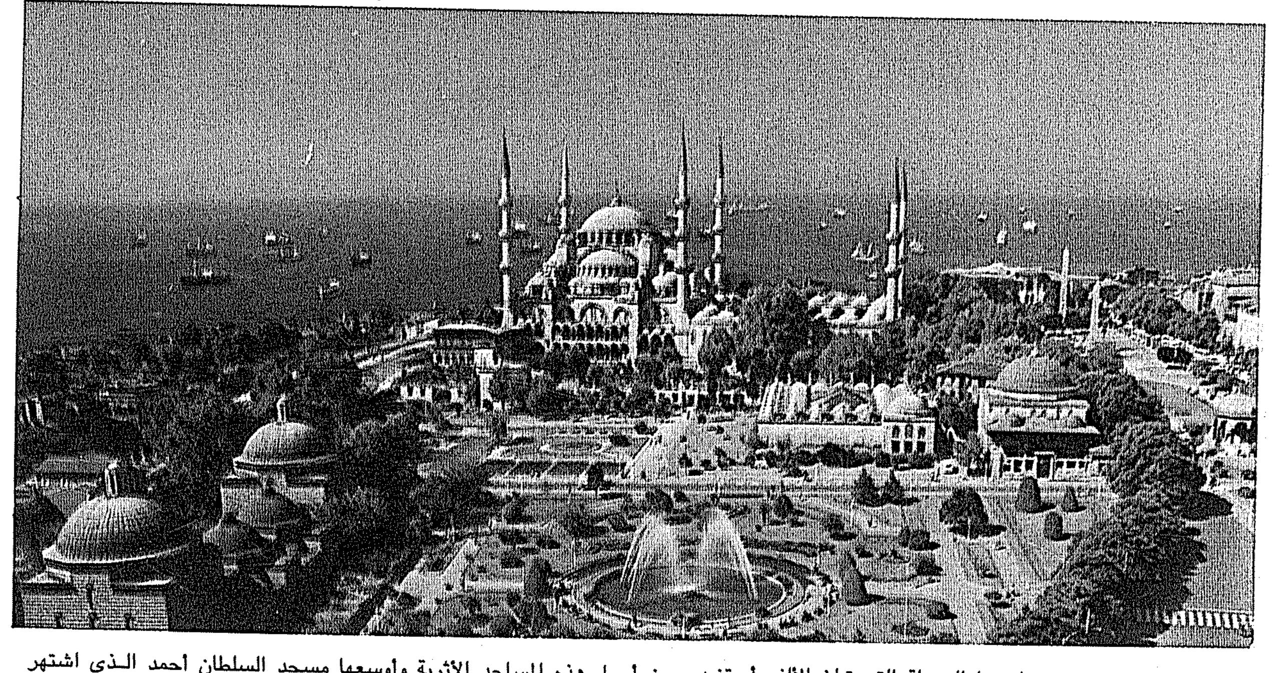
استانبول: (جينيلـي كوشك) أي الكوشك الصيني، وخزفياته.



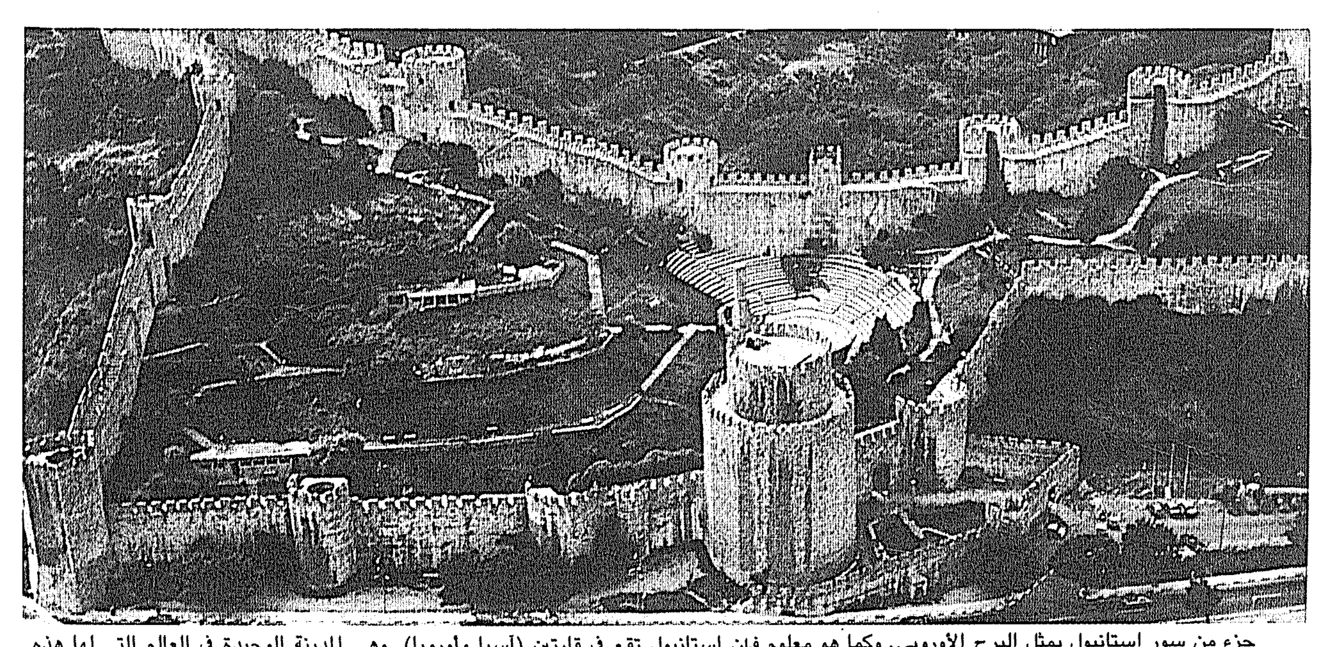
السلطان العظيم محمد الفاتح الذي فتح الله على يديه القسطنطينية والتي أسماها مدينة الإسلام، إسلامبول (تُنطق الآن استانبول)، وذلك سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م، وفي عام ٨٦٥ هـ / ١٤٦٠ م، استولى على امبراطورية طرابزون وفي عام ٨٨٠ هـ / ١٤٧٥ م استولى على جزيرة القرم. وقد كان السلطان محمد الفاتح كريماً في معاملته النصارى وتميز حكمه بالعدل والرخاء وكثرة المنشآت.

وقد استمر حكمه أكثر من ثلاثين عاماً (٨٥٥ ـ ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ ـ ١٤٨١ م) كانت كلها خيراً وبركة على المسلمين.. ويكفي أن نذكر أنه أمر ببناء ٣٠٠ جامع و ٥٧ مدرسة و ٥٩ حماماً عاماً و ٢٩ قيسارية والكثير من القصور والقلاع والحصون والأسوار.

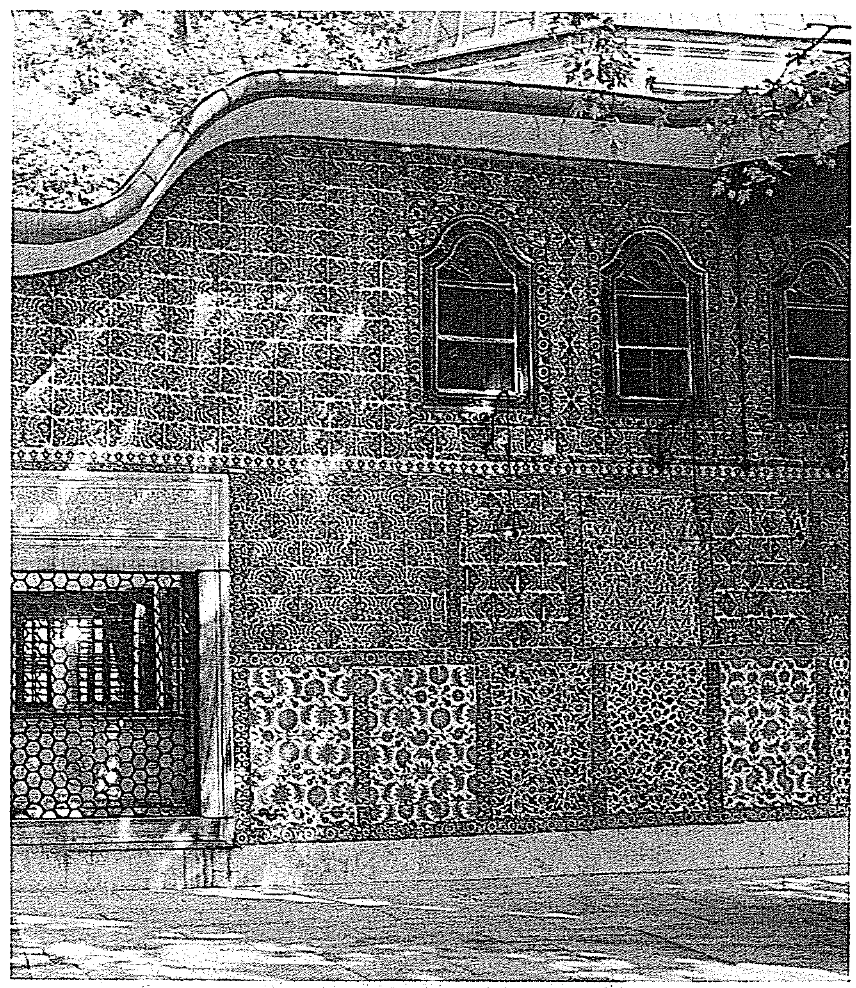
(هذه اللوحة رسمها الفنان سنان بك وهي موجودة في متحف طوب قابي باستانبول).



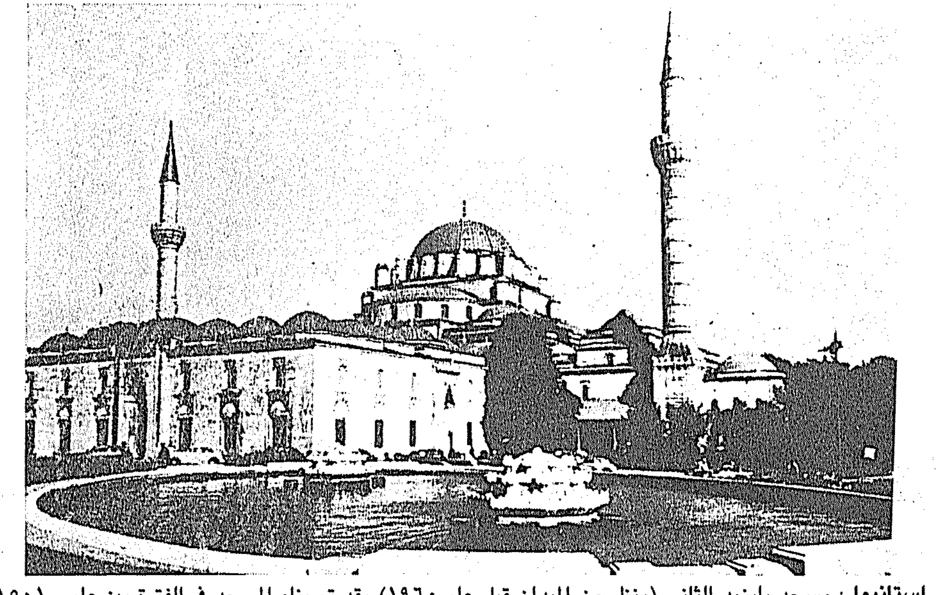
تشتهر مدينة استانبول بمساجدها الجميلة التي تبلغ الألف أو تزيد. ومن أجمل هذه المساجد الأثرية وأوسعها مسجد السلطان أحمد الذي اشتهر باسم المسجد الأزرق لأن بناءه من الداخل أزرق اللون.. ويقع المسجد بالقرب من مسجد آيا صوفيا (الذي حوّله أتاتورك إلى متحف) ويمتاز بمآذنه الست ومدارسه العديدة الملحقة به.



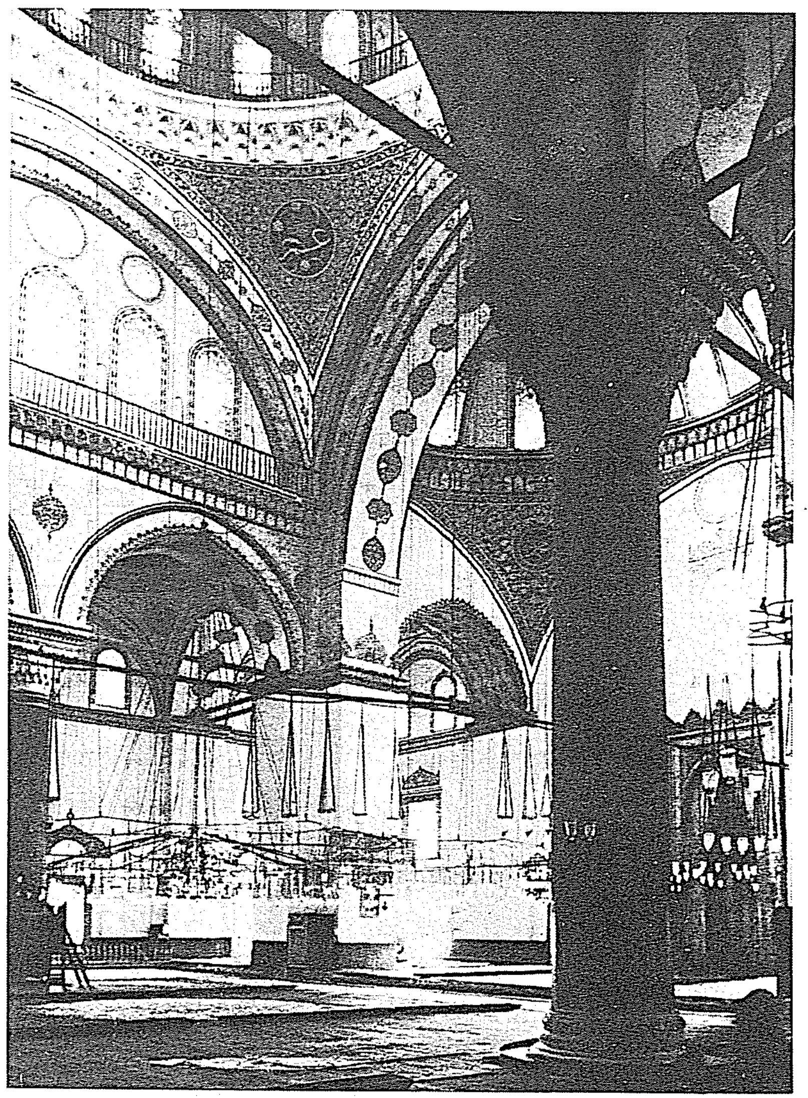
جزء من سور استانبول يمثل البرج الأوروبي. وكما هو معلوم فإن استانبول تقع في قارتين (آسيا واوروبا). وهي المدينة الوحيدة في العالم التي لها هذه الخصيصة.



منظر داخلي لمسجد الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري (خالد بن زيد بن كليب من بني النجار) رضي الله عنه، وأبو أيوب الأنصاري هو الذي نزل النبي ﷺ في داره قبل أن يبني المسجد والبيت، عند مقدمة المدينة، ومناقبه كثيرة. وهو الذي أنزل الله فيه وفي زوجته قرآناً يُتلى إلى يوم الدين **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**. وقد شارك أبو أيوب رضي الله عنه في غزوات الرسول ﷺ.. ولم يتوقف عن الجهاد رغم شيخوخته في عهد الخلفاء الراشدين. فلما كان عهد معاوية ركب البحر في أول غزوة لفتح القسطنطينية. وفي تلك الغزوة مرض أبو أيوب وتوفي رضي الله عنه بعد أن أوصى أن يُدفن على أسوارها.. ففعل المسلمون ذلك. وأراد الروم نبش القبر فهددهم المسلمون بتحطيم مآثرهم في فلسطين... ثم وجد الروم بركة لهذا القبر فكانوا يستسقون به. ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية بنى المسجد والمقام. وأصبحت المنطقة تُعرف باسم حضرة (حزرت) أيوب... وللأسف من النادر أن تجد في سكان استانبول اليوم من يعرف من هو أيوب هذا إلا الخاصة من المثقفين وعلماء الدين.

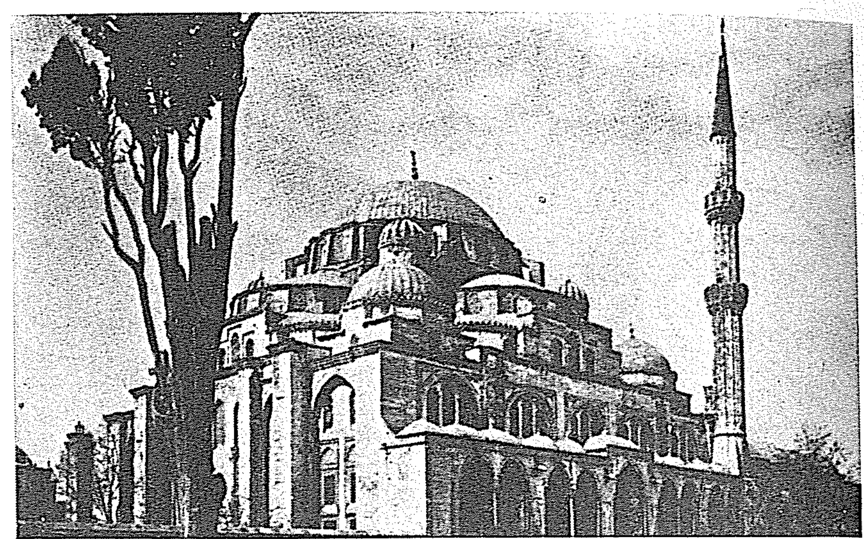


استانبول: مسجد بايزيد الثاني (منظر من الميدان قبل عام ١٩٦٠) وقد تم بناء المسجد في الفترة بين عامي ١٥٠١ ـ ١٥٠٦ م على يد المهندس خير الدين، وأضاف المهندس إلى القبة الرئيسية نصف قبة من جهة القبلة وأخرى من الجهة الشمالية وقبة صغيرة من كل جانب. ويغطي كل جناح خمس قباب. وتتصل البلاطات الجانبية بمنطقة القبة الرئيسية من خلال عقود مرتفعة وواسعة ومدببة توحي بالقوة والاقتدار. وأمام المسجد فناء مربع تتوسطه فسقية. وللمسجد مئذنتان ولكل واحدة منهما مطاف للمؤذن وتبعد المئذنة عن الأخرى مقدار ٦٧ متراً ويحوي مسجد بايزيد كل العناصر المنوعة للعمارة الكلاسيكية العثمانية. والمسجد جزء من مجمع يضم مستشفى ومدرسة للطب ومصحة الأمراض العقلية وكلها تقع غرب المسجد. وتطل غرف المرضى على مرجة خضراء وللمستشفى قاعة كبيرة فوقها قبة وتتوسطها نافورة (شادروان) والغرف مغطاة بالقباب أيضاً. وكانت الموسيقى تعزف ثلاث مرات في الأسبوع لمعالجة الأمراض النفسية كما أن هناك سكناً خاصاً لطلبة الطب (١٨ غرفة) إلى جانب غرفة كبيرة للمطالعة والمذاكرة (نقلاً عن كتاب فنون الترك وعمائرهم).

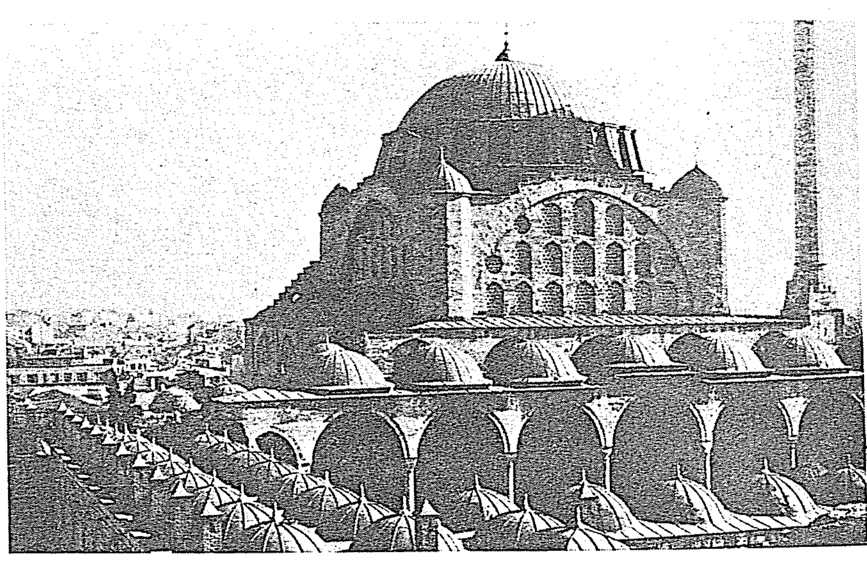


استانبول: مسجد بايزيد الثاني من الداخل الذي أبدع في تصميمه المهندس خير الدين وللمسجد قبة ضخمة مزدانة بزخارف باروكية وتحتها ثلاثة صفوف من النوافذ في الوسط بالإضافة إلى ٤ قباب صغيرة في كل جانب ونصف قبة كبيرة في الجهة الشمالية وأما الجناحان فيغطي كل واحد منهما خمس قباب. وأمام المسجد فناء مربع تتوسطه فسقية. وتدور حول الفناء سلسلة من البوائك تغطي كل واحدة منها قبة.

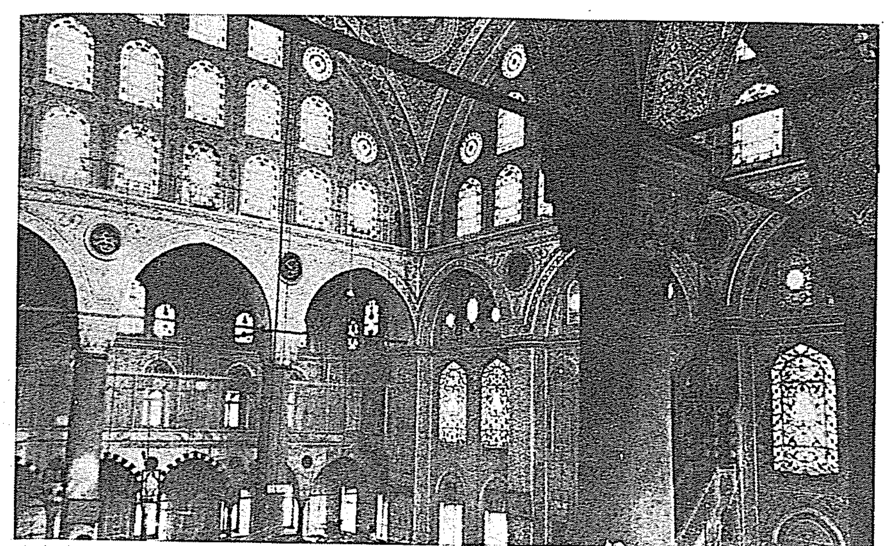
لقد تم بناء هذه التحفة المعمارية فيما بين عامي ١٥٠١ ـ ١٥٠٦ م.



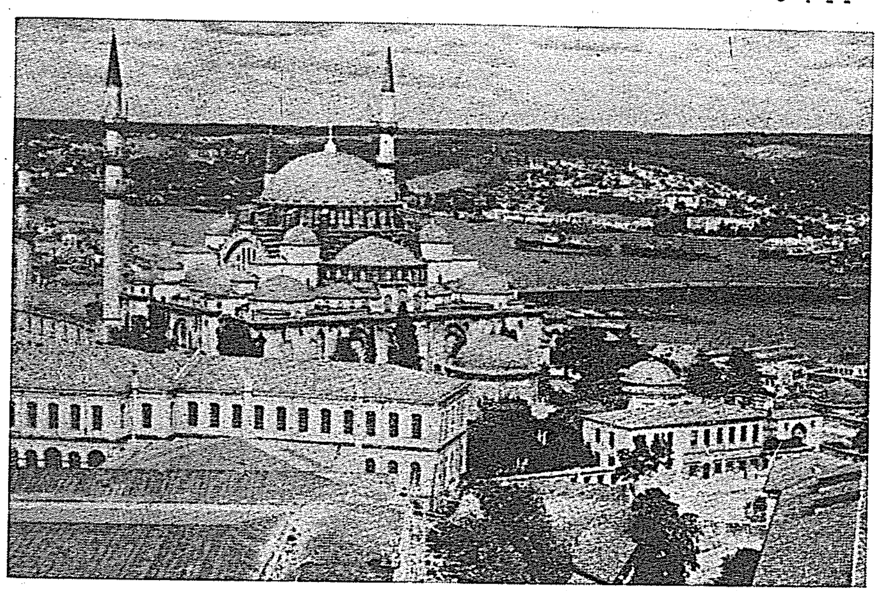
استانبول: مجمع مسجد شهز زاده الذي يضم المسجد وداراً للضيافة وداراً للمرق ومدرسة كبيرة وضريحاً للأمير شهر زاده محمد (من الخارج) أحد روائع الفنان المعماري سنان. وقد أمر السلطان سليمان القانوني بتشييده تخليداً لذكرى ابنه الأكبر شهر زاده محمد الذي توفي في مغنيسة وهو شاب في الحادية والعشرين وقد استغرق العمل في هذا المسجد الرائع أربع سنوات ١٥٤٤ ـ ١٥٤٨. وللمسجد قبة رئيسية قطرها ١٩ متراً و ١٦ قبة جانبية مع أربعة أنصاف قبة. وللمسجد مئذنتان ولكل مئذنة مطافان للمؤذن.



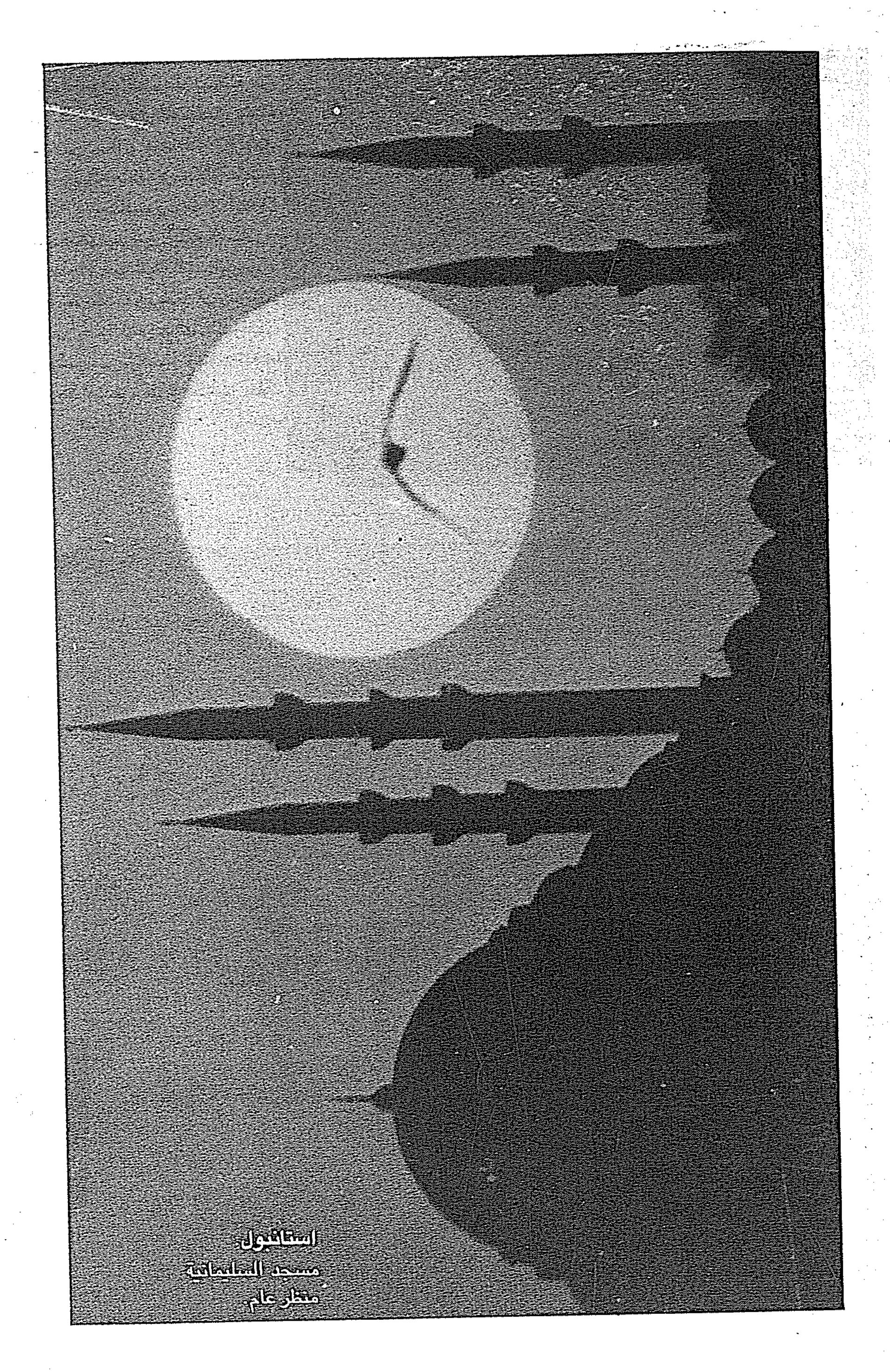
استانبول: منظر عام لمسجد مهرماه سلطان مع الصحن والمدرسة الذي بناه المهندس سنان ويتميز بقبته الضخمة والعديد من القباب الجانبية. ويضم المجمع مدرسة كبيرة. وقد بناه سنان لزوجة رستم باشا وابنة السلطان سليمان القانوني مهرماه. واستغرق زمن البناء تسع سنوات (١٥٤٨ ـ ١٥٥٧ م).



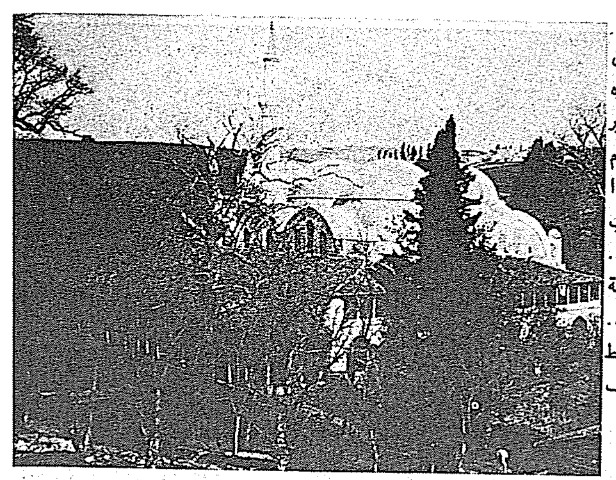
استانبول: مسجد مهرماه سلطان من الداخل، أحد روائع المهندس المعماري سنان الذي عاش في زمن السلطان سليمان القانوني وأهم روائعه مسجد السليمانية ومسجد شهر زاده ومسجد مهرماه باستانبول ومسجد السليمية بأدرنة.



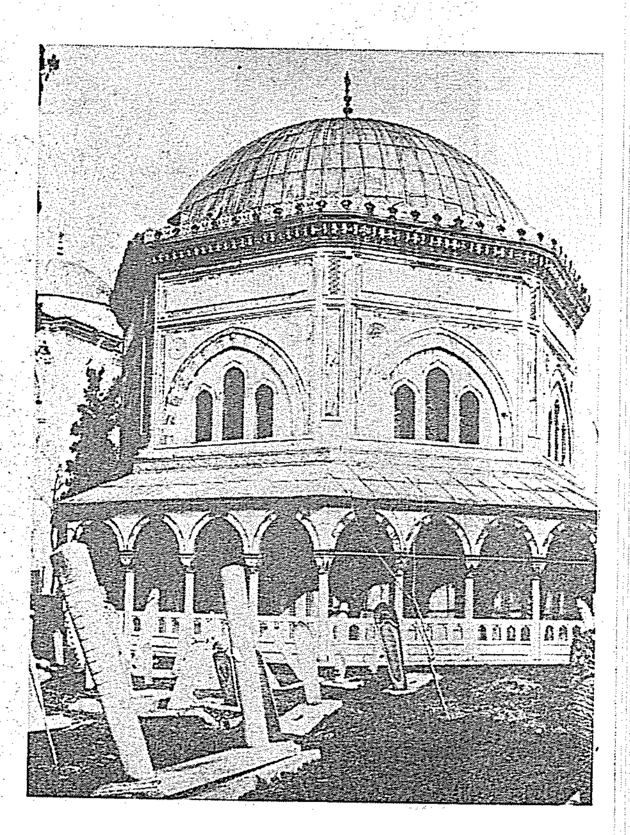
مسجد السليمانية أحد روائع الفن المعماري الذي أظهره المهندس سنان... وقد اشتمل المجمع على جامعة ضخمة تحوي عشرات المدارس والمسجد الضخم ويتميز المسجد بقبته الهائلة (قطرها ٥٠، ٢٦ متراً وارتفاعها ٥٣ متراً) وقبابه الأربع، كما يضم المجمع ضريح السلطان سليمان القانوني وزوجته (خاصكي خرّم) وضريح المهندس سنان، وقد شُيد المجمع ما بين عامي (١٥٥٠ ـ ١٥٥٧ م).



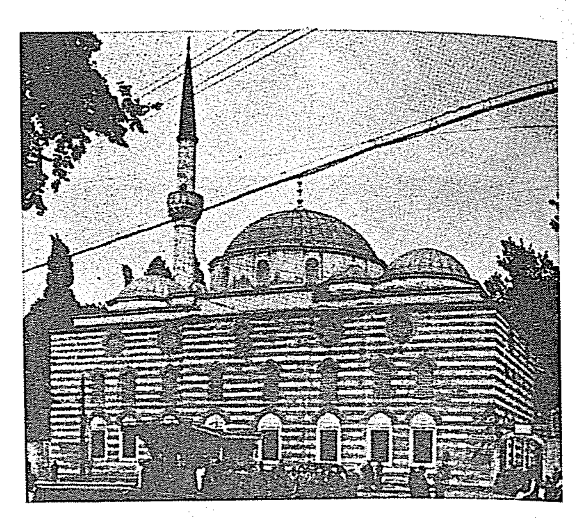
استانبول.
مسجد السليمانية
منظر عام.



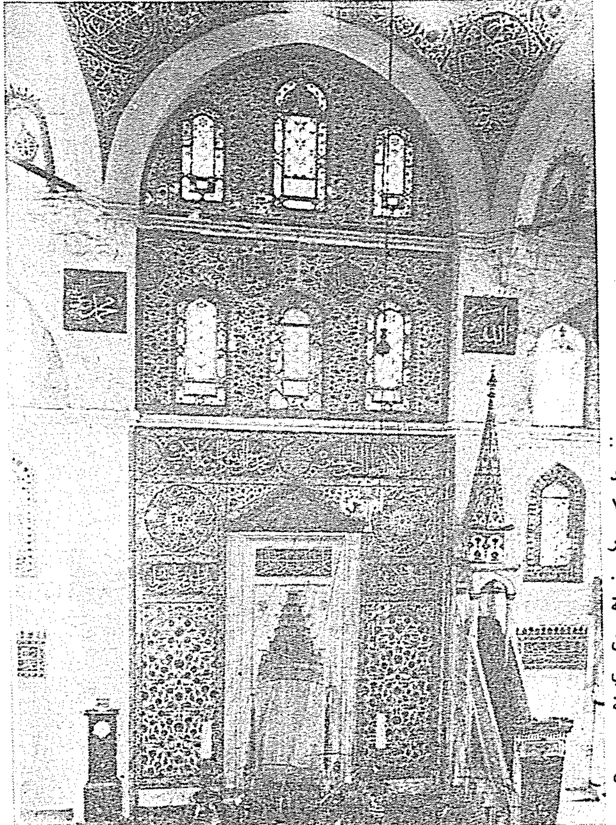
استانبول: مسجد بياله من الخارج. هذا المسجد بناه المهندس سنان عام ١٥٧٣ لأمير البحر بياله باشا في منطقة قاسم باشا باستانبول وبداخل هذا المسجد واحد من أبدع المحاريب المصنوعة من البلاطات الخزفية.. وله زخرفات من بلاطات خزفية تدور حول شراعات النوافذ. وللمسجد مئذنة واحدة فقط ويوجد مدفن بياله باشا خلف جدار القبلة.



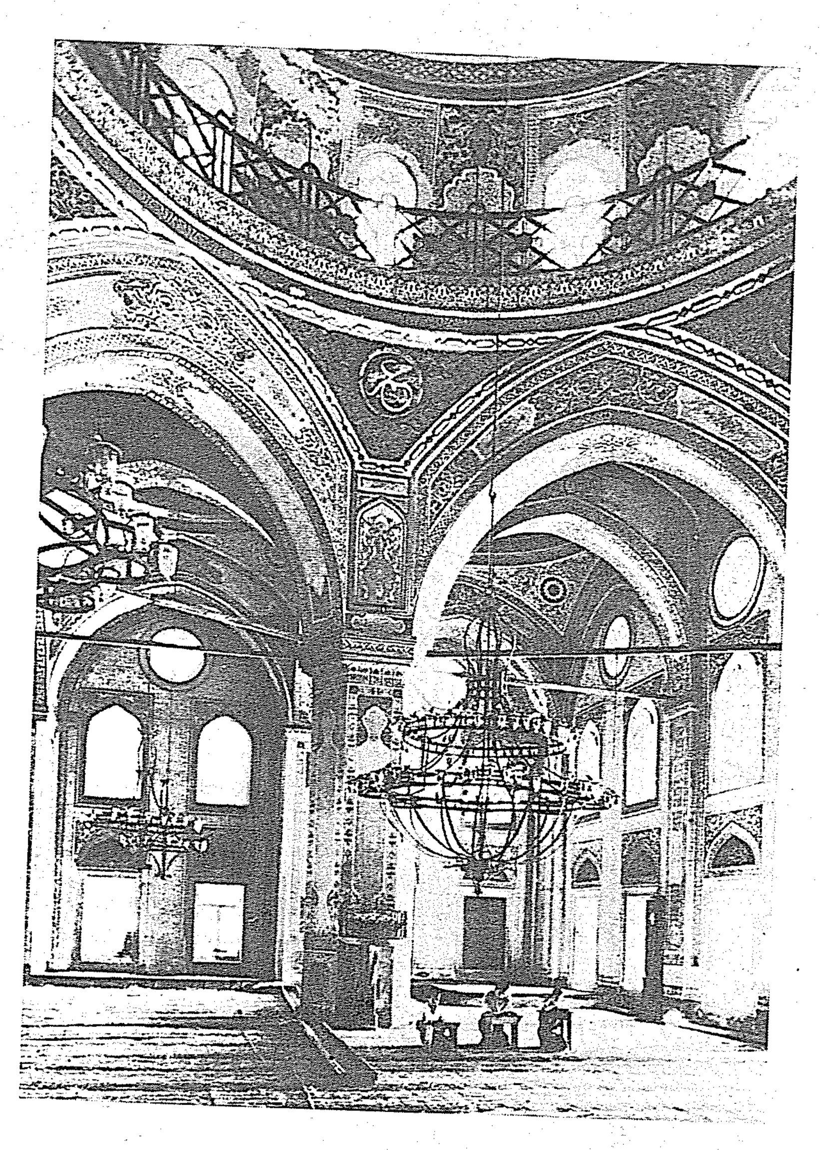
ضريح السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ ـ ٧٤
/ ١٥١٩ ـ ١٥٦٦ م) الذي بلغت الدولة الـ
في عهده أوج عظمتها.. وكان الأوروبيون يـ
عليه لقب المفخم أو الرائع Magnificent
واتسعت الدولة العثمانية في عهده لتشمل كـ
البلقان والمجر وجنوب روسيا وجزءاً من بو
بالإضافة إلى مصر والسودان والحبشة، ـ
افريقيا والحجاز واليمن وأجزاء من الجـ
العربية والعراق وإقليم أران (أذربـ
السوفياتية) بالإضافة إلى جزيرتي قبرص وكـ
ويوجد ضريح في مجمع السليمانية ويضم
السلطان سليمان القانوني ورفات زوجته خـ
خرّم. وفي نفس المجمع يوجد ضريح المـ
العبقري سنان الذي بنى مجمع السليمانية و
من المنشآت المعمارية الرائعة.



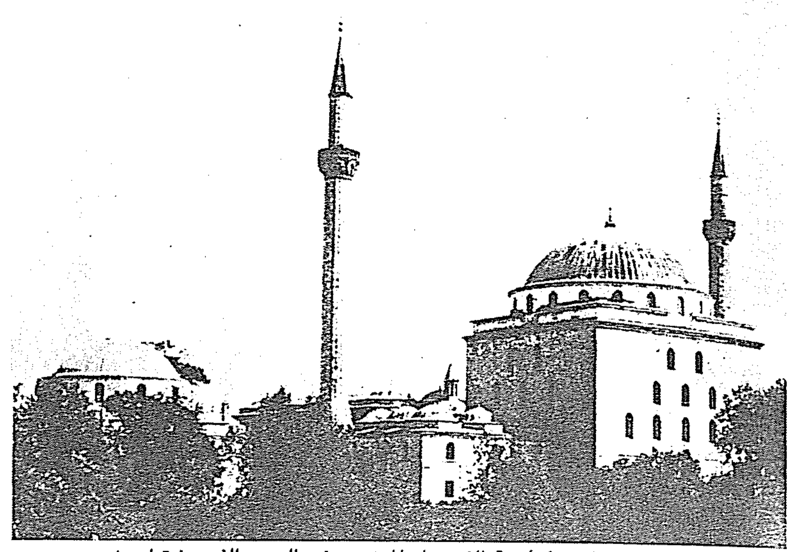
استانبول، بشكطاش، مسجد أمير البحر (من الخارج) والذي بناه سنان باشا المهندس المشهور الذي قام بأعمال معمارية ضخمة مثل مسجد السليمانية ومسجد شهر زاده ومسجد مهرماه سلطان باستانبول. ومسجد السليمية بأدرنة.. وقد شيد هذا المسجد سنة ١٥٥٥ لأمير البحر سنان باشا في منطقة بشكطاش باستانبول.



استانبول: مسجد صوقللي: بلاطات المحراب من الداخل، وقد بُني هذا المسجد عام ١٥٧٢ لأسماء خان سلطان زوجة الصدر الأعظم صوقللي محمد باشا. ويضم المجمع مسجداً ومدرسة كبيرة.. وقد قام المهندس سنان بتصميمه وإنشائه.. وتفنن في وضع المحراب بنقوشه الجميلة التي ترتفع حتى القبة.
ويقع مسجد صوقللي قريباً من مسجد السلطان أحمد المشهور.



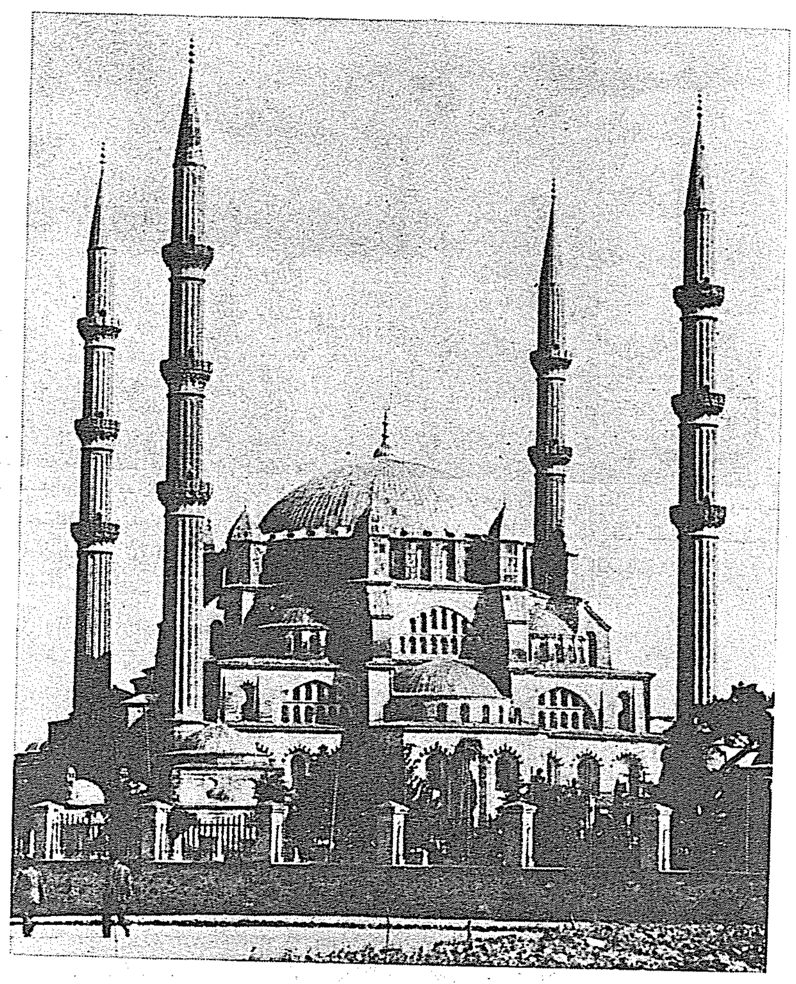
استانبول: مسجد سنان باشا من الداخل يتميز بالزخرفة الفائقة من الداخل، وعمل حوائط من الخارج تتبادل فيها مداميك الحجر المنحوت مع الطوب مما أعطاه شكلاً فريداً. وهو يشبه إلى حدٍ كبير مسجد أوج شرفلي في أدرنة.



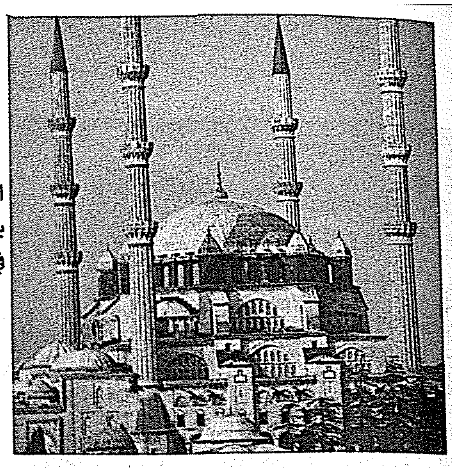
مجمع السلطان بايزيد الثاني في أدرنة الذي بناه المهندس خير الدين والذي يشتمل على مسجد ومدرسة ودار للمرق ومستشفى وحمام ومطبخ ودار للمؤن وكلية للطب (١٤٨٤ ـ ١٤٨٨ م). وفي هذا المجمع الضخم أكثر من مائة قبة.. ويبلغ قطر قبة المسجد ٢١ متراً ويقع إلى جانب المسجد مبنيان كبيران للضيافة.



استانبول: مسجد السلطان سليم الأول (السليمية) من المساجد الضخمة ذات القبة الواحدة.

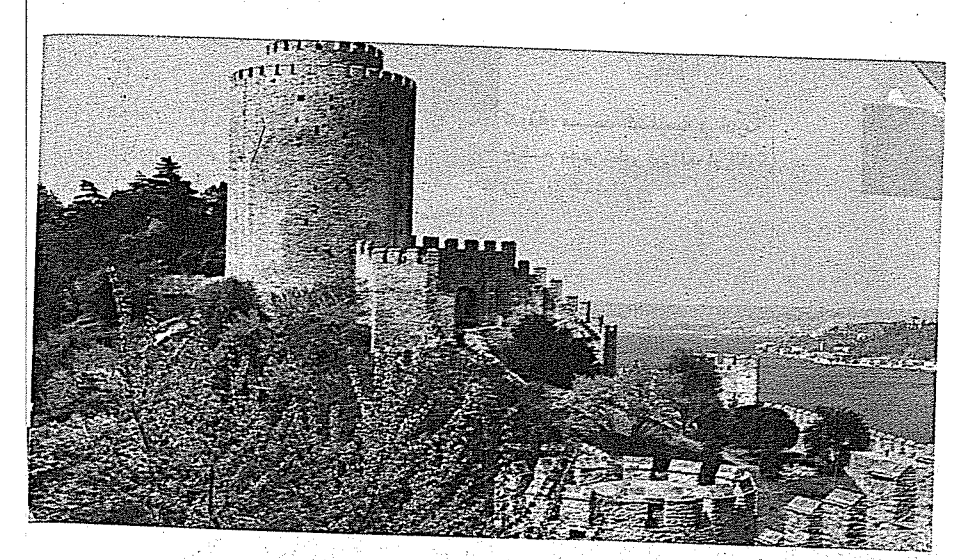


ادرنة: مسجد السلطان سليم (السليمية) الذي أبدعه المهندس سنان وهو في الثمـانين من عمره، وقد اشتمل هذا المسجد على كل الابتكارات التي استحدثها سنان حتى ذلك الحين، وقد استغرق بناؤه خمس سنوات (١٥٦٩ ـ ١٥٧٤ م). وكان إنشاؤه بأمر السلطان سليم الثاني.. ويتميز بقبته الضخمة (قطرها ١٣١,٥٠ متراً) وبمآذنه الأربع الرشيقة وقبته أضخم من قبة آيا صوفيا بمقدار ستة أذرع وأعمق منها بمقدار أربعة أذرع، وهي محمولة على ثماني دعامات قوية... ويتميز محرابه بأنه منحوت من قطعة حجرية واحدة ويتفوق بنقوشه وضخامته على كل المحاريب المماثلة.. وتعتبر الحشوات الخزفية التي تزين جوانب المحراب تحفاً فنية.

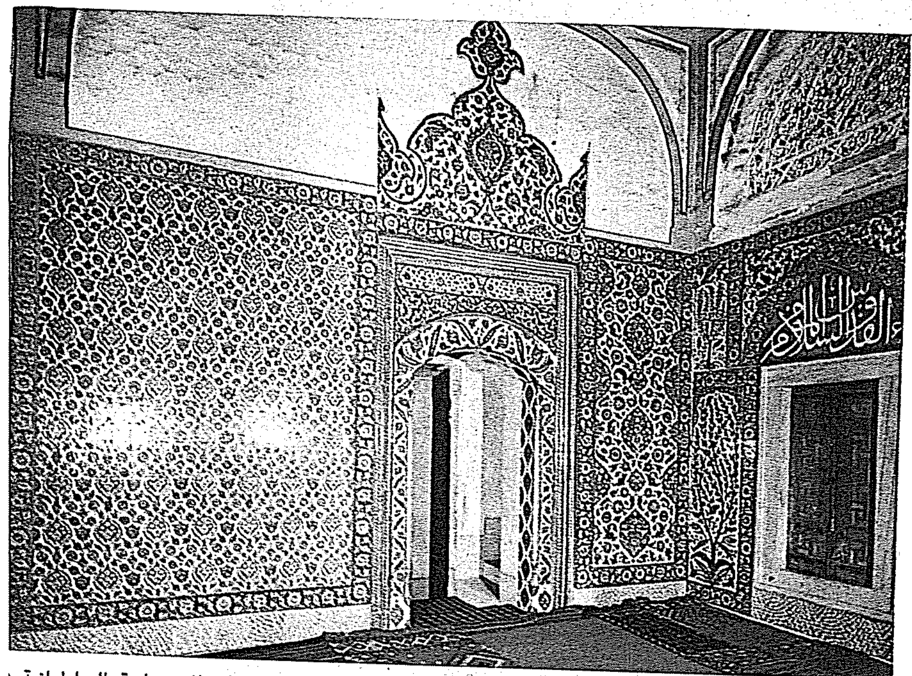


أدرنة: مسجد السليمية في أدرنة يوضح مدى تطور فن المعمار التركي في العهد العثماني.

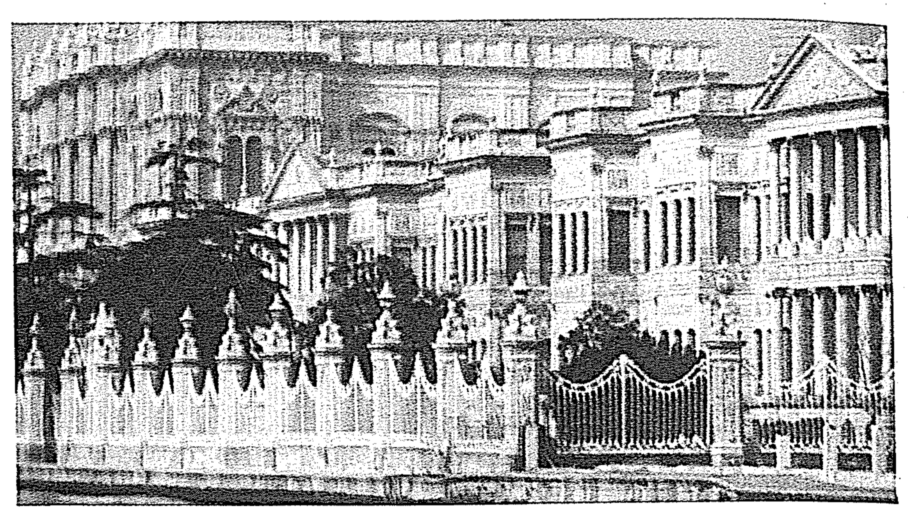
حشوات خزفية تزين جانبي المحراب في جامع السليمية في أدرنة الذي بُني عام ١٥٧٤ م.



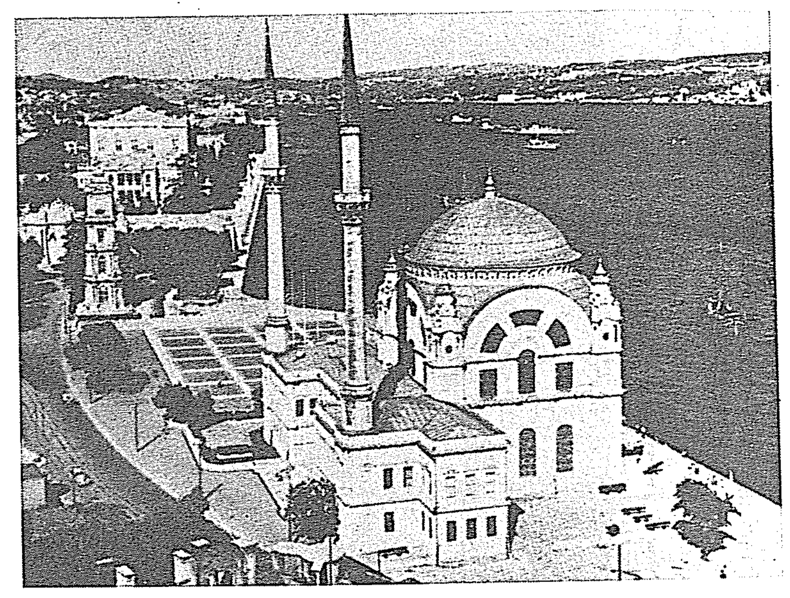
قلعة روميلي:
إحدى القلاع الهامة على البوسفور والتي توضح المعمار التركي في العهد العثماني



حشوات خزفية جميلة تزين جدران الإستراحة السلطانية ا
جامع السليمية بأدرن

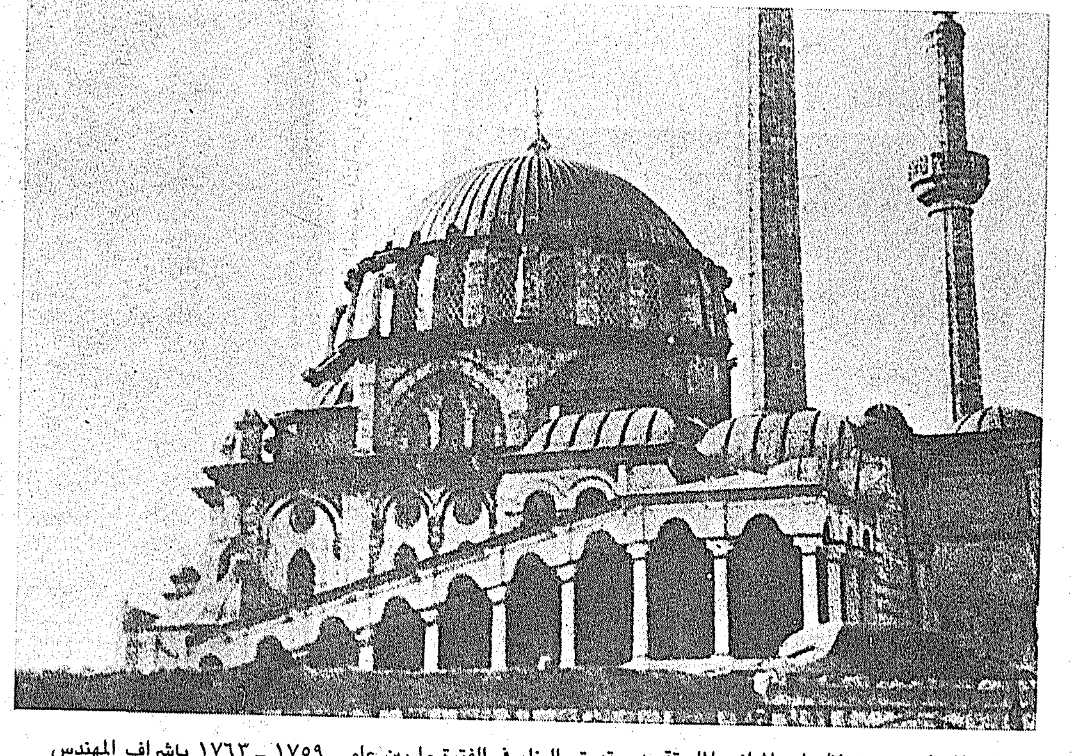


قصر دولمه باشا (ضوله باغجه) في استانبول: تحفة في فن المعمار العثماني في العصور المتأخرة ويبدو تأثره بالفن الأوروبي واضحاً.

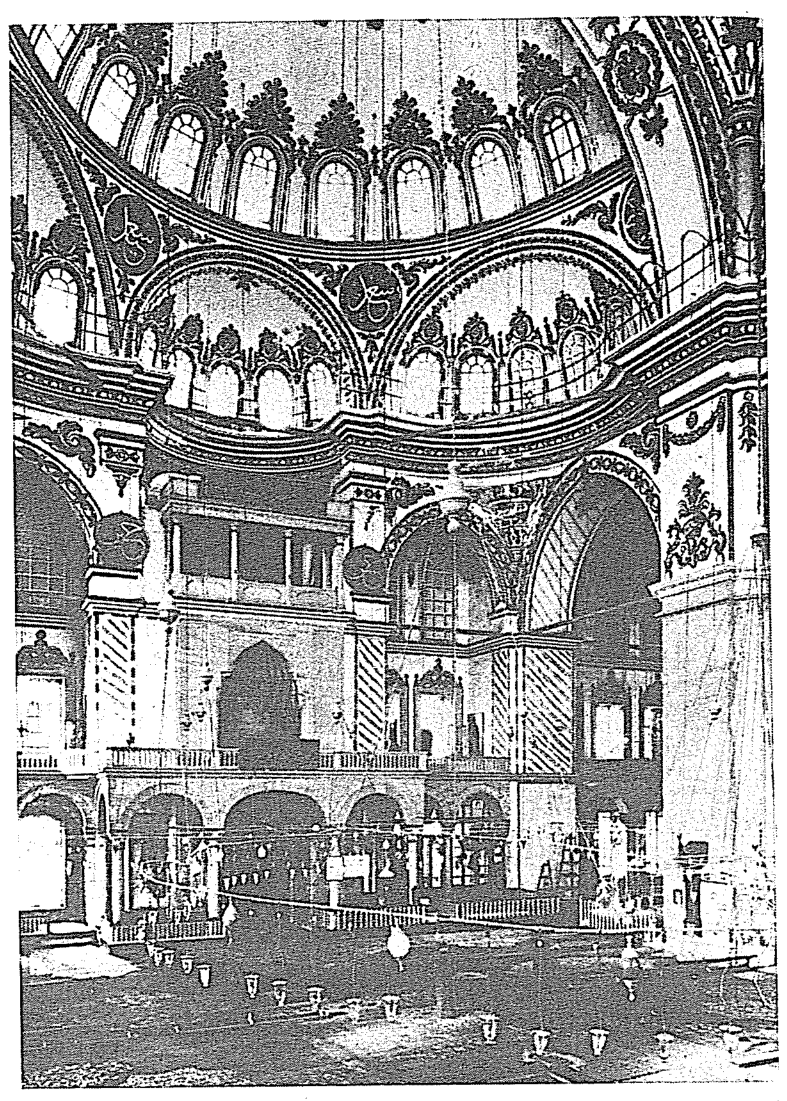


استانبول:

مسجد ضوله باغجه الذي يقع أمام القصر وعلى البحر مباشرة. وقد بناه السلطان عبد المجيد لأمه (بزم عالم) سنة ١٨٥٤. ويبدو المسجد كقصر رائع الزخرف وله مئذنتان. وقد تأثر المهندس بالأسلوب الأمبراطوري الأوروبي. وللمسجد قبة واحدة ومئذنتان دقيقتان.

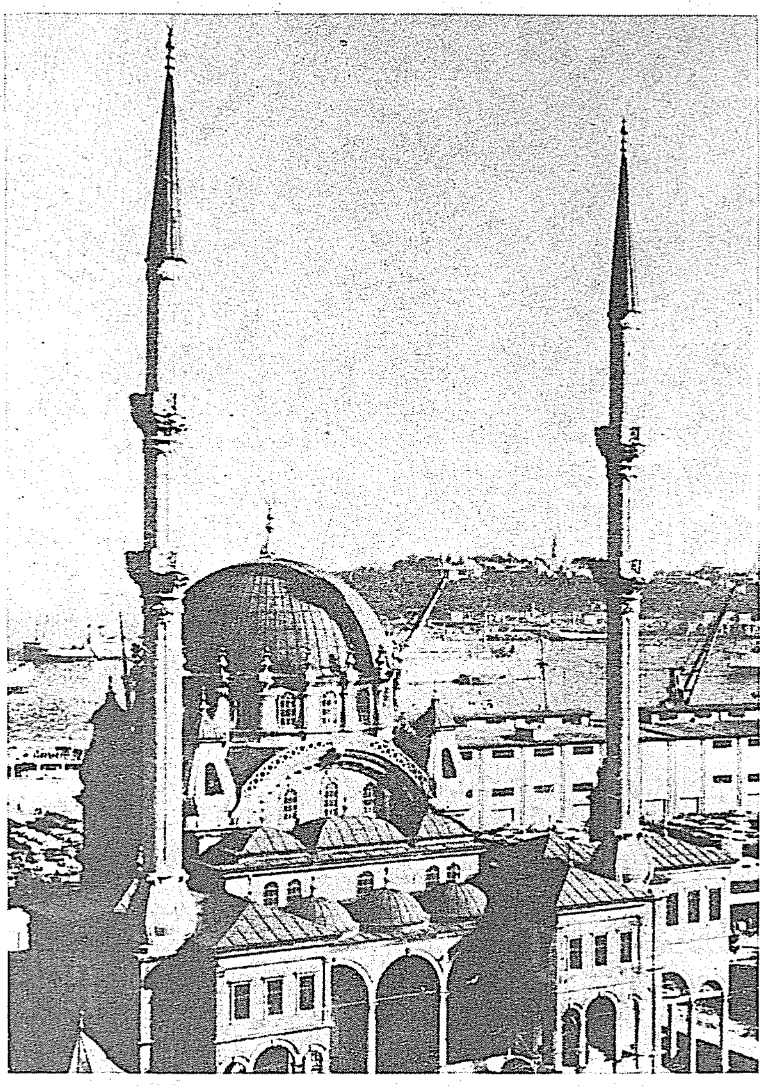


استانبول: مسجد لاله لي والمباني الملحقة به. وقد تم البناء في الفترة ما بين عامي ١٧٥٩ ـ ١٧٦٣ بإشراف المهندس طاهر آغا وأمر السلطان مصطفى الثالث. وقد دمر المسجد بزلزال عام ١٧٦٥، ثم أعيد بناؤه عام ١٧٨٣ بأمر السلطان عبد الحميد الأول. ويشبه هذا المسجد مسجد نور عثمانية في هندسته. ويضم المجمع سبيلاً ودار مرق ومدرسة ومكتبة وبالطابق الأرضي سوق موقوف على المسجد والمجمع.



المسجد الجامع الذي أسسه السلطان محمد الفاتح (من الداخل) ويتميز بقبته الكبيرة بقطر ٢٦ متراً. وتمتد ناحية القبلة بنصف قبة وإلى جانب ذلك ٣ قباب في كل ناحية. ومهندس المسجد هو المعماري المشهور سنان الدين يوسف وتمت عمارة المسجد فيما بين عامي ١٤٦٢ و ١٤٧٠ م. وهذا المسجد هو محور الارتكاز لجمع السلطان محمد الفاتح الذي يضم ١٦ مدرسة ومطعماً كبيراً ومستشفى واسعاً، وخاناً للمسافرين وحمامات عامة وعدداً من الأضرحة.

ويعتبر مجمع السلطان محمد الفاتح أضخم ما أنشأه العثمانيون وتوجد مقبرة محمد الفاتح وزوجته كلبهار خاتون خلف المسجد.



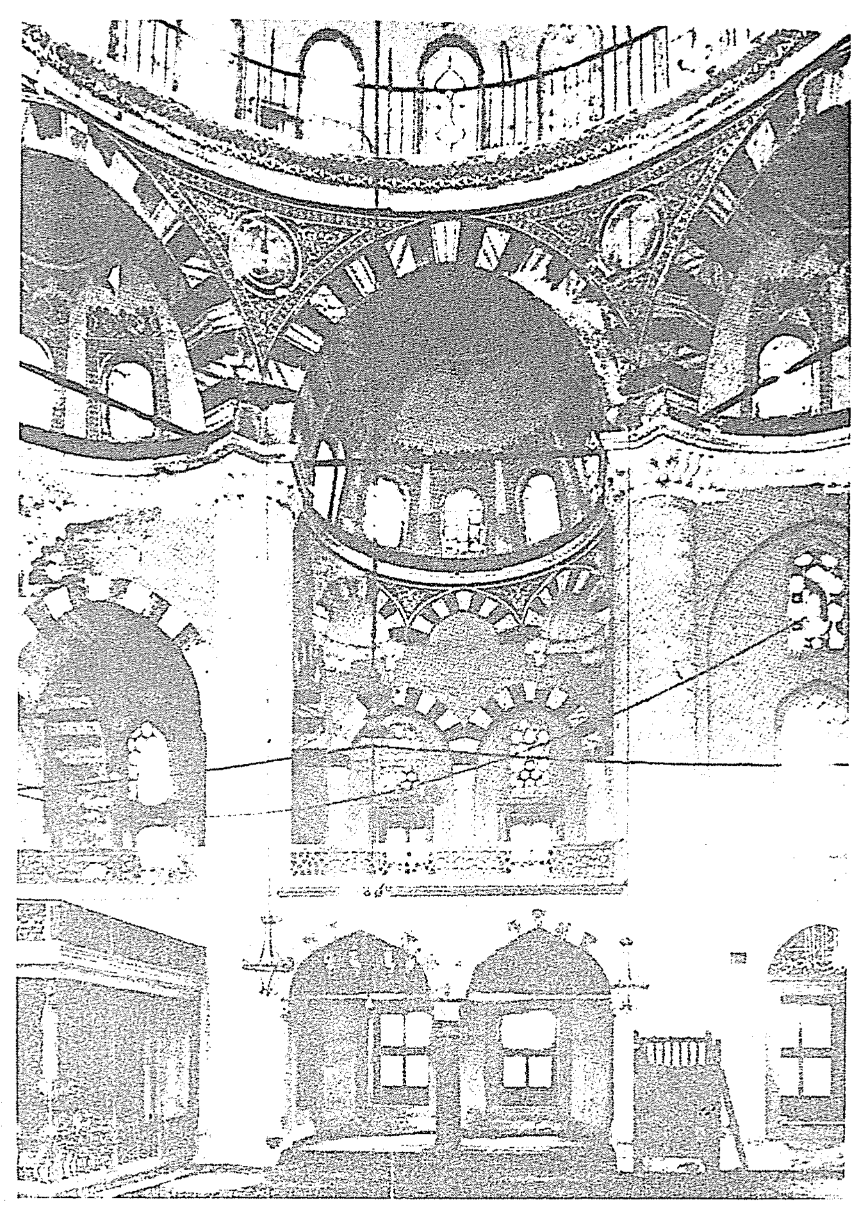
استانبول، طوبخانة: مسجد نصرتيه الذي بناه السلطان محمود الثاني وسط معسكراته بطوبخانة عام ١٨٢٦. وقد تأثر المهندس بالفن الأوروبي وبالذات الطراز الأمبراطوري الذي كان سائداً في أوروبا. ومع هذا فالمسجد يشبه مسجد نور عثمانية إلى حد كبير ولكنه يتميز بمجموعة من الخطوط الجميلة للخطاط مصطفى راقم أفندي.



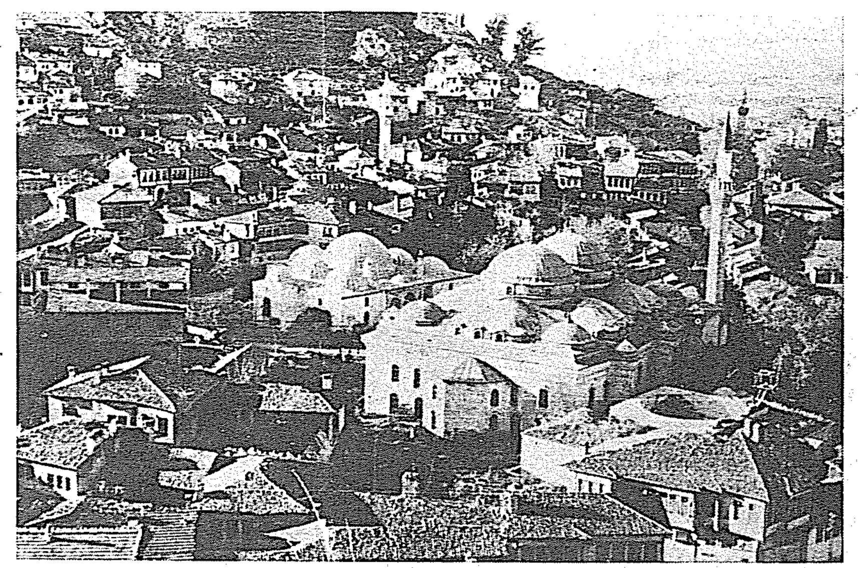
استانبول: المسجد الجديد (يني جامع) الذي تم بناؤه فيما بين عامي ١٦٦١ و١٦٦٣ م على يد المهندس مصطفى آغا بتكليف من الملكة الأم تورخان سلطان. وذلك بعد أن توقف العمل به منذ سنة ١٦٠٣، ويبلغ قطر القبة ٣٥ متراً وارتفاعها ٣٦ متراً . وللمسجد مئذنتان ولكل واحدة ثلاثة مطافات للمؤذن. وهناك ٢٥ قبة صغيرة بالإضافة إلى القبة الرئيسية.... ويتميز المسجد بزخارفه الداخلية العديدة.... ويضم المجمع بالإضافة إلى المسجد مدرسة أولية وداراً لتحفيظ القرآن ، وضريح تورخان سلطان و ٨٦ دكاناً والسوق المصرية وسبيلاً للشراب. وكان المجمع محاطاً بالأسوار ثم أضيف إليها حمام كبير واستراحة سلطانية ملاصقة لجدران المسجد ومتصلة بمقصورته، وتطل على بحر مرمرة والقرن الذهبي معاً.



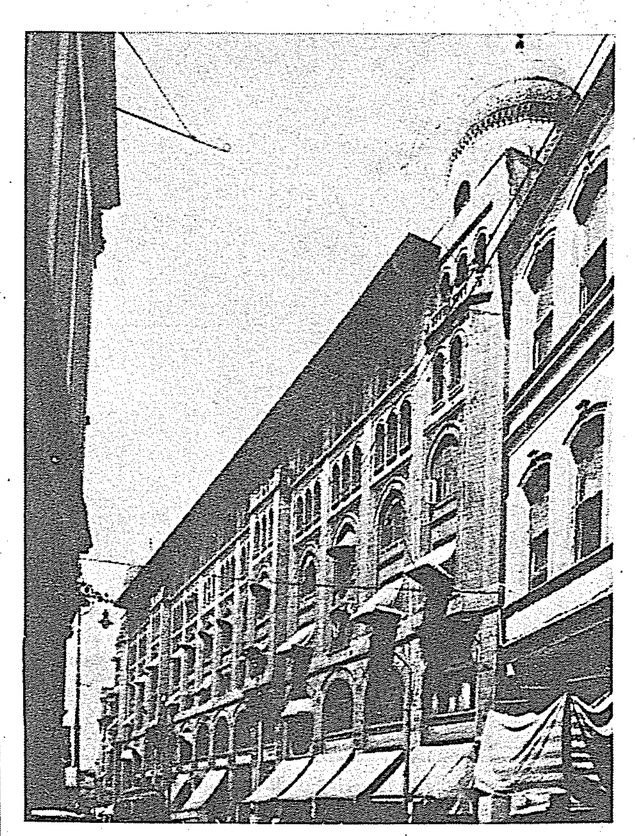
استانبول: مسجد نور عثمانية الذي أمر بإقامته السلطان محمود الأول عام ١٧٤٨ وانتهى بناؤه في زمن السلطان عثمان الثالث عام ١٧٥٥. وقد تأثر المهندس بالتيارات الوافدة من أوروبا في مجالي التخطيط المعماري والزخرفة. وقد أمر السلطان محمود مهندسه درويش أفندي أن يقيم مسجداً كبيراً بقبة واحدة لا أعمدة لها.. ولهذا فالقبة تحملها أربعة عقود كبيرة مدعمة بأبراج ركنية ويتم الصعود إلى المسجد بسلم له ١١ درجة. وللمسجد مئذنتان.. والمسجد كله مغطى بالرخام ويشمل المجمع مدرسة ومكتبة ودار مرق و ١٤٢ دكاناً.



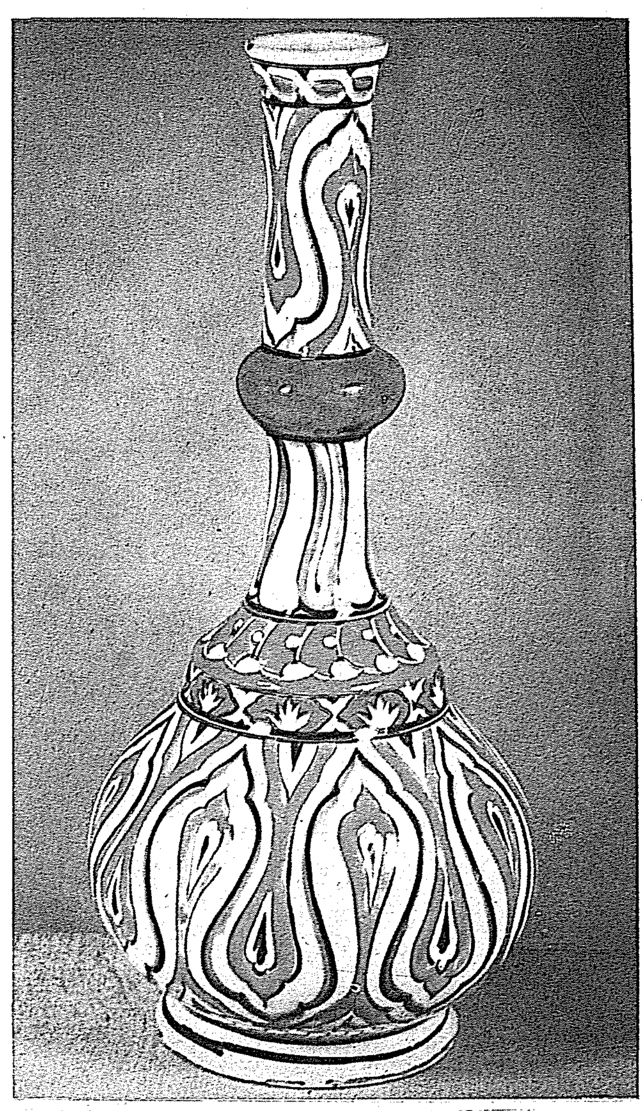
استانبول، اسكدار، مسجد الوالدة الجديد، (من الداخل) الذي تم بناؤه بأمر من والدة السلطان أحمد الثالث كولنوش سلطان فيما بين ١٧٠٨ و ١٧١٠ م. وهو يشبه في تكوينه مسجد رستم باشا إلا أنه أقل روعة.



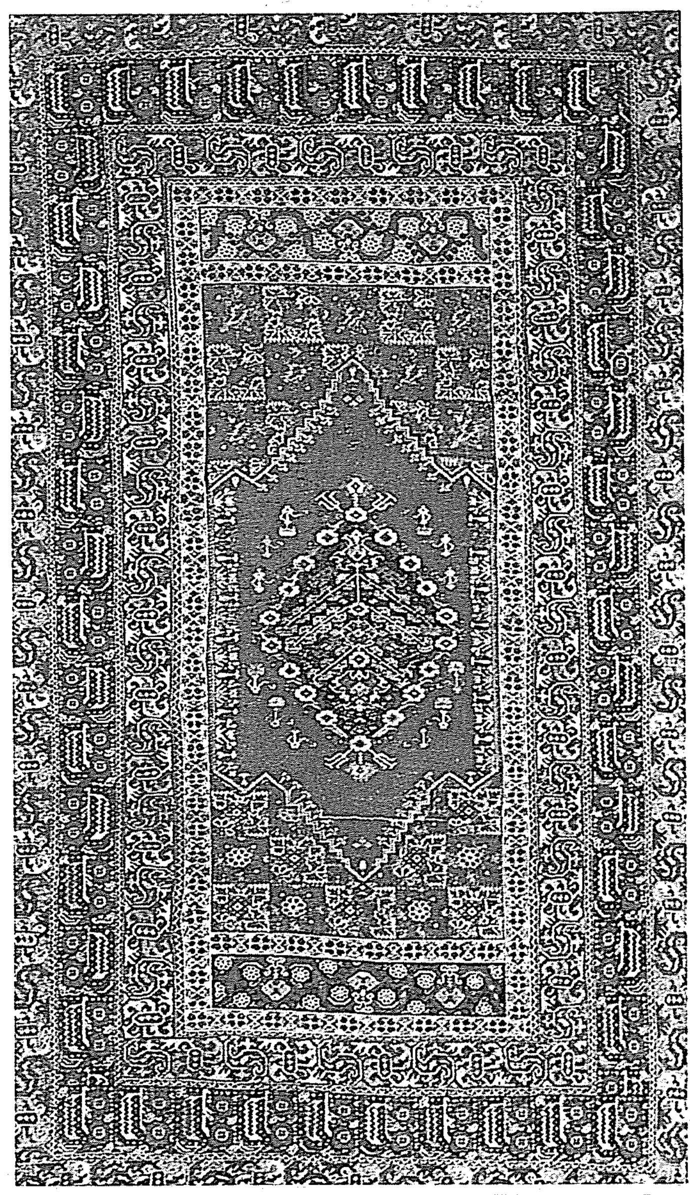
مدينة كوتاهية: الجامع الكبير في الوسط، ودار المرق خلف الجامع والمدرسة الوجدية والقبة.



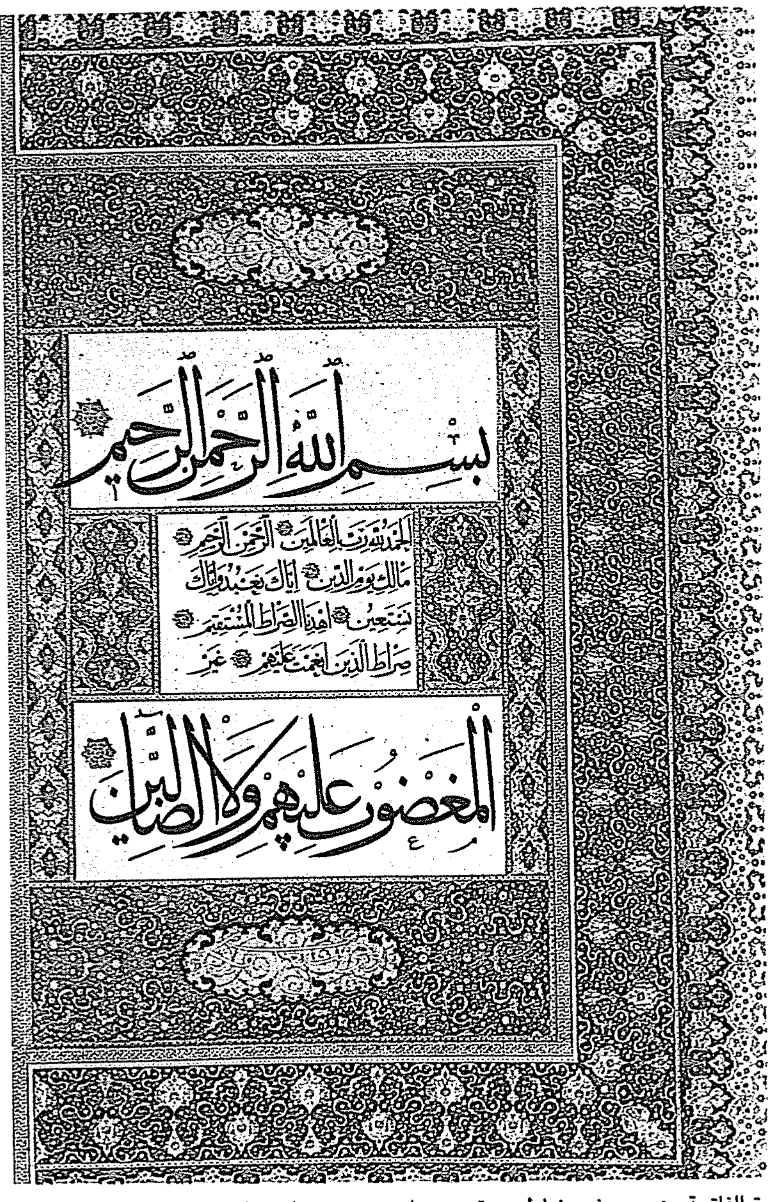
استانبول: خان الوقف الرابع الذي أنشأه السلطان عبد الحميد الأول. ويشمل وقفاً كبيراً ومسجداً وداراً للمرق وسبيلاً وضريحاً وصفاً من الدكاكين.



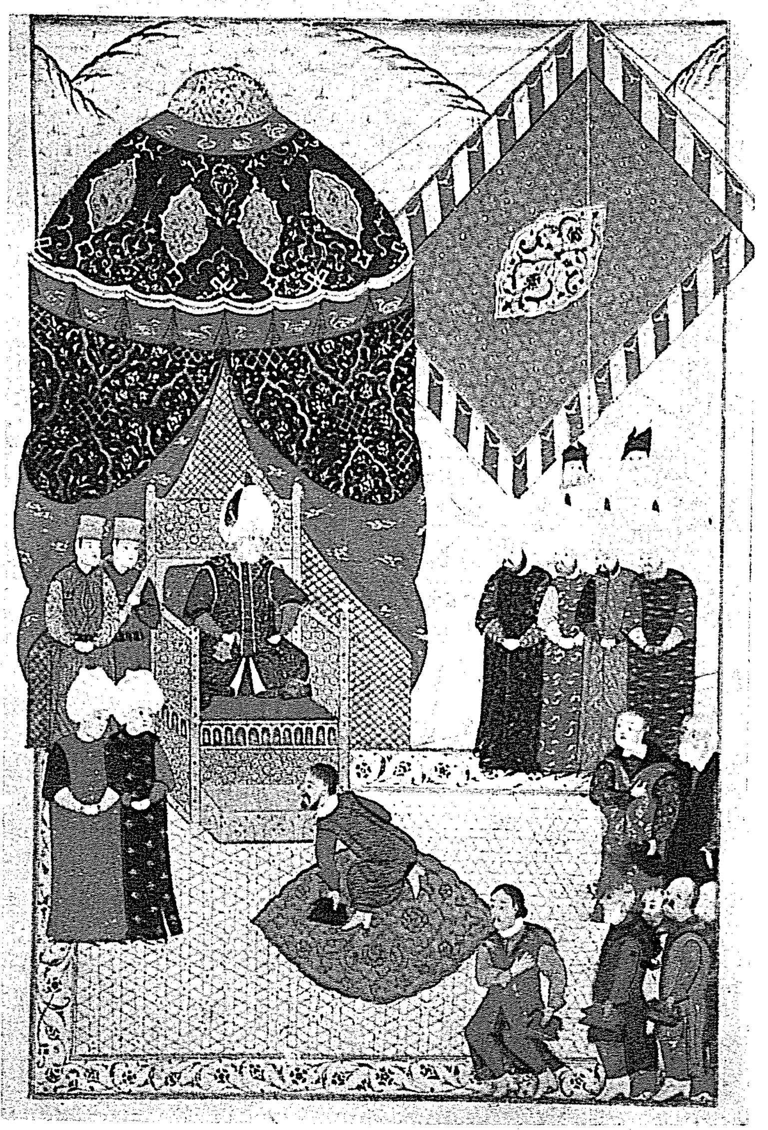
قنينة مس مدينة أزنيق، وتبدو فيها التصميمات الرائعة. وكانت مدينة أزنيق ومدينة كوتاهية تتنافسان في صناعة الأواني الفخارية الجميلة. وقد بلغ الفخار الأزنيقي قمة تطوره في أواخر القرن السادس عشر الميلادي. وشاعت في هذا العهد الدوارق الفخارية ذات الأعناق الطويلة والتصميمات المتعددة وتداخل اللون الأبيض مع اللون الأحمر المرجاني كما في الصورة أعلاه (من كتاب فنون الترك وعمائرهم).



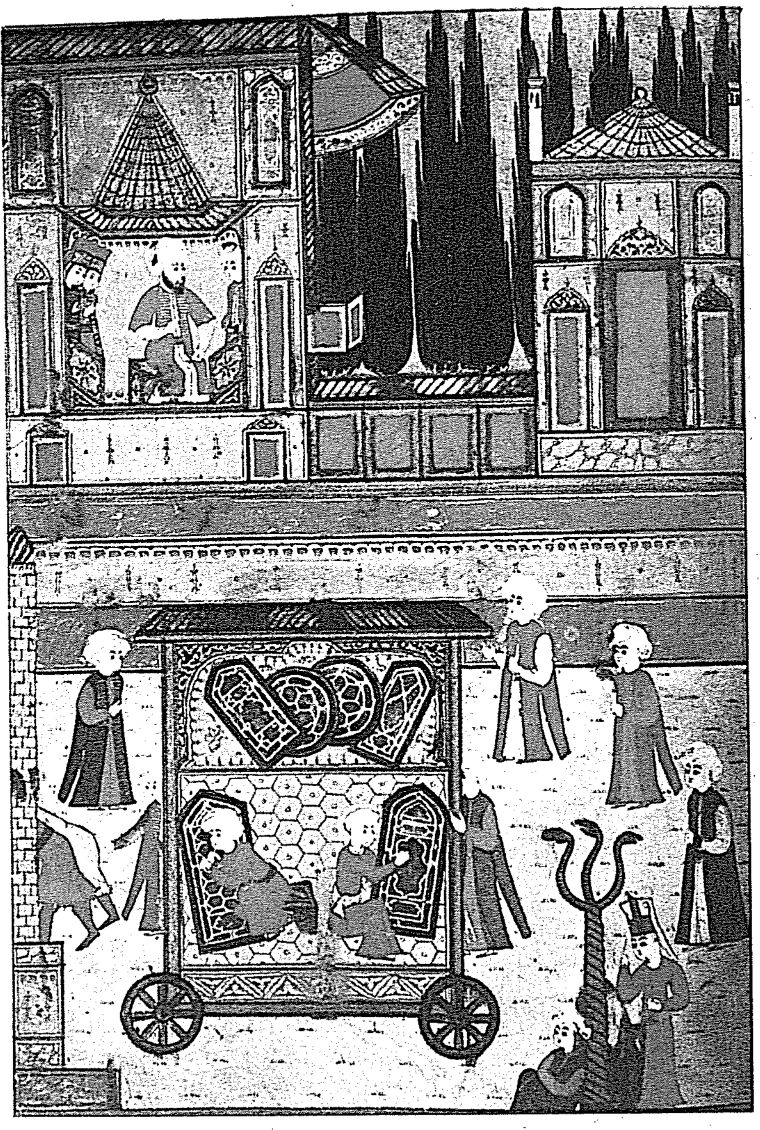
سجادة أثرية جميلة من القرن الثامن عشر الميلادي، موجودة في متحف جلال الدين الرومي بمدينة قونية وكانت هذه السجاجيد الفاخرة ضمن جهاز كل عروس. ولذا كانت تدعى عذراء كوردوس (نسبة إلى مدينة كوردوس) وتتميز بأنها ذات محرابين أعلى وأسفل.



سورة الفاتحة من مصحف بخط أحمد قره حصاري، بمتحف طوب قابي باستانبول. والمصحف مذهب وعليه نمنمات ووشي جميل... وقد طور أحمد قره حصاري خط الجلي. وهو الذي قام بكتابة الآيات بجامع السليمانية باستانبول.. وهذه الصفحة من المصحف الشريف الذي كتبه أحمد قره حصاري تدل على مهارته في الخط. وقد قدم هذا المصحف للسلطان سليمان القانوني. وكانت وفاة هذا الخطاط سنة ١٥٥٦ بعد أن بلغ تسعين عاماً.

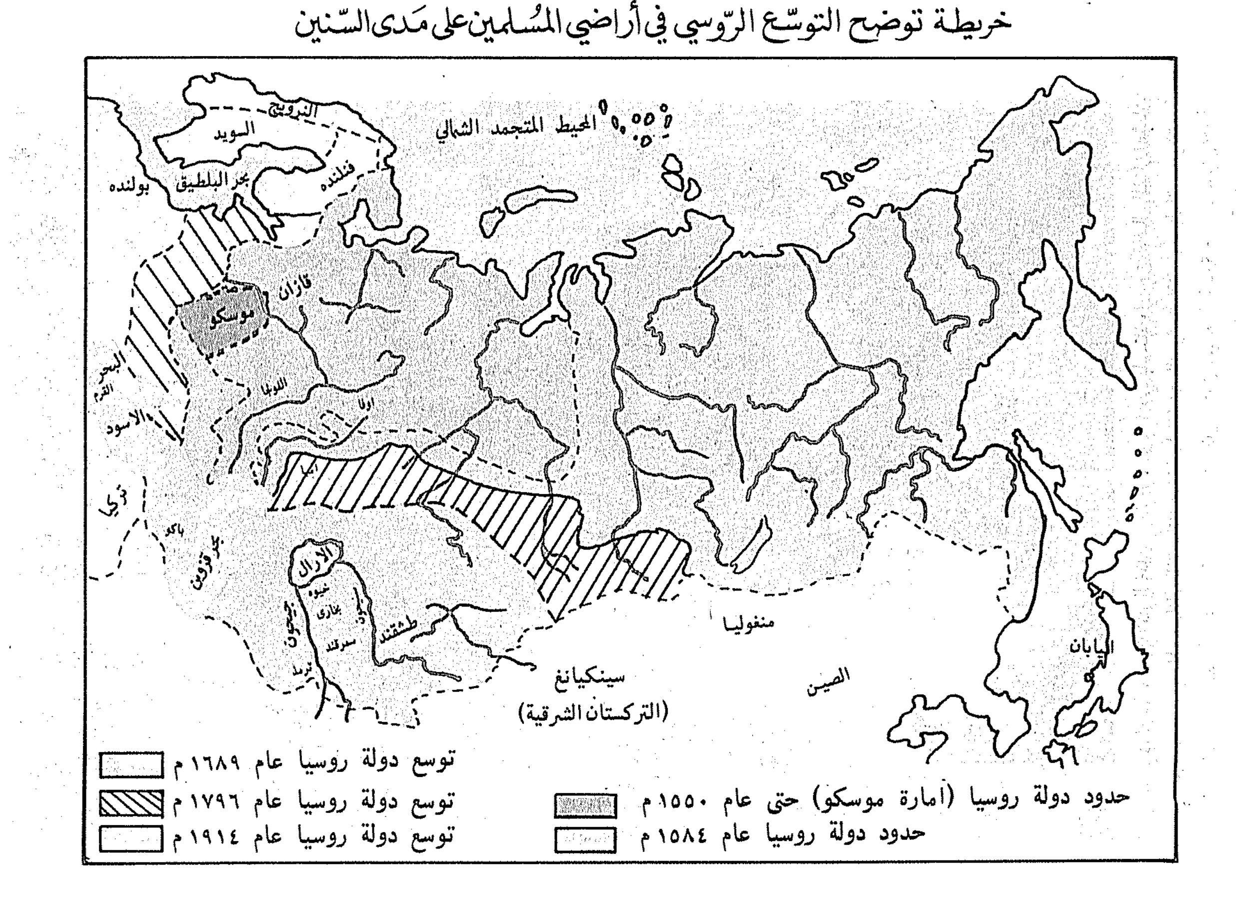


السلطان سليمان القانوني وفي حضرته الملك أردل من مخطوطة (نـزهة الأخبـار) بمتحف طوبقابي باستانبول من أعمال الفنـان حيدر رئيس المشهـور باسم «نيكـاري» المتوفى عـام ١٥٧٣ م-ونرى ها هنا الملك الأوروبي أردل خاضعاً إلى الأرض والسلطان سليمان القانوني جالساً على عرشه وعلى جوانبه تظهر الحاشية.. وامرأتان تطلان من نافذتين لتشهدا حفـل حضور الملك أردل.



الزجاجون في لوحة «احتفالات الختان» بمتحف طوب قابي باستانبول. من أعمال الفنان عثمان الذي قام برسم صور المهرجانات التي كانت تقيمها نقابات الحرفيين لإظهار مهاراتهم، وخاصة تلك التي تقام بمناسبة أعياد الختان، إذ إن الختان يكون لمجموعة كبيرة من الصبيان في آن واحد.. وفي هذه اللوحة ركز الفنان عثمان على الزجاجين وهم يقومون بصناعة الزجاج بينما توضح خلفية المنظر قصر إبراهيم باشا مع مقاصير للسلطان.

خريطة توضح التوسّع الرّوسي في أراضي المسُلمين على مَدى السّنين



آسيا الوسطى تحت براثن الدب الروسي
التركستان الغربية*

الحمد لك ربي أنت المعز المذل الخافض الرافع مالك الملك يا من «تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير أنك على كل شيء قدير»، فكم من أمم قد رفعت وكم من أمم قد خفضت.. ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد. وإنما هي سنن كونية وقوانين طبيعية إذا أخذت بها أمة ارتقت وعزت وإذا خالفتها ذلت وهانت «سنة الله في الـذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا».

بالأمس كان المسلمون أعزة يحكمون العالم ويسيطرون على الدنيا فخالفوا أوامر ربهم وتناسوا تعاليم دينهم فتباغضوا وتحاسدوا وتدابروا وتقاطعوا وتنازعوا والله تعالى يقول: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم).. وأصابتهم الحالقة التي تحلق الدين وهي البغضاء والحسد واضاعوا الصلوات وأتبعوا الشهوات وغرقـوا في الملذات فكان نتيجة ذلك أن تداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها وأصبحوا غثاء كغثاء السيل لأنهم قد أصيبوا بالوهن وحب الدنيا وكراهية الموت.

بالأمس ضاعت الأندلس ثم ضاعت تلك الأراضي الشاسعة الواسعة الممتدة التي حكمها المسلمون على طول ضفاف نهر الفولجا

---

* محاضرة ألقيت في النادي الأدبي الثقافي بجدة، ٢٢ ربيع الثاني ١٤٠٥ هـ.

من قـازان القريبـة من موسكـو حتى استراخـان على بحـر الخزر (ويسمى أيضاً بحر قزوين وبحر الديلم وبحر باكو) ثم ضـاعت بعدها جبال الأورال وسهولها وتبعتها جبال القفقاس ووديـانها. . وضاعت القرم. . وتوالت الهزائم وتوسع الروس الذين وصفهم لنا ابن فضلان وابن رسته والمسعودي وابن بطوطه بأنهم (أمة همجية شقر الشعور زرق العيون قباح الوجوه أهل غدر وأقذر الأمم قاطبة) في أراضي المسلمين واحتلوا سهوب قازاخستان. . وزحفـوا شرقاً وغرباً وجنوباً حتى احتلوا جميع مناطق التركستان التي تزيد مساحتها على اربعة ملايين كيلو متر مربع (ضعف مساحة المملكة العـربية السعودية تقريباً) في حملات متتالية بدأها ايفان الثالث (جد ايفان الرهيب) عندما حمل لواء الصليبية من البابا سنة ١٤٨٠م (٨٨٥هـ) معلناً بذلك انتهاء سيطرة التتار المسلمين على موسكو التي دامت ٢٤٠ عاماً. . والتي كانت إمارة موسكو الصغـيرة بموجبهـا تدفـع لسلطان قازان الجزية ولا ينصب أميرهـا إلا بعد مـوافقة سلطان قازان. وبهزيمة أحمد خـان سلطان قازان لأول مـرة عام ١٤٨٠م خرجت إمارة موسكو عن سيطرة المسلمين. . وعندما أعتلى ايفان الرابع المشهور بايفان الرهيب عرش إمارة موسكو عقد العزم على تنفيذ تعاليم البابا باشعال حرب صليبية ضد المحمديين كما كـان يسميهم واستطاع ايفان الـرهيب أن يكتسح قـازان سنة ١٥٥٢م (٩٦٠هـ) ومنها انطلق على طول نهر الفولجا يحتل مراكز المسلمين الهامة على طول ضفاف النهر مثل الكفا والبلغار والسرا التي وصفها ابن بطوطة في رحلته بقوله: «ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية في الكبر في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة، حسنة الأسواق متسعة الشوارع. . وفيها ثلاثة عشر مسجداً لاقامة الجمعة أحدها

للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثير»، ثم وصف علماءها وقاضيها وسلطانها محمد اوزبك أحد حكام الدنيا السبعة آنذاك والذي كان يقعد بين يدي الإمام الفقيه نعمان الدين الخوارزمي بكل تواضع والشيخ يقرّعهُ ويغلظ له الكلام ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر.

واستطاع ايڤان في غضون خمس سنوات أن يحتل نهر الفولجا باكمله ويصل إلى استراخان الواقعة على بحر قزوين.. (وعاصمة خانية استراخان) سنة ١٥٥٧م (٩٦٥هـ). واتجهت قوات ايڤان الرهيب بعدها إلى بشكيريا التي كانت قد تحولت إلى الإسلام منذ قرنين من الزمان واحتل عاصمتها الجميلة مدينة أوفا الشهيرة بمساجدها وعلمائها.. ولم يكتف نهم ايڤان الرهيب بذلك بل احتل أيضاً الأراضي التي كان يسكنها الفلنديون من الموردوف والادمورت والماري والجوفاش الذين دخلوا في الإسلام حديثاً.

وكانت سياسة ايڤان الرهيب تجاه المسلمين في هذه المناطق الواسعة الشاسعة تتلخص فيما يلي كما يقول بنيجسن ولومرسيه مؤلفا «كتاب المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفييتي» «بالنسبة للأشراف المسلمين والأمراء أما أن يرتدوا إلى المسيحية أو الطرد من وطنهم والخراب الاقتصادي الكامل أو التصفية الجسدية لمن يبدي أقل مقاومة. وأما الجماهير المسلمة فقد اخضعت للصهر الديني، فمنذ عام ١٥٥٥م (٩٦٣هـ) اعتمدت سياسة ردة بالقوة. وكان المرتدون (ستارو كرياشين) يتمتعون بوضع شرعي مماثل لرعايا القيصر وعومل الدين الإسلامي بكل قسوة وهدمت الجوامع وطرد رجال الملا (علماء الدين) من المدن وصودرت الأوقاف الإسلامية وألغيت الكتابة بالحرف العربي واختطف أطفال المسلمين إلى

المدارس التبشيرية وأُجبروا على تعلم المسيحية منذ الصغر وعلى تغيير أسمائهم».

وارتد بذلك مئات الآلاف وعرفوا باسم (ستارو كرياشين) ومع هذا فقد بقي الكثير منهم يخفون اسلامهم سراً وعندما سمحت القوانين لأول مرة بشيء من الحرية الدينية أعلن مائة ألف منهم إسلامهم وذلك سنة ١٩٠٥م. وفي عهد ايڤان الرهيب اجتازت القوات الروسية جبال الأورال وهدموا ثالث دولة تترية إسلامية وهي خانية سيبيريا سنة ١٥٨٠ م (٩٨٨هـ). ورفض سلطانها كوتشم (كوجم) خان الاستسلام وقال قولته الشهيرة عندما عرض عليه ايڤان الاستسلام مع حفظ أمواله الخاصة: «لا أقبل عيش الأسير ولا موت الذليل ولست أحزن لفقد أملاكي وإنما حزني من أجل أولئك التعساء الذين وقعوا تحت الاستعباد الروسي».. ثم قاتل حتى استشهد..

واستمرت سياسة ايڤان الرهيب في عهد خلفائه وخاصة من أسرة رومانوف التي امتد حكمها من سنة ١٦١٣م (١٠٢٢هـ) حتى سنة ١٩١٧ (١٣٣٦هـ).. ثم استمرت بصورة أشد وأعتى منذ قيام الثورة البلشفية في عهد لينين حتى يومنا هذا.

لقد بدأ بطرس الذي لقبوه بالعظيم والذي حكم من سنة ١٦٨٢ حتى ١٧٢٥م (١٠٩٢ - ١١٣٨هـ) سياسة الوصول إلى المياه الدافئة. واتجه جنوباً صوب آزوف الواقعة شمال البحر الأسود والتابعة للخلافة العثمانية آنذاك واحتلها سنة ١٦٩٦م (١١٠٨هـ) ولكن الدولة العثمانية استطاعت استعادتها منه سنة ١٧٠٠م (١١١٢هـ).

وبدأ بطرس محاولة الاستيلاء على القوقاس الذي فتحه المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه عندما دخل حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ وعبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر إلى أذربيجان. ثم تتالت الفتوح في عهد عمر رضي الله عنه وفتح عياض بن غُنم وحبيب بن مسلمة وعتبة بن فرقد السلمى الأراضي المعروفة الآن باسم داغستان وجورجيا وأذربيجان وأرمينية وتم فتح تفليس وخلاط وأرجيش وباب الأبواب (دربند) في فترة وجيزة جداً. . ولم تأت سنة ٢٤ هـ حتى كانت هذه البلاد جميعاً قد خضعت للحكم الإسلامي.

ولم تستطع قوات بطرس ابتلاع القوقاس بسهولة بل استعصت عليه وعلى خلفائه واستمر القتال على مدى أكثر من قرن من الزمن فقد بدأ غزو القوقاس سنة ١٧٢٢م (١١٣٥هـ) ولم ينته إلا بالقضاء على المقاومة الباسلة التي أظهرها رجال القوقاس الأشداء والتي كان يقودها مشايخ الطرق الصوفية من أمثال الإمام محمد الكمراوي قاضي الداغستان والذي تلقب باسم الغازي محمد ثم تلميذه الأمير حمزة الخنزاجي ثم الإمام محمد شامل الكمراوي صاحب أطول ملحمة بطولية في القوقاس والتي انتهت بسقوطه أسيراً عام ١٨٥٩م (١٢٧٦هـ) ومغادرته أرض الداغستان إلى تركيا ومنها إلى المدينة المنورة حيث مات فيها ودفن في بقيعها عام ١٨٧١م (١٢٨٩هـ). وفي عهد الامبراطورة حنة التي خلفت بطرس اشتد الأذى على المسلمين وصودرت الأوقاف وأقفلت جميع المساجد هناك. وفي عهدها الذي استمر من عام ١٧٣٨م إلى عام ١٧٥٥م (١١٥١ - ١١٦٩هـ) تحول مئات الآلاف من التتار قسراً إلى

المسيحية وأُعفيَ المرتدون عن الإسلام من الضرائب ومن الخدمة العسكرية وعوملوا معاملة حسنة حتى يغروا بقية المسلمين أن يحذوا حذوهم. . وفي ذات الوقت زاد الضغط على المسلمين وأُقفلت جميع مدارسهم ومساجدهم واختطف أطفالهم بالقوة لينشأوا على النصرانية الأرثوذكسية. . وامتدت المدارس التبشيرية من قازان إلى استراخان. أما المسلم الذي كان يدعو للإسلام حتى بين إخوته فقد كان جزاؤه الاعدام كما يقول بنجسن ولومرسييه في كتابهما «المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفييتي».

وفي عهد كاثرين (١٧٦٢ - ١٧٩٦م (١١٧٦ - ١٢١١)هـ) استولى الروس على بعض المناطق الإسلامية في القوقاس وسقطت خانية القرم الإسلامية التترية لأول مرة بيد القوات الروسية، ورغم أن عهد كاثرين يعتبر من أكثر العهود تسامحاً مع المسلمين فقد سمحت للتتار المسلمين ببناء مساجدهم ومدارسهم ومنعت سياسة اختطاف الأطفال إلا أنها قامت بمصادرة أخصب أراضي المسلمين في القرم وأعطتها لعشاقها المفضلين بوتمكين، وبولجاكوف وزوبوف وزوتوف واليوناني كاتشيوني. .

ويقال إن سبب استسلام القائد التركي المسئول عن القرم جاء بعد مفاوضات بينه وبين كاثرين في خيمة خاصة استمرت طوال الليل دون وجود أي من معاونيهما. وقد أدى ذلك فيما بعد إلى اعدام القائد التركي عندما وصل إلى عاصمة الخلافة استانبول جزاء خيانته.

وشهد عهد كاثرين وخلفائها نيقولا الأول ١٨٢٥ - ١٨٥٥م (١٢٤١ - ١٢٧٢هـ) واسكندر الثاني ١٨٥٥ - ١٨٨١م (١٢٧٢ - ١٢٩٩هـ) أضخم التوسعات في أراضي المسلمين. .

وتقول المصادر الرسَمية السوفييتية نقلاً عن كتاب: The Soviet Union And Moslem World «لقد قامت الحكومات القيصرية بمصادرة أخصب أراضي المسلمين في قازان وعلى طول نهر الفولجا والقرم والتركستان والأورال وقازاخستان. وفي خلال القرنين السابقين لثورة اكتوبر (١٩١٧) صادرت حكومات القياصرة المتعاقبة ٤١،٦٧٥،٠٠٠ دياسين (ادياستين = ٢،٧ فدان) أي اكثر من مائة مليون فدان من الأراضي الزراعية الخصبة» (١).

ولم تكتف الحكومات الروسية المتعاقبة بمصادرة أراضي المسلمين وطردهم منها بل قامت أيضاً بمصادرة جميع أملاك الأوقاف الإسلامية التي كانت كبيرة جداً والتي كان ينفق منها على المساجد والمدارس الإسلامية وأعمال الخير.

ونتيجة لهذه الاضطهادات المستمرة التي عاناها المسلمون تجذُّر مفهوم الدين لدى هؤلاء التتار والترك وأصبح الإسلام مرادفاً للقومية.. وأصبح الدفاع عن الدين هو الدفاع عن هوية الأمة كما يقول بنجسن ولومرسييه.

ورغم أن مئات الآلاف من المسلمين قد أجبروا على التنصر والارتداد عن الإسلام وكان المرتدون القدامى (أي منذ عهد ايفان) يعرفون باسم ستارو كرياشين والمرتدون الجدد يعرفون باسم نوفو كرياشين.. إلا أن كثيراً من هؤلاء أبقوا على جذوة الإسلام في قلوبهم سراً على مدى ثلاثة قرون.. وعندما سمحت الدولة (البرلمان الروسي) سنة ١٩٠٥ بالحرية الدينية أعلن مائة الف من

Spectov I : the Soviet Union and the Moslim world (1917-1958). (1) Seatle, University Washington press.

الاستارو كرياشين تحولهم إلى الإسلام كما أعلن ثلاثمائة ألف من النوفو كرياشين عودتهم إلى الإسلام أيضاً.

وقامت نهضة إسلامية قوية في قازان وأوفا.. وفي بداية القرن العشرين كان في مدينة أوفا وحدها ١٥٥٥ مسجداً و٦٢٢٠ مدرسة إسلامية.. وفي قازان كانت هناك جامعة إسلامية تضم أكثر من سبعة آلاف طالب ومطبعة إسلامية طبعت ٢٥٠ كتاباً عام ١٩٠٢م كما كان بها مكتبة يرتادها أكثر من عشرين الف قارىء سنوياً.

وكما يقول بنيجسن ولومرسييه «ما أن أقبل عام ١٩٠٥م (١٣٢٣هـ) حتى بلغ المستوى الثقافي لمسلمي تتاريا وبشكيريا في روسيا درجة عالية.. وذلك بفضل الجهود التي بذلها المصلحون من هؤلاء التتار من أمثال شهاب الدين مردجاني وعبد القيوم ناصري وموسى جاد الله بيجي والقرمي التتاري اسماعيل غبرالي الذي اوجد دورية من أعظم الدوريات في العالم الإسلامي تسمى الترجمان والتي كانت تكتب باللغة التركية المبسطة وبالحرف العربي.

وأصبحت مدن قازان وأوفا واورنبرغ وترويتسك وبغتشيساري وباكو مراكز ثقافية وفكرية جديرة بأن تكون ندا لدمشق وبيروت والقاهرة واسطمبول.»

وتعتبر هذه الفترة هي الفترة الذهبية في حياة المسلمين في القرون الأربعة الأخيرة ورغم أن قانون ١٩٠٥م أعطى جميع الشعوب الموجودة في روسيا القيصرية الحرية الدينية إلا أن الحكومة الروسية عندما رأت اندفاع الإسلام وهو يعيد المرتدين إلى حياض الإسلام ويفتح آفاقا جديدة بقوة وفعالية أذهلت الروس قامت بحل

البرلمان الروسي (الدوما) وتعديل قانون الانتخاب بحيث يقل عدد الممثلين المسلمين من ٣٥ شخصاً في الدوما الثاني إلى ستة أشخاص فقط في الدوما الثالث (١٩٠٧م) وأصدر رئيس الوزراء ستولبينين سنة ١٩١٠م (١٣٢٥هـ) منشوراً يوضح فيه سياسة روسيا القيصرية تجاه المسلمين في أحسن فترة مرت بالمسلمين منذ أن افتتح أراضيهم ايڤان الرهيب. وقد جاء في هذا المنشور ما يلي:

« إن الصراع القائم بين العالمين المسيحي والإسلامي لم ينشأ لسبب ديني فقط بل علينا أن ندرك أنه صراع له طبيعة ثقافية وسياسية وهنا يكمن بالتأكيد السر في النجاح الذي أحرزته الدعوة الإسلامية في الآونة الأخيرة. وأن لنجاح هذه الدعوة في وطننا روسيا لخطورة كبرى».

ورغم أن قانون ١٩٠٥م سمح للمسلمين بتكوين أحزاب سياسية مثل بقية فئات المجتمع الروسي، إلا أن وزير الداخلية أرسل في عام ١٩٠٦م .. تقريراً إلى مجلس الوزراء يحذر فيه من اعطاء المسلمين حقوقهم الثقافية والسياسية وأمر بالقاء القبض على دعاة هذه الحركات باعتبارهم خارجين على القانون وعملاء لدولة الخلافة العثمانية. وفعلاً قامت السلطات بتصفية جميع الاحزاب الإسلامية التي تكونت عام ١٩٠٥و ١٩٠٦م مثل حزب الاتفاق الإسلامي وحزب مليّ فرقة وحزب تانغ تشيلار (أي نجمة الصباح)..

وكان التنافس بين الدول الأوروبية على اقتسام ثروات العالم الإسلامي واستعماره كبيراً بلغ أحياناً حد الحروب السافرة إلا أن هذه الدول كانت كثيراً ما تجتمع في لندن وباريس أو برلين أو سان

استفانو للاتفاق على تقسيم الغنائم التي لم تكن سوى أرض المسلمين.

وقد عبر لورد كرزون وزير خارجية بريطانيا في أول القرن العشرين بصراحة عن هذه السياسة عندما قال: «إن تركستان وأفغانستان وإيران تمثل لدى بعض الأوروبيين سحر الشرق أما بالنسبة لي فلا تعدو أن تكون أحجاراً على رقعة الشطرنج ألعبها بمهارة مع الدب الروسي»

وكانت عهود الدول الأوروبية مع الدول الإسلامية لا تساوي قيمة الورق الذي كانت تكتب عليه عندما تحين أول بادرة للغدر وأول فرصة للخيانة.

ومن ذلك عهود بريطانيا مع شاه إيران لمحاربة نيقولا الأول، قيصر روسيا، فلما دخلت ايران الحرب تخلت عنها وتركتها لقوات روسيا الأكثر عدداً والأحسن عدة وسقطت بذلك المناطق الواقعة شمال نهر الرس (اراكس) في يد روسيا وبذلك تمت سيطرة روسيا على كرجستان (جورجيا) وأرمينية وأريفان: واقليم أرّان (المعروف الآن باسم جمهورية اذربيجان الاشتراكية الفيدرالية السوفييتية) وذلك سنة ١٨٢٨م (١٢٤٤هـ).. ليس ذلك فحسب ولكن كان على إيران أن تدفع لروسيا تعويضاً مقداره ٣٦ مليون روبل وأن تتنازل عن أي مطالبة بالقوقاس..

وقامت الدول الأوروبية وعلى رأسها روسيا بتحريض اليونان للثورة ضد الدولة العثمانية، وفي عام ١٨٢٧م (١٢٤٣هـ) اجتمعت أساطيل أوروبا كلها لتدك الأسطول العثماني المصري في معركة نافارين.. وفي العام التالي كانت جيوش نقولا الأول امبراطور

روسيا تدك أبواب عاصمة الخلافة اسطمبول لتحوّلها مرة أخرى إلى القسطنطينية، عاصمة الأرثوذكسية المسيحية... والدولة العثمانية مشغولة بحروب متصلة في الشام ومصر والجزيرة العربية وشمال افريقيا في الوقت الذي كانت الدول الأوروبية تحكم الخناق على دولة الخلافة.

واتسعت بذلك أملاك الأمبراطورية الروسية واستولت روسيا على مصب نهر الدانوب وامتلكت الشواطئ الشمالية والشرقية والغربية للبحر الأسود الذي كان من قبل بحيرة إسلامية خالصة.

وفي مؤتمر لندن ١٨٤٠ م (١٢٥٦ هـ) اجتمعت روسيا وبريطانيا والنمسا وبروسيا (ألمانيا) واتفقت هذه الدول على تقسيم أراضي الدولة العثمانية التي أطلق عليها نقولا الأول لقب «رجل أوروبا المريض» واحتجت فرنسا على نسيانها في هذه القسمة فأشركوها في العام التالي ١٨٤١ م.

وتميزت أطماع نقولا الأول بالنهم الشديد لامتلاك عاصمة الخلافة إسطمبول مما أثار مخاوف منافسيه من الدول الأوروبية وخاصة بريطانيا وفرنسا اللتان اتفقتا على وضع حد لهذه المطامع التوسعية الرهيبة. وقامت حرب القرم المشهورة عام ١٨٥٣ م (١٢٧٠ هـ) واستمرت إلى عام ١٨٥٦ م (١٢٧٣ هـ) ووقف الإنجليز والفرنسيون إلى جانب تركيا لأول مرة. وما أن انتهت الحرب بانتصار تركيا وفرنسا وإنجلترا وانهزام روسيا حتى وقّعت معاهدة باريس التي كان الخاسر الوحيد فيها دولة الخلافة.

نعم لقد اتفق الصليبيون مرة أخرى على مائدة المفاوضات واقتطعت كل دولة منها جزءاً من أرض الخلافة!! ويا لها من مهزلة

تخرج فيها الدولة المنتصرة وهي تركيا وقد فقدت أراضيها للدولة المنهزمة وذلك بفضل أخلاص حلفائها بريطانيا وفرنسا. ويا له من أخلاص لا نزال نعاني منه في كل موقف حيث تقف الدول الغربية وعلى رأسها صديقتنا الولايات المتحدة مع إسرائيل وضد أصدقائها العرب!

واتجهت روسيا بعد حرب القرم إلى آسيا الوسطى بموافقة الدول الأوروبية الاستعمارية بعد أن تمّ تقسيم الغنائم وسمح للدب الروسي أن يحتل أرض البخاري والترمذي والخوارزمي وابن سينا والفارابي والبيروني والزمخشري.. وفي عام ١٨٦٥ م (١٢٨٢ هـ) احتلت جيوش نقولا الأول طشقند عاصمة إقليم الشاش الذي أخرج الإمام أبا بكر محمد بن علي القفال (الكبير) الشاشي وفخر الإسلام محمد بن أحمد بن الحسين الشاشي وأبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم الشاشي فقيه الحنفية في زمنه ومحمد بن علي بن حامد الشاشي شيخ الشافعية في عصره. وعبد الرحمن بن محمد الحذاقي الفارقي خطيب بلاط سيف الدولة.. ومحمد بن محمد بن الحسين الفارقي (نسبة إلى ميافارقين في إقليم الشاش) والمشهور باسم ابن نباتة الخطيب المشهور.. وفي عام ١٨٦٨ م (١٢٨٥ هـ) احتلت قوات نيقولا سمرقند عاصمة الأمبراطورية الضخمة التي أسسها تيمورلنك والتي حكمت موسكو ووارسو.. سمرقند التي فتحها المسلمون بقيادة سعيد ابن الخليفة الراشد عثمان ابن عفان سنة ٥٦ هـ والتي استشهد في معركة فتحها قثم بن العباس ابن عم رسول اللّه ﷺ.. والذي أقام له أهل سمرقند بعد إسلامهم مشهداً عظيماً أسموه مزار شاه زنده أي مزار السلطان الحي لأنّ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

ودنست أقدام الروس الغليظة النجسة أرض سمرقند التي وصفها ياقوت الحموي بقوله: «ليس في الأرض مدينة أنزه ولا أطيب ولا أحسن مستشرفاً من سمرقند» والتي وصفها الشاعر البستي[1] بقوله:

للناس في أخراهم جنة وجنة الدنيا سمرقند

سمرقند التي أنجبت مئات العلماء والأدباء نذكر منهم إمام الهدى أبا الليث نصر بن أحمد السمرقندي صاحب التصانيف الكثيرة مثل تنبيه الغافلين وبستان العارفين وخزائن الفقه وعيون المسائل وعمد العقائد. ومحمد بن عدي بن الفضل السمرقندي المحدث المعروف وشمس الدين السمرقندي الأديب الفيلسوف صاحب «آداب السمرقندي» ومحمد بن يوسف العلوي الحسيني السمرقندي صاحب الفقه النافع وجامع الفتاوى ورياضة الأخلاق ومصابيح السبل والطبيب المشهور نجيب الدين محمد بن علي السمرقندي صاحب النجيبيات في الطب وعشرات الكتب الطبية. والإمام أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي أحد أئمة علم العقائد والكلام.. والماتريدي والأشعري صنوان. والإمام عبد الرحمن بن الفضل الدارمي السمرقندي صاحب سنن الدرامي المشهورة.

وفي عام ١٨٧٣ (١٢٩٠ هـ) تحولت خانية بخاري ذات التاريخ المجيد إلى محمية روسية وبدأ خط الانحدار السريع للمدينة العريقة عاصمة ملك السامانيين والتي وصفها الثعالبي بقوله: «بخارى مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم الأرض وموسم فضلاء الدهر».

---

(١) البستي: نسبة إلى مدينة بست في أفغانستان.

بخارى التي فتحها المسلمون لأول مرة سنة ٥٤ هـ على يد عبيد اللّه بن زياد في عهد معاوية بن أبي سفيان.. بخارى التي اظهرت لنا الإمام أبا عبداللّه محمد بن إسماعيل البخاري إمام الأئمة في الحديث وصاحب الجامع الصحيح الذي اختاره من بين ستمائة ألف حديث والذي أجمعت الأمة على أنَّه أصح كتاب بعد كتاب اللّه.

بخارى التي أنجبت في عالم الطب أشهر أطباء الإسلام وأرفعهم ذكراً الشيخ الرئيس أبا علي الحسين بن عبدالله بن سينا، صاحب كتاب القانون في الطب الذي ظل يدرس في أوروبا لمدة سبعة قرون كاملة.. وصاحب أكثر من مائة مصنف في الطب والفلسفة والمنطق واللغة والأدب والآلهيات.. وصاحب العينية المشهورة التي مطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع

إلى أن يقول:

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ما ليس يدرك بالعيون الهجع

بخارى التي أنجبت الإمام أبا حفص البخاري الذي وصفه النرشخي بقوله: «لم يكن أحد مثله في الولاية وكان زاهداً عالماً وصارت بخارى بسببه قبة الإسلام».

بخارى التي أنجبت من لا يحصى كثرة من العلماء والتي كانت مدارسها العلمية الشهيرة تتيه على البلدان فخراً دنستها أقدام

الـروس وأصبحت محمية روسيـة ومـا هي إلاَّ أيـام حتى تصبح مستعمرة روسية.

وفي عام ١٨٧٤ م (١٢٩١ هـ) تحولت خانية خيوه إلى محمية روسية.. وسقطت بـذلك تلك الأرض التي عـرفت في التاريـخ الإسـلامي باسم خـوارزم والتي كان لهـا دور مجيـد في التـاريـخ الإسلامي وكان لعلماء خوارزم وتجارها ومشايخ الطرق الصوفية فيها دور عظيم في انتشار الإسلام فيما يعرف بالتركستان الشرقيـة إلى حدود الصين. وبفضل اللّه تعالى ثمّ بفضل جهود أهل خوارزم أسلم خاقان الترك الشرقيين ستوق بغراخان سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٤ م) وتبعـه في نفس العام أكـثر من مليون شخص تحـولـوا جميعـاً إلى الإسلام.

كما انتشر الإسلام أيضاً بفضل اللّه تعالى ثمّ بفضل التجار والدعاة إلى اللّه من أهل خوارزم على طول طريق الفولجا الذي عرف باسم طريق الفراء.

وقد ترك لنا العالم المؤرخ ابن فضلان وثيقة تـاريخية هـامة تصف رحلته التي قام بها عام ٣٠٩ هـ بأمر الخليفة العباسي المقتدر إلى بلاد البلغار على ضفاف نهر الفولجا استجابة لطلب ملك البلغار المسلم أُلمش بن يلطوار. وقد أرسل هذا الملك يطلب من الخليفة أن يمده بالعلماء والفقهاء والأطباء والمهندسين ليبنوا له استحكامات عسكرية ضد الأمة الهمجية الوثنية التي تدعى الروس.. والذين وصفهم ابن فضلان وابن رسته والمسعودي بقولهم: «أشرّ خلق اللّه شقر الأبدان صفر الشعور طوال القامات ضخام الأجسام يستهترون بـالخمـر، شـديـدو البـأس شجعـان.. وهم أقذر خلق اللّه لا

يستنجون من غائط ولا يغتسلون من جنابة كأنهم الحمر الضالة».

وكان لأهل خوارزم دولتهم المجيدة التي عرفت باسم خوارزمشاه.. والتي كان في بلاطها البيروني وفخر الدين الرازي.

ومن خوارزم نبغ كثير من الإعلام أشهرهم أبو الريحان محمد ابن أحمد البيروني الخوارزمي وبيرون ضاحية من ضواحي خوارزم ويعتبر البيروني أحد نوادر العقل البشري الذي شارك باقتدار في معظم العلوم المعروفة في عصره واشتهر بالفلك والرياضة والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والطب والصيدلة وكان يجيد العديد من اللغات ولكنه لم يكن يعشق سوى العربية التي كان يدافع عنها ويقول:

«ديننا والدولة عربيان وتوأمان ترفرف على أحدهما القوة الآلهية وعلى الآخر اليد السماوية» ويقول «الهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية».

وبلغت فهارس أسماء مصنفاته كما يقول ياقوت الحموي ستين ورقة.

ومن خوارزم ظهر محمد بن موسى الخوارزمي واضع علم الجبر والمقابلة ومبتكر حساب اللوغاريتمات، ولفظة لوغاريتم تحوير أوروبي لاسم الخوارزمي كما يفعل الأوروبيون دائماً فابن سينا أڤيسينا وابن شد أڤيريشتو.. وكان الخوارزمي أحد الذين أقاموا مرصد المأمون الشهير. ومن خوارزم ظهر الإمام الزمخشري: جار اللّه محمد بن عمر الزمخشري وزمخشر إحدى قرى خوارزم وأشهر كتبه الكشاف في التفسير وله عشرات الكتب في الأدب واللغة والنحو والشعر والعروض والجغرافيا، وله معجم عربي فارسي..

وواجهت مدينة خوقند في فرغانة حملات «جنكيز خان» الذي بعث من جديد في جيوش نيقولا الثاني وبعد مقاومة شعبية باسلة استمرت عاماً كاملاً قامت قوات القياصرة بدك المدينة بكاملها وإبادة سكانها عن بكرة أبيهم إلاّ من استطاع منهم الفرار. واغتصبت الفتيات المسلمات وامتهنت المقدسات وديست الكرامات وسويت مدينة خوقند الباسلة بالتراب.. وذلك سنة ١٨٦٦ م..

خوقند التي سكنها واستشهد فيها الإمام عبدالله بن علي زين العابدين بن الحسين السبط أخ الأمامين الجليلين زيد ومحمد الباقر.

وبالقرب من خوقند مدينة اسبيذ بولان التي يوجد فيها قبور «٢٧٠٠» من الصحابة والتابعين الذين استشهدوا في موقعة عندما بعثهم الخليفة الراشد عثمان بن عفان. وبالقرب منها أيضاً قبر فاتح بلاد ما وراء النهر قتيبة بن مسلم الباهلي (في رباط سرهنك) والذي يعرفه الأهالي باسم الإمام الشيخ قتيبة.

ومن فرغانة نبغ كثير من العلماء والمهندسين منهم أحمد بن كثير الفرغاني الذي أنشأ مقياساً جديداً لفيضان النيل في منيل الروضة بالقاهرة ومنهم علي بن أبي بكر الفرغاني الفقيه الحنفي وأحمد بن عبدالله الفرغاني المؤرخ.. وحسام الدين محمد بن محمد الأخسكيثي الفرغاني صاحب المنتخب الحسامي المشهور في أصول الفقه الحنفي.

وسقطت مرو وبهيق ونسا وسرخس بيد القوات الروسية في الحرب التركمانية التي امتدت من سنة ١٨٧٣ م (١٢٩٠ هـ) حتى عام ١٨٨٤ م (١٣٠٢ هـ) سقطت تلك المناطق الشاسعة التي كانت درة في تاج الأمة الإسلامية.. والتي فتحها المسلمون لأول مرة في

عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه سنة ٢٣ هـ..

ومرو الشاهجان هي عاصمة خراسان الذي وصفه الإمام النووي بقوله: «خراسان الأقليم العظيم المعروف موطن الكثير أو الأكثر من علماء المسلمين». والتي وصفها الإمام السبكي بقوله: «وخراسان عمدتها مدائن أربع كأنما هي قوائمها المبنية عليها وهي مرو (في تركستان حالياً) ونيسابور (في إيران) وبلخ وهراة (في شمال أفغانستان)، هذه هي مدائنها العظام ولا ملام عليك لو قلت بل هي مدن الإسلام، إذ هي كانت ديار العلم على اختلاف فنونه».

وفي مرو الشاهجان قبور مجموعة من الصحابة منهم الحكم ابن عمرو الغفاري أول من عبر نهر جيحون وفتح بلاد الصغانيان (في أوزبكستان حالياً)، وسليمان بن بريدة وبريدة بن الحصيب الأسلمي.

مرو التي أنجبت من الإعلام ما لا يحصى كثرة نذكر منهم الإمام المحدث الفقيه المجاهد الزاهد التاجر عبداللّه بن المبارك المروذي مولداً ونشأة الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً.. والذي كان ينفق على طلبته، وما أكثرهم، من ماله الخاص ويعم برفده وكرمه العام والخاص.

ومنها زميل ابن المبارك وصديقه العابد الزاهد المحدث الفضيل بن عياض.. وقد اشتهرت القصيدة التي بعثها ابن المبارك لصديقه الفضيل بن عياض يحثه على الجهاد والتي قال فيها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كـان يخضب خده بـدمـوعـه   فنحـورنـا بـدمـائنـا تتخضـب
أو كـان يتعب خيله في بـاطـل   فخيـولنـا يـوم الكـريهـة تتعب
ريـح العبير لكم ونحن عبـيرنـا   وهـج السنابـك والغبـار الأطيب

إلى أن يقول:

هـذا كتـاب الله ينـطق بيننـا   ليس الشهيـد بميت لا يكـذب

ومنها الإمام المحدث الثقة سفيان الثوري.. ومنها الإمام المحدث الفقيه الزاهد العابد المجاهد إمام المذهب أحمد بن حنبل الشيباني المروذي البغدادي.

ومنها الإمام إسحاق بن راهوية التميمي المروزي عالم خراسان وأحد أئمة علم الحديث، ومنها العابد الزاهد المحدث بشر بن الحارث الحافي المروزي. ومنها الإمام أبو بكر عبد الرحمن بن أحمد القفال المروزي المشهور بالقفال الصغير تمييزاً له عن القفال الشاسي.

ومن بيهق ظهر العديد من العلماء الإعلام أشهرهم الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي صاحب سنن البيهقي ودلائل النبوة وشعب الإيمان والذي بلغت مصنفاته زهاء ألف مصنف، والذي قال عنه الإمام الذهبي: «لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك».

ومن سرخس ظهر مئات العلماء المشهورين.. من أشهرهم شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسي صاحب كتاب المبسوط أحد أهم مراجع الفقه الحنفي والذي أملاه على طلبته وهو في السجن والطلبة يقفون تحت الشباك حتى أتمـهُ في ٣٠ جزءاً،

ومنها ابن الطيب السرخسي الفيلسوف المؤرخ المؤدب أستاذ الخليفة العباسي المعتضد، ومنها المحدث الحافظ عبيد الله بن سعيد السرخسي أستاذ الإمامين الجليلين البخاري ومسلم.

ومن نسا التي أصبحت إطلالاً على بعد خمسة كيلومترات من «اشخاباذ» ظهر الإمام أحمد بن شعيب النسائي صاحب السنن الكبرى وأحد الأمهات الست في الحديث.

وسقطت ترمذ التي فتحها موسى بن عبدالله بن خازم سنة ٧٠ هـ وتدنست أرض الإمام محمد بن عيسى الترمذي صاحب سنن الترمذي المشهورة. وأرض الحكيم محمد بن علي الترمذي.

وسقطت فاراب التي تقع اليوم في جمهورية قازاخستان والتي أنجبت الفيلسوف الحكيم الفلكي الرياضي الطبيب أعظم فلاسفة المسلمين والمعلم الثاني أبا نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي.. واللغوي صاحب كتاب الصحاح إسماعيل بن حماد الجوهري، وسقطت نسف أو نخشب التي ظهر منها العديد من العلماء الأفذاذ مثل الإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي المفسر الفقيه اللغوي صاحب مدارك التنزيل في التفسير والمنار في أصول الفقه وعمدة العقائد وأبو الفضل برهان الدين محمد بن محمد النسفي المفسر الأصولي المتكلم.. والحافظ عبد العزيز بن محمد بن عاصم النسفي المحدث.. وجعفر بن محمد المستغفري النسفي الفقيه المؤرخ المحدث.

وهكذا سقطت المناطق التي أخرجت لنا آلاف العلماء ومئات الأئمة مثل البخاري والترمذي والنسائي والسرخسي والبيهقي والنسفي والبيروني والفارابي والزمخشري، وواجهت هذه المناطق

حرب إبادة وحرب إذابة.. وتغيرت أسماء كثير من المدن واندثرت أخرى تحت الانقاض.

وفرض الروس لغتهم ومنعوا الكتابة بالحرف العربي وحولوه إلى الحرف الكيريلي الروسي. واكتمل استيلاء روسيا على التركستان بوصول قواتها إلى هضبة بامير سنة ١٩٠٠ م (١٣١٨ هـ) ومنذ ذلك الحين وضعت التركستان تحت إدارة عسكرية روسية بينما احتفظت خانية بخاري وخانية خيوة باستقلال ذاتي تحت الحماية الروسية والتي كانت تتصرف في الشئون السياسية والخارجية والدفاعية للبلاد.

وكانت سياسة روسيا تجاه التركستان كما يصفها بينجسن ولومرسيه: «يمكن تسمية السياسة العامة التي طبقت في التركستان استعمارية صرفة» وكتب كاوفمان أول حاكم عام على التركستان يقول: «على آسيا الوسطى ان تظل في حالة من التأخر والركود كما في القرون الوسطى الأمر الذي لا بد أن يمنع في هذا الاقليم أي امكانية للمقاومة الوطنية ضد الفاتحين».. وظل التركستانيون، كما يقول بيجسن ولومرسيه: «سليلو تاريخ مجيد خاضعين لسياسة تمييز عنصري وديني تذكّر بسياسة التمييز العنصري الحالية في اتحاد جنوب افريقيا»...

وأصبحت التركستان مرتعا خصبا للاستعمار الروسي الذي صودرت أراضيه لصالح المستعمرين الروس والذين أقاموا مزارع للقطن جعلت التركستان ثاني دولة في العالم منتجة للقطن وتأتي مباشرة بعد الولايات المتحدة.. كما ان بالتركستان ثروات معدنية هائلة جعلت الاتحاد السوفييتي الدولة الثانية في انتاج الذهب والفضة. وبالتركستان ثروة بترولية جيدة.. واذا اضيف البترول

التركستاني إلى البترول الذي تنتجه أراضي المسلمين في أذربيجان والقوقاس، فان ذلك «يجعل» الاتحاد السوفييتي أكبر منتج للبترول في العالم حيث بلغ الانتاج عام ٧٩ ـ ١٩٨٠م (١٢) مليون برميل يوميا.

كما ان انتاج التركستان من معدن الكروم جعل الاتحاد السوفييتي الدولة الأولى في العالم في انتاج الكروم ويدخل الكروم في صناعة الطائرات والأدوات الكهربائية.. وفي التركستان أيضاً ٤٦ منجما للحديد و٢٣ منجما للرصاص و٦٣ منجما للصوديوم و١٣ منجما للكبريت وكمية هائلة من الفحم وكمية جيدة من اليورانيوم.

أما التركستان الشرقية التي تحتلها الصين وتسميها سينكيانغ أي المستعمرة الجديدة وذات التاريخ المجيد في الاسلام والتي دخلت عاصمتها كاشغر آنذاك في الاسلام منذ ان فتحها قتيبة ابن مسلم الباهلي (في اواخر القرن الهجري الأول) فان ثرواتها الهائلة من القطن والبترول والذهب والفضة واليورانيوم تذهب للصين.. وسنترك الحديث عنها لآخر رئيس وزراء تركي مسلم يشرفنا الليلة بحضوره هو السيد عيسى البتكين.

وهكذا نرى ثروات العالم الاسلامي اما أن تذهب الى روسيا والصين أو الى امريكا وأوروبا، بينما يتضور العالم الاسلامي جوعا ويموت من المسبغة ملايين البشر في افريقيا.. ويتنصر الآلاف منهم في افريقيا واندونيسيا في مقابل حفنة من الأرز أو رغيف من الخبز تتصدق به عليهم المؤسسات الكنسية والهيئات التبشيرية.

ولم يكتف الروس بنهب ثروات البلاد والاستيلاء على أخصب الأراضي الزراعية حيث بلغ عدد الأراضي الاسلامية

الزراعية الخصبة المصادرة اكثر من مائة مليون فدان حسب ما يذكره كتاب الاتحاد السوفييتي والعالم الاسلامي لايفار سبكتور.. بل واجهوا حملات اذابة وإبادة استمرت أربعة قرون من الزمن، ومع هذا ورغم الإرهاب وحملات التعذيب وسياسة الإبادة الجماعية استطاع الإسلام أن يتجذر أكثر فأكثر لدى الشعوب التركية حتى قيام الثورة البلشفية.

ونتيجة للسياسة القيصرية الغاشمة قامت الثورات المتعاقبة في التركستان وفي جميع الأراضي التي خضعت للحكم الاستبدادي القيصري.. وفي التركستان قام الشيخ خليفة محمد بثورته العارمة سنة ١٨٨٥ م (١٣٠٥ هـ) ولكنها أخمدت بقسوة بالغة.. وقد سبق ثورة الشيخ خليفة محمد ست عشرة ثورة.. وكان قادة هذه الثورات المتلاحقة هم من علماء الدين والصوفية الذين قاموا بالثورات ضد الكافر الروسي على امتداد الأرض التي احتلها الروس من القوقاس غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

وفي عام ١٧٩١ م (١٢٠٦ هـ) هاجر عشرات الآلاف من القرميين.. وفي عام ١٩٠١ م (١٣١٩ هـ) اضطر خمسون ألف تتاري قرمي إلى الهجرة بسبب سياسة الترويس التي اتبعتها حكومة نيقولا الثاني لتتار القرم. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى امتلأت الشوارع في المدن التركية بالمهاجرين من القرم والقوقاس والذين عرفوا باسم المهاجرين الروس.

وفي قازاخستان امتلأت سهوب قازاخستان بالمستوطنين الروس (١٨٩١ - ١٨٩٢) وقاموا بطرد السكان من أراضيهم واستولوا على مراعيهم ومواشيهم.. وفي عشية الحرب العالمية

الأولى سنة ١٩١٤ كان عدد المستوطنين الروس قد بلغ أكثر من مليون.. مما أدى إلى ثورات القازاخ المتكررة.

وفي قرغيزيا التي احتلّها الروس سنة ١٨٦٦ م (١٢٨٤ هـ) أتّبع الروس سياسة استيطانية استعمارية شبيهة بسياسة إسرائيل في فلسطين.. وصادرت السلطات الروسية أخصب الأراضي في فرغانة وخوقند وما حولها وبحلول عام ١٩١٥ كان الروس قد أقاموا ثمانين مستوطنة مما أدى إلى قيام الثورات المتعددة وأشهرها ثورة عام ١٩١٦ م (١٣٣٥ هـ) حيث قمعتها السلطات الروسية القيصرية بقسوة بالغة وقتلت أكثر من ١٥٠،٠٠٠ قرغيزي.. وتبع ذلك مجاعة مات فيها مئات الآلاف.

وقد استطاعت سياسة الروس الاستعمارية الاستيطانية أن تبيد سكان شمال قيرغيزيا عن بكرة أبيهم.. ومن أفلت منهم وفرَّ إلى الصين كان مصيرة معسكرات الاعتقال الصينية وأعمال السخرة التي مات فيها الكثير.

وعند قيام الحرب العالمية الأولى كان في صفوف جيوش القيصر نيقولا الثاني مليون ونصف مليون من الجنود المسلمين الذين أجبروا على قتال إخوانهم الأتراك في حرب هدفها إزالة دولة تركيا من الوجود والاستيلاء على إسطمبول عاصمة الخلافة العثمانية وتحويلها إلى القسطنطينية عاصمة الأرثوذكسية المسيحية. وفي ٢٥ يونيه ١٩١٦ م (١٣٣٥ هـ) فرضت قوانين القيصر التجنيد الإجباري على جميع المسلمين من سن ١٩ إلى ٤٣ وفرض على التتار والقازاخ والأوزبك والتركمان واليغور القيام بأعمال السخرة في مؤخرة الجيوش الروسية مما أدى إلى قيام الثورة في آسيا الوسطى.

وفي سبتمبر ١٩١٦ قررت الحكومة القيصرية التصدي لهذه الثورة بأشد أنواع البطش والتنكيل وأعدمت عشرات الآلاف.. ورغم كل أساليب البطش البربرية إلاَّ أن توالي الأحداث جعل هذه الثورة تستمر حتى قيام الثورة الباسمشتيه أضخم الثورات وأطولها ضد الاستعمار الروسي والتي استمرت حتى عام ١٩٢٨ عندما استطاعت قوات لينين أخضاعها.

وقد أدت السياسة الاستبدادية الاستعمارية القيصرية إلى الثورات المتعددة في المناطق الإسلامية وعندما قامت الثورة البيضاء ضد القيصر في مارس ١٩١٧ قام مسلمو الأمبراطورية الروسية بمساندة الثورة أملاً منهم في أن تقوم حكومة كراينسكي بإنصافهم.

ووقف حزب «الآشي أوردا» القزاخي مع قوات روسيا البيضاء وكذلك فعلت قوات البشكير بقيادة زكي ڤيلدي طوقان الذي أسس أول دولة إسلامية في بشكيريا في العصر الحديث، وانضمّ أفراد الأنتليجنسيا في تتاريا والقرم والقوقاس والتركستان إلى مناصرة حكومة كراينسكي.

ولكنّ حكومة كراينسكي الليبرالية وقفت نفس موقف القيصر تجاه أماني المسلمين ورفضت أعطاءهم حقوقهم الدينية والمدنية.. وسرعان ما تحولت آمال المسلمين وأمانيهم إلى لينين الذي كان يصدر البيان تلو البيان ينادي المسلمين بالوقوف في صفه ويعدهم بحماية حقوقهم الدينية والمدنية بل يعدهم بالاستقلال.

وقد أصدر لينين أول بيان له إلى مسلمي روسيا والشرق في ٢٢ نوفمبر ١٩١٧ والذي جاء فيه:

«يا مسلمي روسيا يا مسلمي الشرق!! إنَّ أحداثاً عظيمة تحدث الآن في روسيا أنَّ العهد الدموي (الحرب العالمية الأولى) الذي بدأ بسبب إطماع الاستعماريين والأمبرياليين في أرضكم قد قارب النهاية.

«وفي خضم هذه الأحداث العظام نلتفت إليكم يا مسلمي روسيا والشرق الذين استرقكم الاستعمار الأوربي واستلب أموالكم وأراضيكم.

«يا مسلمي روسيا يا تتار القرم والفولجا.. يا أيها القرغيز وسكان سيبيريا.. يا سكان التركستان ويا أبطال القوقاس وقبائل الشاشان وسكان الجبال الأشداء.. أنتم يا من هُدِّمت مساجدكم وحُطِّمت معابدكم ومزّق القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم، ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم في العبادة. اننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم.. وان عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها. ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون أي معوقات ولكم الحق في ذلك. واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة.. لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من اجلكم ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية.

«يا مسلمي الشرق.. يا مسلمي ايران وتركيا وبلاد العرب والهند. انتم يا من تاجر مصاصو الدماء الأوروبيون المستعمرون بحياتكم وأوطانكم لعدة قرون من الزمان.. انتم يا من يتآمر عليكم هؤلاء اللصوص الذين يتقاسمون أرضكم ويشعلون نار الحرب لتكونو أتونها ثم يستلبون بعد ذلك أرضكم وثرواتكم.

«أما نحن فنعلن بأعلى صوتنـا أن الاتفاقيـات السرية التي أبرمت بين روسيا القيصرية وبين فرنسا وبريـطانيا الاستعـمارتين والتي بموجبها اقتسموا أراضيكم أيها المسلمون واستلبوا ثـرواتكم ونهبـوا خـيراتكم، نعلن أنها بـاطلة. . ونعلن أن خـطط القيصر المخلوع وحكومة كراينسكي التي ازاحها الشعب، للاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية باطلة ولاغية. ونعلن أن القسطنطينية ينبغي ان تبقى بيد المسلمـين كما نعلن أن الاتفـاقية السرية بين بريطانيا وروسيا القيصرية لاقتسام ايران بينهما لاغيـة وباطلة. ونعلن اننا ضد تقسيم تركيا واقتطاع ارمينية منها وأن هذه الاتفاقات السرية لاغية وباطلة.

«ليس من روسيا أيها المسلمون سيأتي استعبادكم بل من الدول الأوروبية الاستعمارية، من هؤلاء اللصوص مصاصي الدماء الذين استعمروا أرضكم واستلبوا ثرواتكم وزجوا بأبنائكم في أتون حرب لا يأتيكم منها إلا الدمار.

ثوروا ضد هؤلاء الطغاة الكفرة الذين سرقوا ثروات بلادكم واستعبـدوا أوطانكم، اليـوم لا يمكن السكوت عـلى هذا الـظلم والاستعباد انه وقت الثورة ضد المستعمـرين الغاصبـين لأوطانكم المحاربين لدينكم المستبيحين لمقدساتكم الناهبين لثرواتكم. . .».

توقيع: فلادمير لينين ـ جوزيف ستالين

وهكذا توالت بيانات لينين النارية الى المسلمين تحثهم على الثورة من أجل دينهم وقرآنهم وحريتهم في العبـادة. وقام لينـين بتسليم مصحف عثمان رضي الله عنه الذي كان في حوزة القياصرة الى ممثـلي المسلمين في بـتروجراد، كـما سلمهم مجموعـة كبيرة من

الوثائق الهامة التي كان القياصرة قد استولوا عليها.

وأعاد لينين افتتاح مسجد كرفان ساريا في أورنبرغ.. وبرج سومبكي في قازان بعد أن كان القياصرة قد صادروهما في الماضي.

وقد نجحت دعاية لينين بين المسلمين لدرجة الزعم بأنَّ النظام السوفييتي البلشفي إنما يقوم على مبادئ القرآن والشريعة الإسلامية.

ومن الواضح الجلي أن ثورة أكتوبر البلشفية كانت ترى أنها لكي تنجح لا بدّ أن تستغل المسلمين داخل الأمبراطورية الروسية والذين كان يبلغ تعدادهم (حسبما ذكر الأمير شكيب أرسلان في حاضر العالم الإسلامي) (٣٥) مليوناً عشية الثورة وهم بذلك يمثلون أكبر أقلية في أراضي الأمبراطورية الواسعة.. وبذلك استطاع لينين أن يجعل عدداً كبيراً من المسلمين يقف ضد قوات كراينسكي واركينجل وكولشاك ودينكين الذين كانوا يقودون قوات روسيا البيضاء تساندهم في ذلك قوات الحلفاء.. كما أنَّ إثارة القلاقل لبريطانيا في الهند وإيران والعراق وتركيا أمر له أهمية بالغة بالنسبة لأمن الثورة في مراحلها الأولى.. وإذا عرفنا أنَّ الملايين من المسلمين كانوا يقاتلون في صفوف جيوش بريطانيا وفرنسا لأدركنا الأهمية البالغة لإثارة المسلمين ضد هاتين الدولتين.

والغريب أنَّ جورج الخامس ملك إنجلترا أصدر بيانات مماثلة للمسلمين في الهند وإيران وتركيا يعدهم بالاستقلال إذا وقفوا معه. كما أصدر جورج الخامس بياناً للثورة العربية في فبراير ١٩١٥ (١٣٣٤ هـ) يحرضهم على الثورة ضد تركيا.. لأنَّ رايتنا كما يقول جورج الخامس تظل الملايين العديدة من المسلمين الذين انضمّ إلى

جيوشنا الآلاف المؤلفة منهم وأصبحوا يحاربون معنا الألمان وتركيا..

ويقـول: «ولا شكّ أنَّ كـل مسلم صميم ملأت العقيـدة الإسلامية قلبه يربأ بنفسه من أن يستخف بعقيدته ويكون ألعوبة في يد دولة أجنبية تجعله قرباناً على مطامعها الأشعبية» ويقول: «إنَّ حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى وأمبراطور الهند قررت أنَّه عند انتهاء الحرب ستجعل من شرائط الصلح ومواده الرئيسية أن تكون شبه جزيرة العرب ترفل في ثياب الحرّية وتستعيد رقيهـا القديم. ونضرتها الأولى.. بربكم أفلم يكفكم ذلك؟ وأننا نعـدكم وعداً صادقاً بأنكم ستصيرون بحول اللّه وقوته أمة متمتعة بكل معـاني الاستقلال، أنتم على شوق إلى معرفة نوايانا من دينكم الكريم إلاَّ فاعلموا أنَّ الديانة الإسلامية قد احترمها الإنكليز، أجلَّ احـترام وأكبرتها كل الإكبار والتاريخ أكبر شاهد على صدق ما نقول».

توقيع ملك بريطانيا وأمبراطور الهند جورج الخامس.

وهكذا كان كل من جورج الخامس ولينين يصدران الوعود الكاذبة الخادعة إلى المسلمين كي ينضموا إلى قواتهم.

وفي الاتحاد السوڤييتي كانت كل العوامل مهيأة لانضمام أغلبية المسلـمين إلى صفوف لينـين. واستمرت بيـانـات لينـين النـاريـة للمسلمين تحثهم على الثورة ضد حكومة كراينسكي في روسيا وضد الإنجليز في الهند وإيران وبلاد العرب حتى عام ١٩٢٠ م.

وصدق المسلمون وعود لينين وناصروا ثورته وكان الوحيدون الذين يتشككون في صدق نوايا لينين علماء الإسلام ومشايخ الطرق الصوفية.. ولكنهم على أية حال اضطروا للثورة في وجه حكومة كـراينسكي التي أخذت خط القيصر في مـواجهة آمـال المسلمين

وقامت ثورة القوقاس بقيادة الإمام الرباني الإمام نجم الدين غوتسو الـذي استـطاع أن يـدحـر قـوات كـولشـاك وكـراينسكي وأعلن الداغستان نفسه دولة مستقلة وتبعته في ذلك جورجيا واذربيجان في عام ١٩١٨.

لينين يقوم بحرب إبادة للمسلمين بعد انتصاره على قوات روسيا البيضاء: ما أن استطاع لينين أن يحقق بعض الانتصارات على قوات كراينسكي وأركينجل وكولشاك حتى اتفق مع مجموعة من الإرهابيين الروس والحزب الشيوعي المحلي في باكو وقاموا بمذبحة مارس ١٩١٨م (١٣٣٧هـ) التي راح ضحيتها ١٨,٠٠٠ مسلم.

وتمكن المجاهدون بالتعاون مع قوات أنور باشا ناظر الحربية السابق في تركيا أن يخمدوا هـذه المجزرة الشيـوعية ويعلنـوا قيام جمهورية أذربيجان التي اعترف بها لينين والحلفـاء.. ولكن لينين غدر بها عندما حانت له الفرصة المواتية في ٢٧ أبـريل ١٩٢٠ م وهجم عليها بجحافله الحمراء بعد أن وطد أركان الدولة البلشفية في روسيا.

وقاوم شعب القوقاس الأبي المسلم واستمرت مقاومة الإمام نجم الدين غوتسـو حتى أسر هو ورفيقـه سيد أمـين وذلك عـام ١٩٢٥.. كما استشهد العديد من شيوخ الطريقة النقشبندية وعلى رأسهم الشيخ أوزون جحى الذي قام يجاهد رغم بلوغه التسعين عاماً.

ومنذ سنة ١٩٣٩م (١٣٥٩) إلى سنة ١٩٧٩ (١٣٩٩هـ) قام شعب القوقاس المسلم المجاهد باثنتين وخمسين ثورة اخمدت بكل

قسوة وهمجية ووجدت الموافقة الضمنية السرية من الدول الغربية التي لم تتحدث قط عن أي ثورة إسلامية في الوقت الذي لم تكف أجهزة اعلامها عن الضجيج من أجل ساخاروف اليهودي وابنة ساخاروف[1].

ولم تقتصر هذه الثورات على أهل القوقاس بل امتدت لتشمل تتار القرم وتتار الفولجا وسكان بشكيريا وجبال الأورال وعلى امتداد رقعة التركستان التي تزيد على اربعة ملايين كيلو متر مربع. ومن أشهر هذه الثورات ثورة الباسماش والتي امتدت من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٢٨م (١٣٣٧ - ١٣٤٧هـ) والتي شملت آسيا الوسطى بأكملها.

وقامت قوات لينين والمستوطنين الروس بالهجوم على خوقند في ٥ فبراير ١٩١٨م (١٣٣٧هـ)، وللمرة الثانية قام الروس بدك هذه المدينة الباسلة وابادة سكانها واغتصاب فتياتها وفعلوا من أعمال الوحشية ما تتضاءل معه أعمال جنكيز خان وهولاكو.

وامتدت روح المقاومة وارتفعت راية الجهاد يذكيها علماء الاسلام ومشايخ الطرق الصوفية واستطاعت القوات الاسلامية الضئيلة العُدد والقليلة العدَد ان تصد الهجوم البلشفي عن بخارى في مارس ١٩١٨م (١٣٣٨هـ).

وانضم الى هذه الثورة أنور باشا ناظر الحربية السابق في

---

(١) وعندما ثارت أذربيجان في يناير ١٩٩٠ تدخلت جحافل الجيش الروسي لإخماد الثورة بمباركة الولايات المتحدة والدول الغربية وتأييدها المطلق. ولكن عندما تحركت ليتوانيا ودول البلطيق نحو الاستقلال وجدت كل دعم من الدول الغربية ولم تستطع روسيا أن تحرك ساكنا.

تركيا. ونظَّم أمورها العسكرية أحسن تنظيم بامكانياته البسيطة وبنى مصنعا لصنع الرصاص.. **وقاتل** حتى استشهد على صهوة جواده مقبلا غير مدبر في يوم عيد الأضحى ١٣٤١هـ (اغسطس ١٩٢٢) عندما باغتتهم قوات لينين الضخمة.

وانضم الى هذه الثورة ايضا زكى فيلدى طوقان قائد البشكير ورئيس اول دولة مستقلة في بشكيريا والتي قضى عليها لينين بعد ان استفاد من مساندة البشكير له في محاربة حكومة كراينسكي.

وقامت قوات لينين بالهجوم على منطقة الأورال التي كانت قد أعلنت استقلالها ووقفت تحارب جيوش كراينسكي ولكن ما إن تمكن لينين من الانتصار على كراينسكي حتى غدر بها فهجم عليها وقضى عليها عام ١٩١٨ وفي عام ١٩١٩م قضى لينين على جمهورية الآشي، وفي ابريل ١٩٢٠م استولى على أذربيجان.

وتوجهت قواته في نفس العام الى القرم حيث واجهت قواته مقاومة شديدة استمرت عامين، فعمدت القوات الروسية الى حصار القرم حصارا تاما ومنعت عنهم الأغذية حتى أن الرفيق كالينين الذي كان مسئولا عن القرم ذكر في تقريره أن عدد الذين اصابتهم المجاعة في يناير ١٩٢٢ كان ٣٠٢,٠٠٠ شخص مات منهم بسبب المجاعة ١٤,٤١٣، وفى مارس اصابت المجاعة ٣٧٩,٠٠٠ شخص مات منهم ١٩,٩٠٢، وفي ابريل بلغ عدد الذين عضتهم أنياب المجاعة ٣٧٧,٠٠٠، مات منهم ١٢,٧٥٤.. وفي خلال أشهر الحصار الستة بلغ عدد الذين اصابتهم المجاعة اكثر من مليون قرمي تتاري مسلم، أما الذين لقوا حتفهم فقد كانوا أكثر من مائة ألف.

ومنذ أن دخلت قوات كالينين القرم عام ١٩٢٢ واجه السكان المسلمون حرب ابادة وانخفض عدد السكان من خمسة ملايين تتاري قرمي مسلم الى أقل من مليون عام ١٩٤٠ ثم قام ستالين ١٩٤٥ بقتل وطرد جميع من تبقى من سكان القرم.. ولأول مرة في التاريخ يباد شعب بأكلمه ويطرد كلياً من أرضه حتى أنه لا يوجد اليوم في القرم تتاري مسلم واحد[1].

ومنذ اللحظة التي دخلت فيها القوات البلشفية إلى القرم قامت بتحطيم المساجد وتحويلها إلى اصطبلات ونواد ومتاحف. وقد تم تهديم وتحويل ١٥٥٨ مسجداً في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٤٥م.

أما التركستان بشقيها الغربي الذي تحكمه روسيا والشرقي الذي تحكمه الصين فقد شهدت مذابح مروعة من عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٥٣، كما واجهت المجاعات التي دبرها لينين وستالين، ففي المجاعة التي استمرت عامي (١٩٣٢ - ١٩٣٤) مات أكثر من ثلاثة ملايين تركستاني.. وأكلت الكلاب والقطط ثم اضطر الناس إلى أكل جثث أطفالهم وموتاهم!!

وفي قرغيزيا وقازاخستان مات في مجاعة ١٩٢١ - ١٩٢٢ أكثر من مليون، وفي المجاعة التالية التي دبرها لينين عام ١٩٢٦ مات أيضاً مليون.

---

(١) قامت في نهاية عام ١٩٨٧ وبداية ١٩٨٨ مظاهرات عديدة من القرميين تطالب بالسماح بعودتهم الى وطنهم. وتجاهلت أجهزة الاعلام الغربية قضية القرم وغيرها من المناطق الاسلامية. وهي تدعم بشكل سافر جورباتشوف المتزوج من يهودية والمتعاطف مع اليهود.

وعندما فرض لينين سياسة التحضير التي استمرت من عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٣٩ أباد لينين ثلث شعب القازاق المسلم، وكما يقول بنجسن ولومرسييه: لقد سببت سياسة التحضير في الثلاثينيات من هذا القرن اختفاء ثلث شعب القازاق!! وما أن تم للينين السيطرة على الأراضي الإسلامية حتى قام عام ١٩٢٨ باغلاق ١٥،٠٠٠ مدرسة إسلامية و ٢٦،٠٠٠ مسجد.

وفي التركستان وحدها تم إلغاء وتهديم وتحويل ٦٦٨٢ مسجداً و ٧٠٥٢ مدرسة إسلامية. ولم يبق في الاتحاد السوفييتي الذي تبلغ مساحته ٢٢،٢٧١،٠٠٠ كيلو متر مربع والذي يبلغ عدد المسلمين فيه ٥٥ مليوناً، لايوجد سوى مدرستين رسميتين لتعليم القرآن وتعاليم الدين الاسلامي، واحدة في بخارى والأخرى في طشقند.

وقسّم لينين الأراضي الإسلامية إلى ست جمهوريات سوفييتية فيدرالية اشتراكية هي: اوزبكستان ـ قازاقستان ـ تركمنستان ـ طاد جكستان ـ قرغيزيا ـ وجميعها في التركستان وجمهورية اذربيجان في القوقاس بالإضافة إلى مجموعة من الجمهوريات الذاتية والمقاطعات.

ولم يكن لهذه الجمهوريات والمقاطعات من الجمهورية إلا الأسم... وحتى أولئك الشيوعيين المحليين الذين استخدمهم لينين وستالين أول الأمر قاموا باعدامهم بمجرد أن قاموا يطالبون بشيء من الطعام لمواطنيهم أو بالابقاء على لغاتهم القومية التركية.. نذكر من هؤلاء رئيس وزراء قرغيزيا يوسف عبد الرحمانوف (يوسف بن عبد الرحمن) وعبد الكريم صديقوف والرفيق رزفيلوف.. ومن تتار

الفولجا مير سعيد غالياف الذي كان مساعداً لستالين في مفوضيات، الشعب للقوميات وعضواً في اللجنة المركزية لجمهورية تتاريا الاشتراكية ومع هذا سرعان ما أوقف من جميع مسئولياته في مايو ١٩٢٣ وطرد من الحزب سنة ١٩٢٤ ثم اعتقل وحكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات وبمجرد خروجه من السجن سنة ١٩٣٩ م اختفى من الوجود بالطريقة الشيوعية المعهودة وأصبح اسمه مرادفا للخيانة والبورجوازية والقومية.

وكذلك كان مصير غاليوجان ابراهيموف احد كبار كتاب التتار الذي عينه ستالين عام ١٩١٨م رئيسا للمفوضية المركزية للشئون الاسلامية..

وواجه أحمد بيطرسون الكاتب والمؤرخ الكازاخي والذي تعاون مع لينين وستالين الاعدام سنة ١٩٣٧. وواجه رفيقه عالم الانثروبولجي الكازاخي علي خان بوكي خانوف نفس المصير عام ١٩٣٣م.

طرد سلطان علي أوغلي المعروف باسم سلطان غالييف من الحزب ثم اعدم عام ١٩٣٧م. وفي خلال عامين فقط (١٩٢٨ - ١٩٢٩م) صفي جسديا جميع رؤساء لجان نهر الأوب التترية والبشكيرية في الحزب الشيوعي التتاري وكذلك قادة اتحاد الكتاب ومصلحة المنشورات في قازان وأوفا.

وواجه تتار القرم الذين انضموا تحت راية الحزب الشيوعي نفس المصير الأسود مثل ولي ابراهيم الذي تولى منصب رئاسة جمهورية القرم بعد بالاكون المجري وقد قام لينين باعدام ولي ابراهيم وجميع وزرائه سنة ١٩٢٨، وفي عام ١٩٣٠ تم اعدام

رئيس الجمهورية مع جميع وزرائه. وتكررت القصة المأسوية مع إلياس طرخان وجميع أعضاء حكومته عام ١٩٣٧. وهكذا لم يسلم من بطش البلاشفة الروس حتى أولئك العملاء الذين قاموا بخدمة أسيادهم... فلما انتهت الحاجة اليهم قام الروس باعدامهم.

وواجه الاسلام حربا شعواء منذ ان تمكن لينين من التغلب على خصومه. ويقول بنجيسن ولومرسييه: «لقد ابتدأ الهجوم المباشر ضد الدين الاسلامي عام ١٩٢٨ وطال حتى اعلان الحرب العالمية الثانية وتميز هذا العهد باقفال ما يربو على ٢٦,٠٠٠ مسجد كان يتولى الامامة والتدريس فيها أكثر من ٤٥,٠٠٠ عالم دين.

وأما في ايام ستالين فقد زادت الحملة وواجهت عدة شعوب اسلامية حرب ابادة شديدة وهذه الشعوب هي: (١) شعب القرم (٢) شعب الكراتشاي (٣) شعب البلكار (٤) شعب الشاشان اينغوش.

وفي عهد خروتشوف جددت الحملة ضد الدين الاسلامي وتم اغلاق ألف مسجد كانت متبقية من العهود الماضية.. وكتبت مئات الكتب وآلاف النشرات باللغات المحلية لمهاجمة الاسلام الرجعي البروجوازي الاقطاعي.

ومنع المسلمون من الصلاة ومن الصيام ومن الزكاة والحج، كما مُنعوا كذلك من تعليم ابنائهم الإسلام.. وأجبروا في المزارع الجماعية على تربية الخنازير. وأخذ الأطفال إلى روضات الأطفال حيث يلقنون المبادىء الشيوعية الالحادية من الروضة حتى الجامعة.

وقد نشرت الصحف خبراً مفاده أن ثلاثة من الجنود السوفييت الذين كانوا في افغانستان كانوا يقرؤون القرآن سراً

فقامت السلطات عندئذ بالحكم عليهم بالاعدام فوراً.

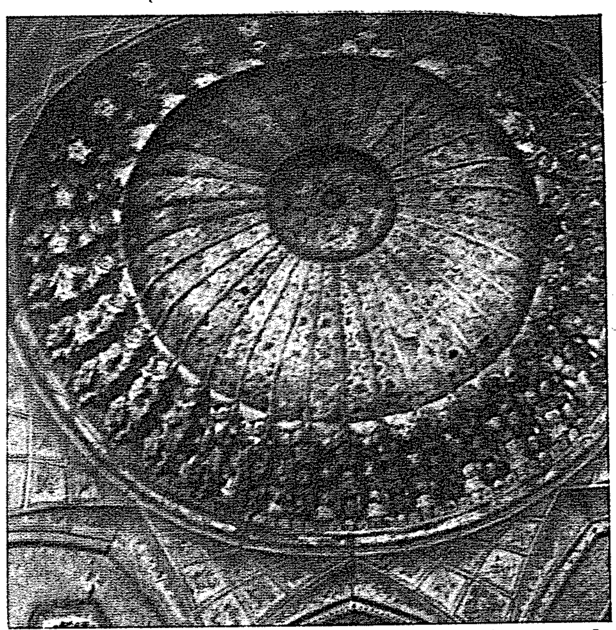
ويواجه المسلمون في عهد جورباتشوف المتزوج من يهودية والمتعاطف مع اليهود، حملة شرسة. وقد زجَّ في السجون جميع المسئولين المتنسبين بالاسم إلى الإسلام لأنهم لم يحاربوا الإسلام كما يجب، ولأنهم سمحوا بشيء من الحريات الدينية للمسلمين وغيرهم.. وقد أقام جورباتشوف حملات الحادية مكثفة في المناطق الإسلامية، في الوقت الذي سمح فيه لليهود والنصارى بممارسة نشاطهم الديني[1].. وكثيراً ما تقوم أجهزة الإعلام الغربية بالإشادة بجورباتشوف.. وتنقل ذلك للأسف أجهزة الإعلام العربية بكل غباء.. وسبب الإشادة بجورباتشوف هو محاربته للإسلام وتعاونه مع اليهود.

وهكذا يواجه المسلمون في الاتحاد السوفييتي حرب إبادة وإذابة لم يعرف المسلمون لها نظيراً.

ولكن الله عزّ وجلّ غالب على أمره وناصر دينه ومعز أهله.

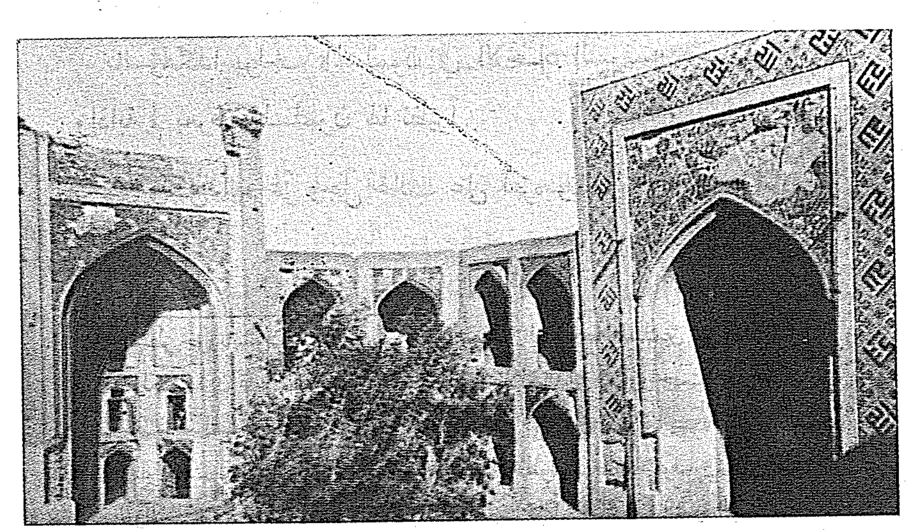
---

(١) اضطر جورباتشوف إلى شيء يسير من التسامح الديني مع المسلمين نتيجة الانفتاح، ولكن ما إن قامت أذربيجان بمحاولة الاستقلال الذاتي إلاّ وواجهت حملة عسكرية ضخمة لتسحق الثورة سحقاً كاملاً (يناير ١٩٩٠).. والغريب حقاً أن تقوم الولايات المتحدة والدول الأوروبية بمباركة خطوات جورباتشوف في هذا الصدد والإشادة بها، بل لقد وصل الأمر إلى حثّه حثّاً قوياً لإخماد هذه الثورة الإسلامية.. والموقف مختلف تماماً مع دول البلطيق النصرانية مثل ليتوانيا واستونيا ولاتفيا. فهذه الدول قد خطت خطوات واسعة في سبيل استقلالها، بل أعلنت ليتوانيا ذلك الاستقلال (مارس ١٩٩٠).. ومع ذلك لم تتحرك القوات الروسية لإخضاعها.. ووقفت الولايات المتحدة والغرب بأكمله وراء ليتوانيا ودول البلطيق.

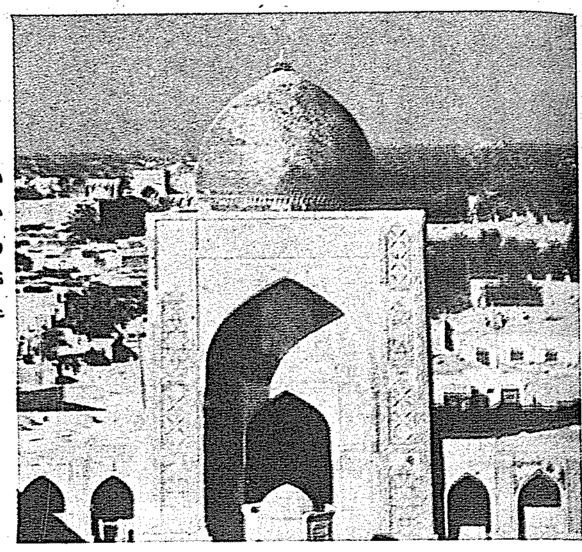


بخارى

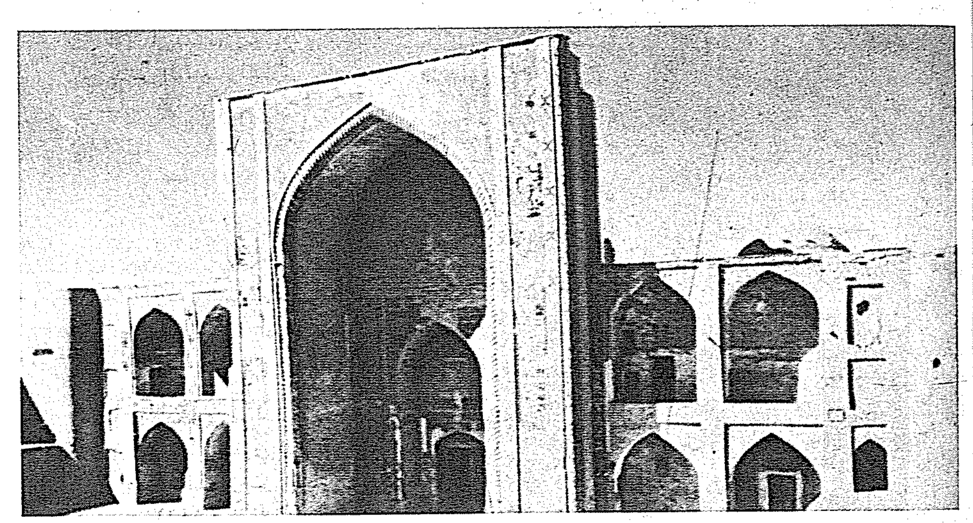
بخاري: صورة من الداخل لقبة مسجد خواجة زين الدين. شيد هذا المسجد في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وتبدو في الصورة روعة النقوش ودقة الزخرفة وتناسق الألوان وتناسق شكل القبة مع الأقواس بدرجة تبهر الناظرين.



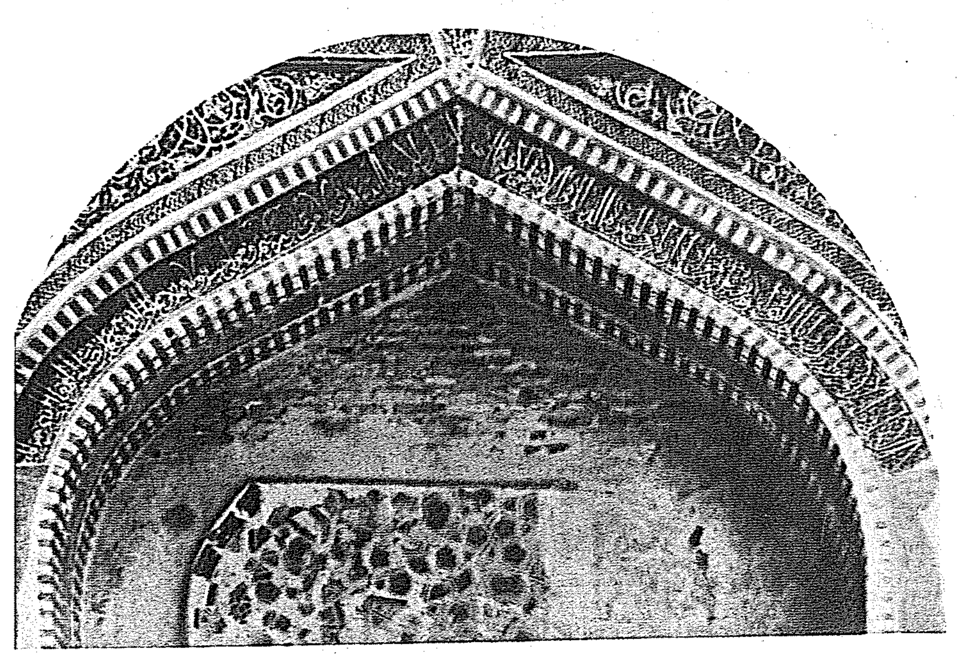
بخارى: مدرسة عبد الله خان التي شيدت في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ٩٩٧ - ٩٩٩ هـ (١٥٨٨ - ١٥٩٠ م) في العهد الشيباني، توضح مدى اهتمام الأمراء والأثرياء بإقامة المساجد والمدارس.. لقد بلغ عدد المدارس الإسلامية الشبيهة بهذه المدرسة التي حولها الروس إلى متاحف ونوادٍ وصالات في التركستان وحدها ٧٠٥٢ مدرسة... وتبدو في هذه المدارس روعة الفن الإسلامي... وكم زخرت هذه المدارس بالعلماء والفطاحل وكم أخرجت من جهابذة في كل فن.



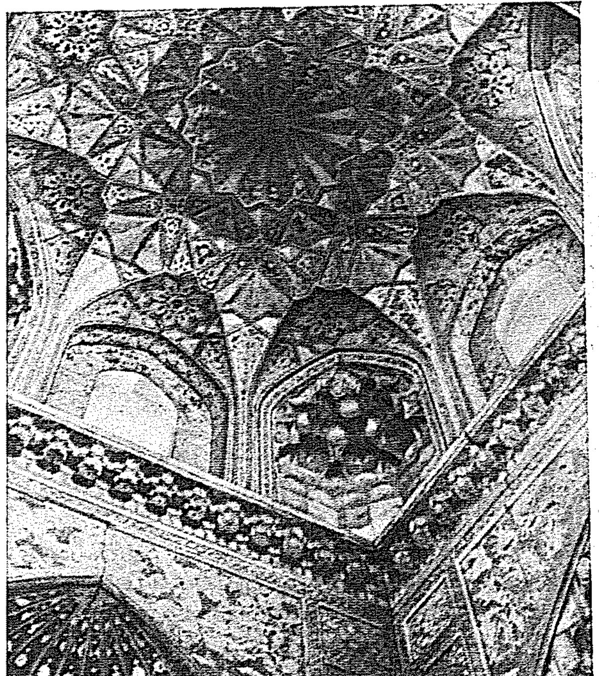
بخارى: صورة لبخارى وفي مقدمتها بقايا مسجد كلان وبوابته الرئيسية بعد أن تحول إلى متحف في عهد البلاشفة.



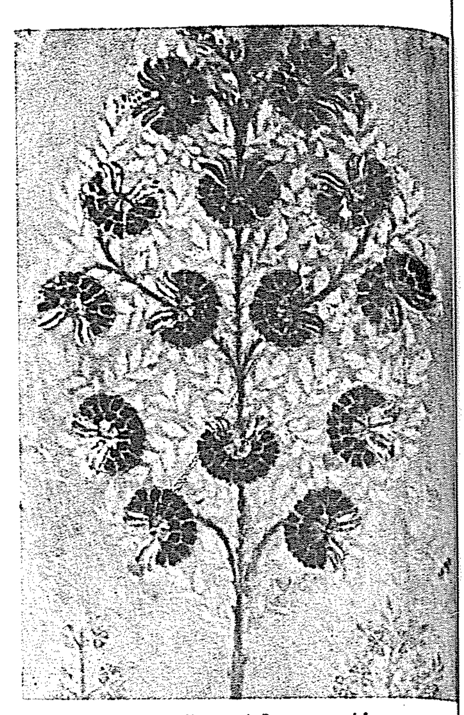
بخارى: مدرسة أولوغ بك منظر البوابة والواجهة الأمامية، لقد كان أولوغ بك التيموري (من نسل تيمورلنك) أحد الحكام المحبين للعلوم والمؤسسين للكثير من المدارس... وهو الذي أسس مرصد سمرقند الشهير وقضى هذا الأمير غالب حياته مجتمعاً بالعلماء ومشاركاً لهم في دروسهم وعلومهم.... وقد حكم هذا الأمير مناطق التركستان في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).



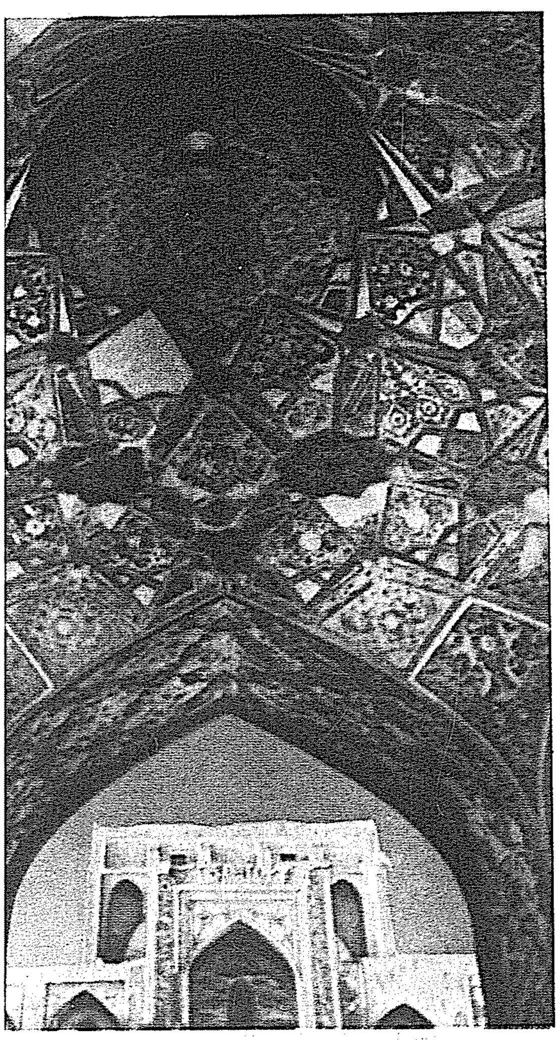
بخارى: جزء من البوابة لزاوية بيان قلي خان التي شيدت سنة ٧٦١ هـ (١٣٥٩ م) ترى فيها جمال النقو والزخرفة وروعة الفن الإسلامي
لقد قام بيان قلي خان بإنشاء العديد من المساجد والمدارس في بخارى وما حولها.



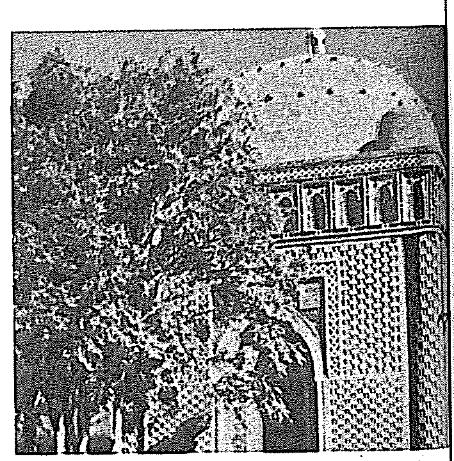
بخارى: قبة المسجد الشتوي لمدرسة عبد العزيز خان ١٠٦٣ هـ (١٦٥٢ م).



بخارى: زخرفة إحدى الحجرات وقاعات الدرس في مدرسة عبد العزيز خان.

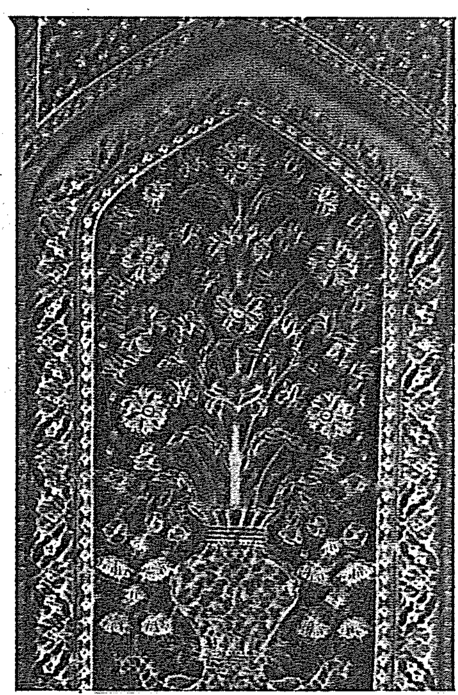


بخارى: زخرفة قبة المسجد الصيفي لمدرسة عبد العزيز خان وتظهر الصورة أيضاً بوابة المدرسة من خلال بوابة المسجد. لقد آثر السلطان عبد العزيز بن نظر خان الأشتراخاني حياة العزلة وذهب إلى المدينة المنورة حيث مات ودُفن في بقيعها.

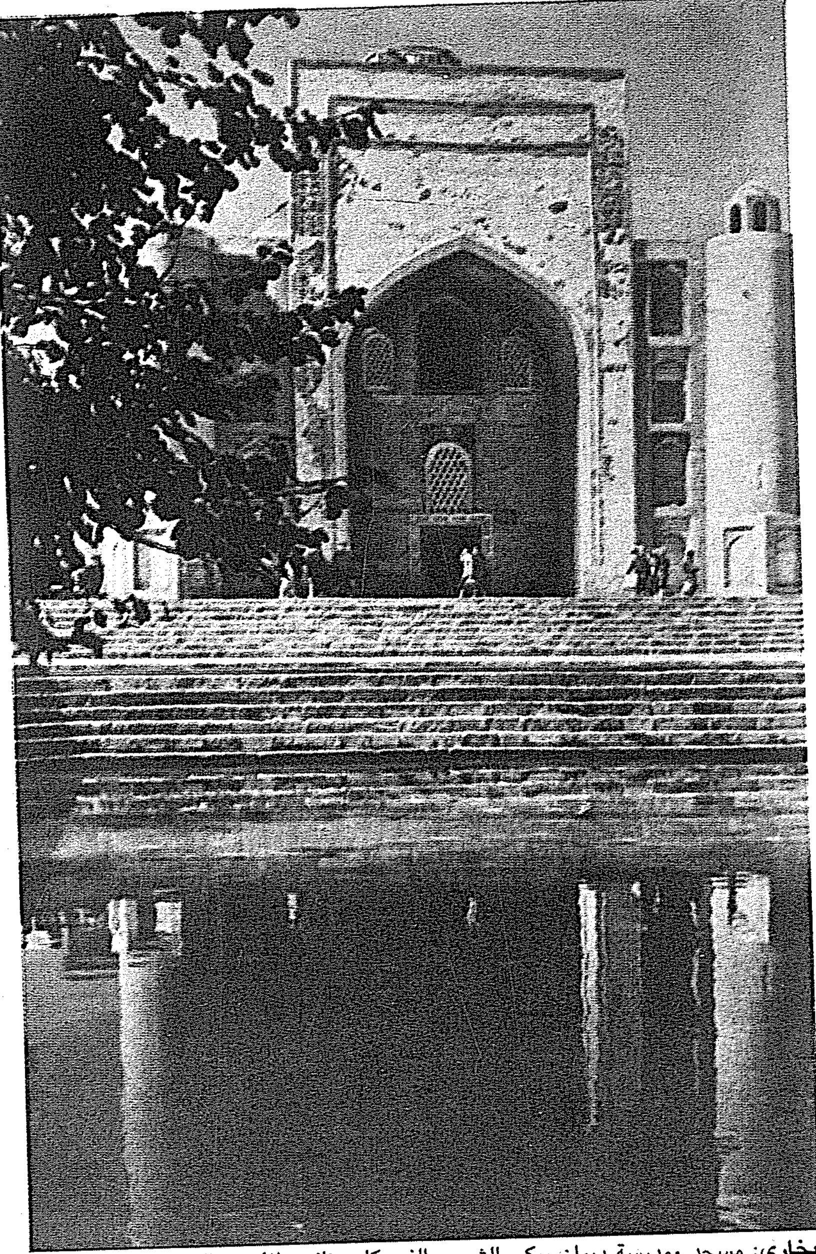


بخارى: زاوية اسماعيل الساماني أعظم ملوك بني سامان الذين جعلوا بخارى «مثابة العلوم كلها».

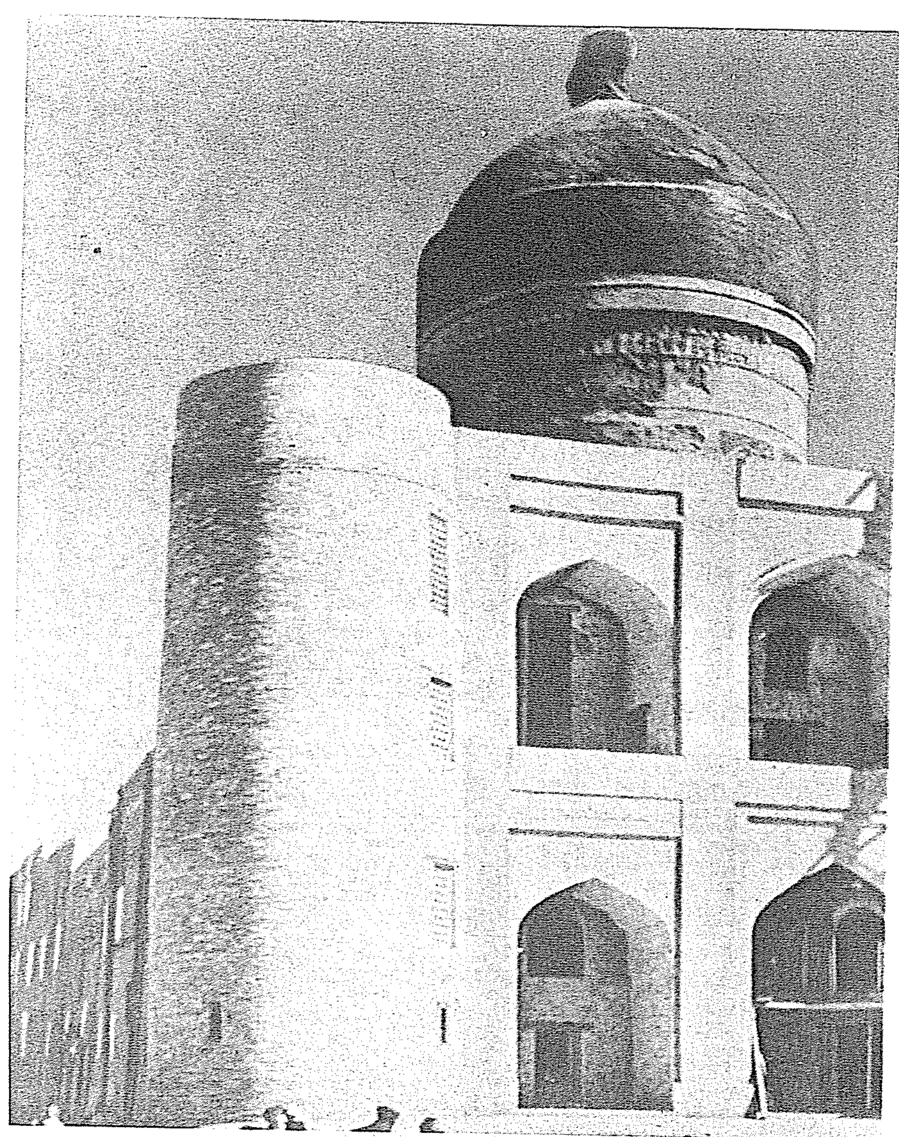
بخارى: لقد حول الشيوعيون عند هجومهم على بخارى سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) مسجد كلان ومدرسته إلى متحف وبقيت منارة هذا المسجد شاهدة على مقدار ما بلغه أهل بخارى من حضارة. لقد بُني هذا المسجد سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٧ م) ولا تزال منارته تطل على بخارى حتى بعد أن توقف منها الأذان.



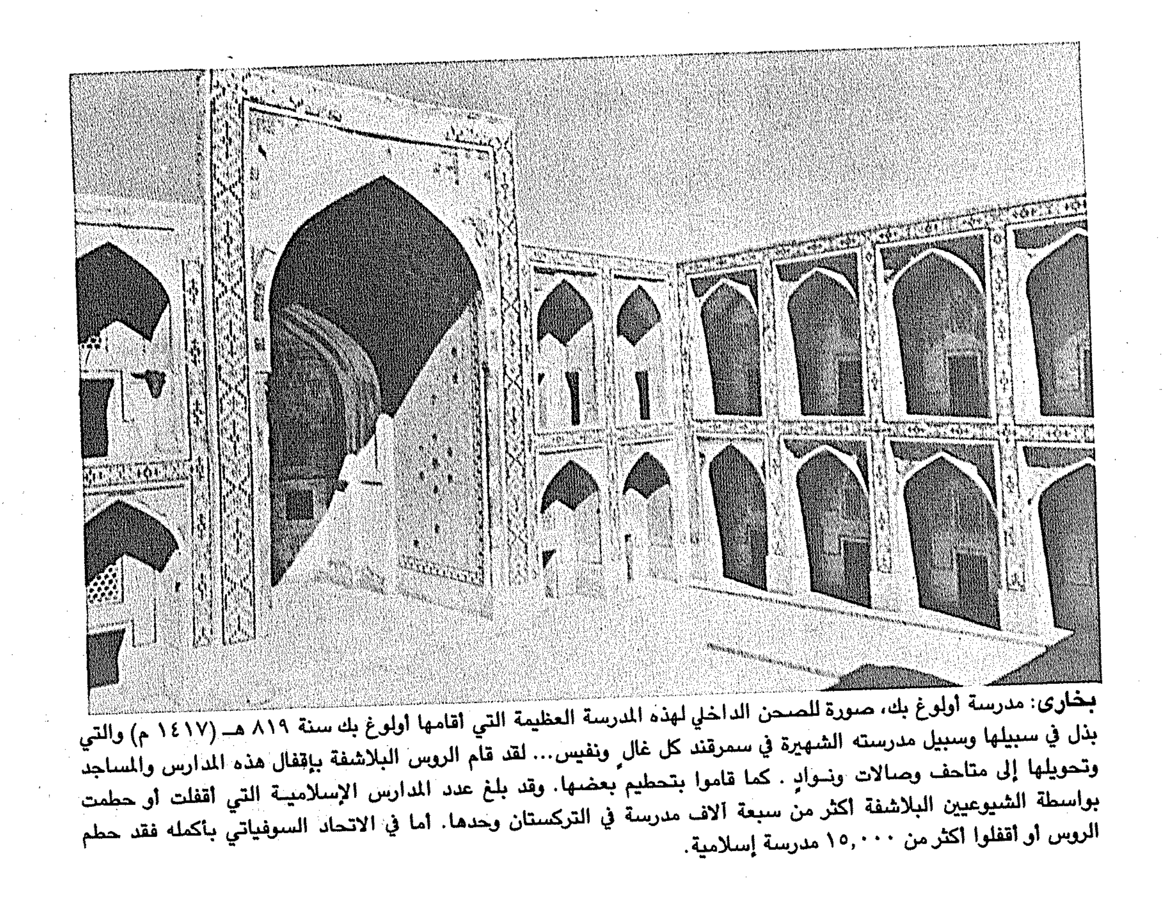
بخارى: مدرسة عبد العزيز خان ١٠٦٣ هـ (١٦٥٣ م) تكسية الواجهة.



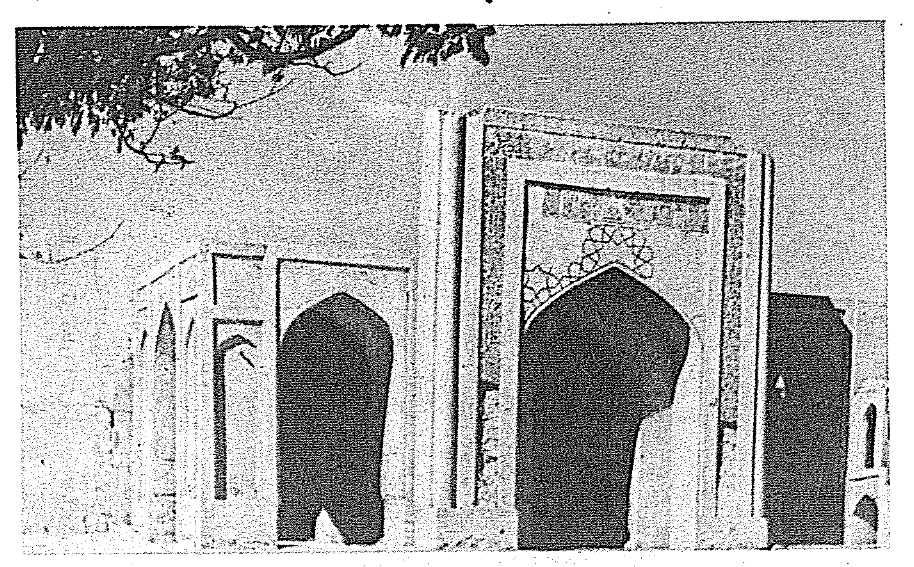
بخارى: مسجد ومدرسة ديوان بيكي الشهير والذي كان ينافس الأزهر والقيروان. لقد بنيت هذه الجامعـة الإسلامية سنة ١٠٣٠ هـ (١٦٢٠ م) وقام الروس البلاشفة بتحويلها إلى متحف وذلك منذ دخولهم بخارى سنة ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م).



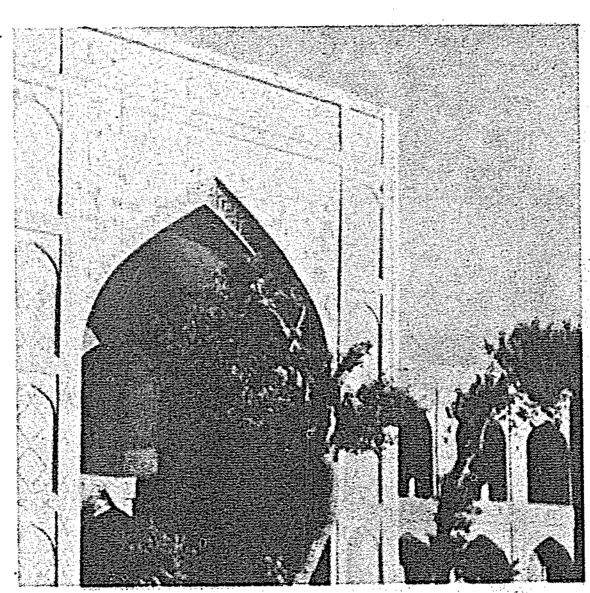
بخارى: أشهر ما بقي من مدارس بخارى العظيمة مدرسة مير عرب (أمير العرب) التي أسسها الشيخ عبد الله اليمني سنة ٩٤٢ هـ (١٥٣٥ م) بمحاذاة مسجد كلان في الجانب الآخر من الساحة الصغيرة.. وفي هذه المدرسة أكثر من مائة قاعة للدرس.. ولها مزايا هندسية كثيرة منها القبة التي تحدث في النفس تأثيراً فنياً رائعاً... وقد بقي منها جزء من القوشية والكتابات من الطوب الملون والفسيفساء على جدران وأقواس هذه البناية كما بقيت على قبتها الشمالية تكية زرقاء تضاهي زرقة السماء... وقد كان الشيخ عبد الله اليمني الملقب بمير عرب يتمتع بنفوذٍ كبير في بخارى وبذل الأموال العظيمة في تشييد هذه المدرسة كما وقف عليها ضياع وأموالاً هائلة لتؤدي دورها في نشر العلم على مدى القرون حيث بقيت هذه المدرسة إلى اليوم مركزاً للدراسات الإسلامية وهي إحدى مدرستين إسلاميتين سمح بهما الروس البلاشفة لتدريس العلوم الإسلامية بعد أن حطموا أكثر من سبعة آلاف مدرسة. والمدرسة الثانية في طشقند وهي مدرسة الإمام البخاري.



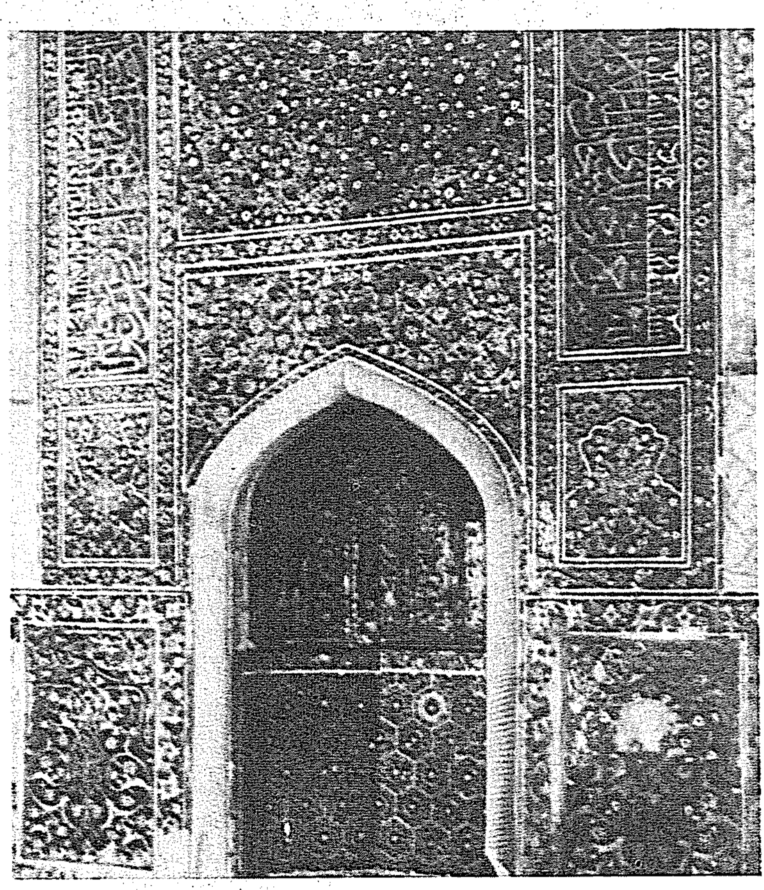
بخارى: مدرسة أولوغ بك، صورة للصحن الداخلي لهذه المدرسة العظيمة التي أقامها أولوغ بك سنة ٨١٩ هـ (١٤١٧ م) والتي بذل في سبيلها وسبيل مدرسته الشهيرة في سمرقند كل غالٍ ونفيس... لقد قام الروس البلاشفة بإقفال هذه المدارس والمساجد وتحويلها إلى متاحف وصالات ونوادٍ. كما قاموا بتحطيم بعضها. وقد بلغ عدد المدارس الإسلامية التي أقفلت أو حطمت بواسطة الشيوعيين البلاشفة أكثر من سبعة آلاف مدرسة في التركستان وحدها. أما في الاتحاد السوفياتي بأكمله فقد حطم الروس أو أقفلوا أكثر من ١٥,٠٠٠ مدرسة إسلامية.



بخارى: لقد قام الروس عند دخولهم بخارى بتحطيم هذا المسجد الأثري الهام الذي شُيد في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) والمعروف باسم غازكاه.

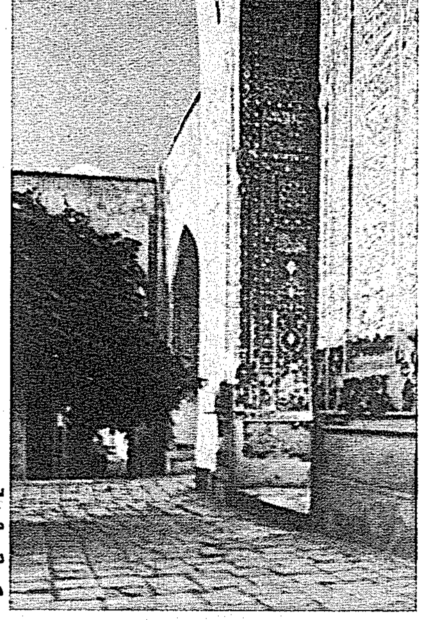


بخاري: مدرسة مادر عبد الله خان التي انشأتها سنة ٩٧٤ ـ ٩٧٥ هـ (١٥٦٦ ـ ١٥٦٧ م). وقد قام ابنها عبد الله خان بإنشاء العديد من المدارس في بخارى وتسمى قوشي مدرسة. ومعناها مدرستان مدرسته ومدرسة أمه وهما متقابلتان في نفس الشارع وقد انتشرت هذه الطريقة في عهد الدولة الأوزبكية حيث تقع هذه البنايات الضخمة متقابلة في شارع واحد أو ساحة واحدة..



بخارى: محراب مسجد بلند في بخارى من القرن السادس عشر الميلادي ترى فيه دقة النقوش وروعتها. لقد حول الروس البلاشفة هذا المسجد إلى متحف مثلما فعلوا بأكثر من ستة آلاف مسجد في التركستان (٦٦٨٢ مسجداً).

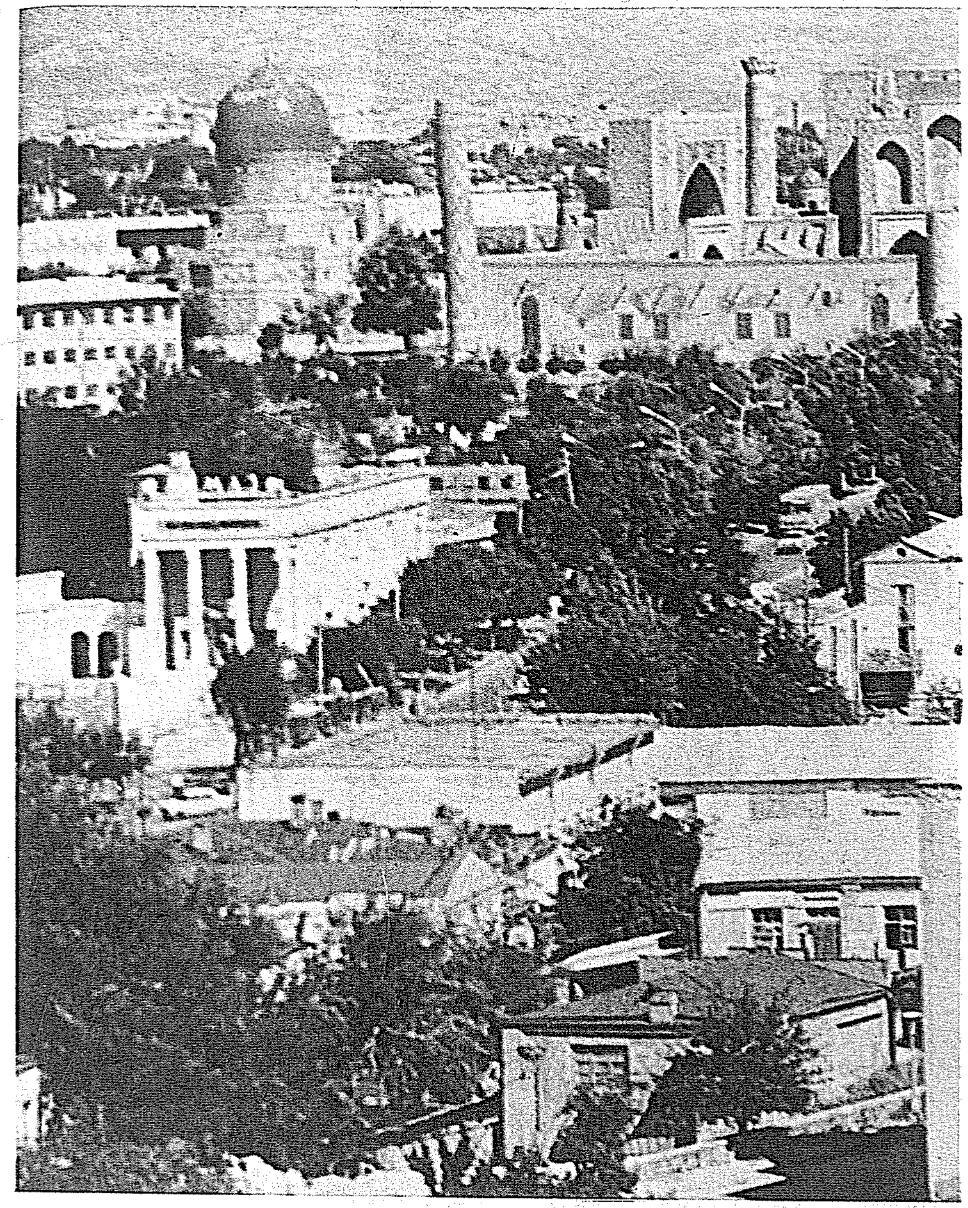
بخارى: الجزء العلوي من مئذنة
مسجد كلان الذي بني سنة
٥٢٢ هـ (١١٢٧ م).



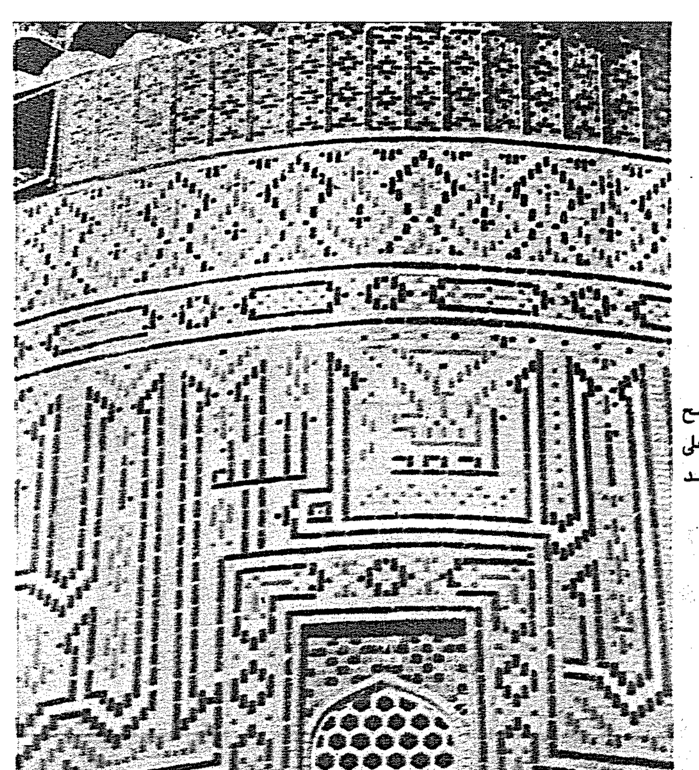
سمرقند: منطقة شاه زندة... مخرج من باحة علوية إلى درب علوي اي روعة في بناء هذه الباحات والدروب.



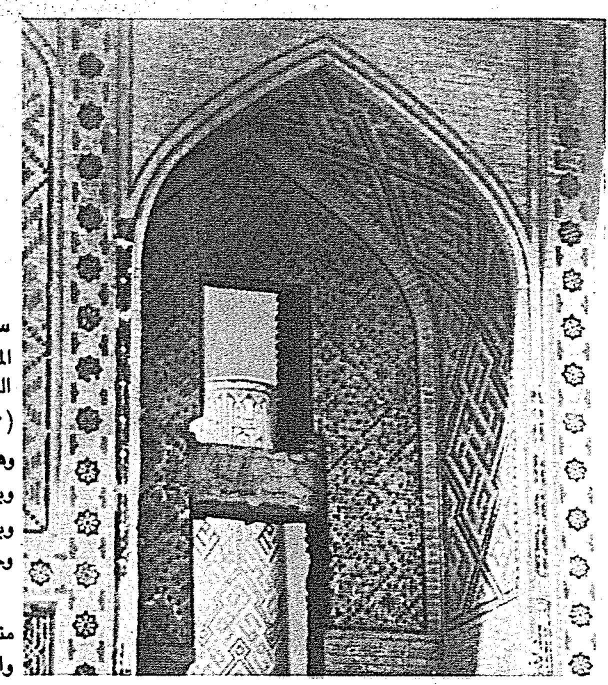
سمرقند: مدرسة أولوغ بك صورة للمنارة الشمالية للمسجد والمدرسة...



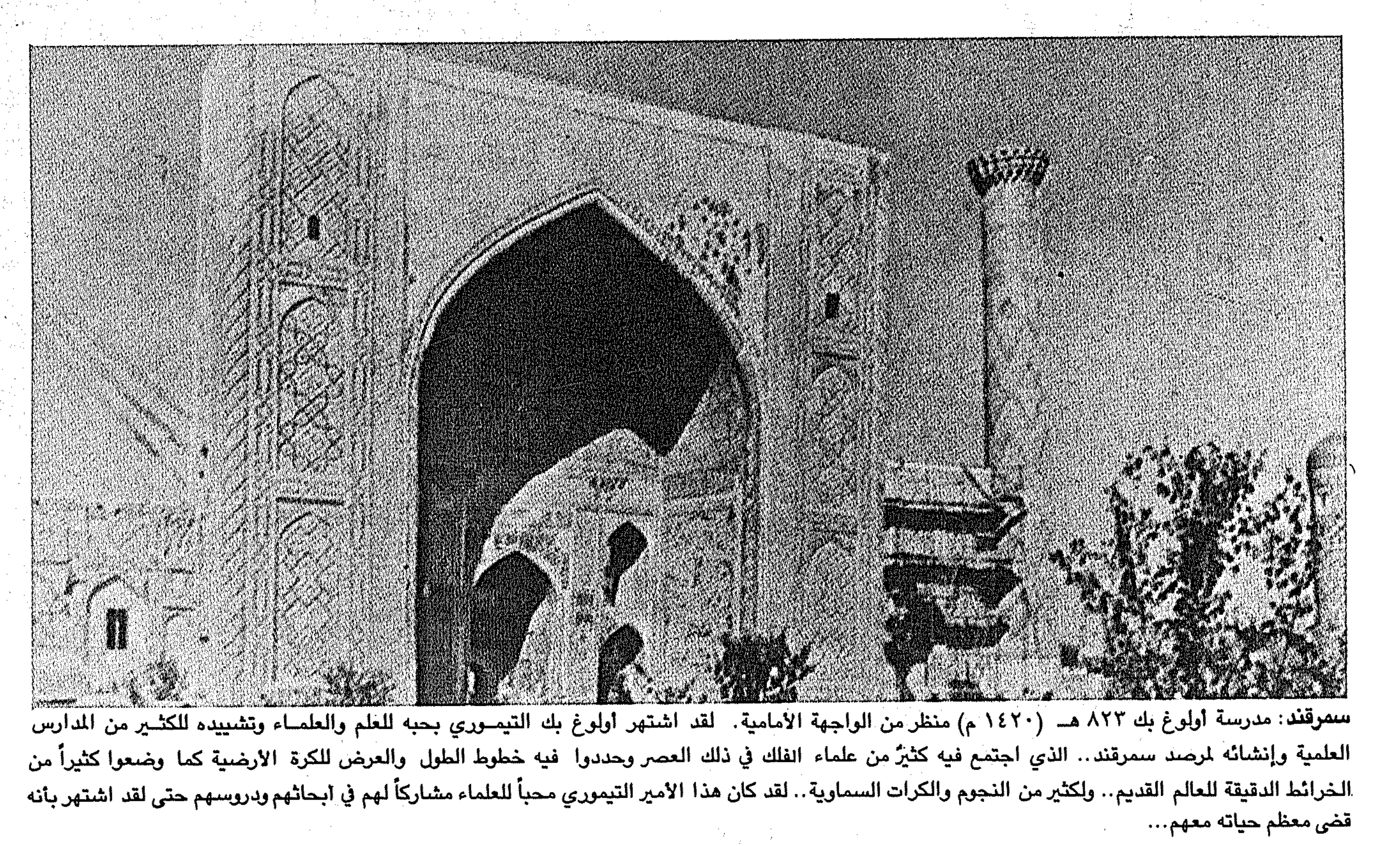
سمرقند ذات المجد الباذخ والتاريخ المجيد التي فتحها المسلمون في عهد معاوية سنة ٥٦ هـ /٦٧٥ م بقيادة سعيد ابن الخليفة الراشد عثمان بن عفان. وكان في جيشه قثم بن العباس (ابن عم النبي ﷺ والذي كان أحد ثلاثة يشبهونه ﷺ وهم: الحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر الطيار بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين).. وقد استشهد قثم رضي الله عنه في فتحها فأقام له أهلها بعد دخولهم في الإسلام مزاراً أسموه شاه زندة أي السلطان الحي ذلك لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون... وفي هذا الموقع قامت عشرات المدارس الإسلامية العظيمة.. وكان الملوك والعظماء يتنافسون في العناية بها ويوقفون عليها الأوقاف العظيمة.. كما كان كثير من العلماء والصالحين والمشهورين يقبرون في تلك الناحية بالقرب من قبر ابن عم رسول الله ﷺ.



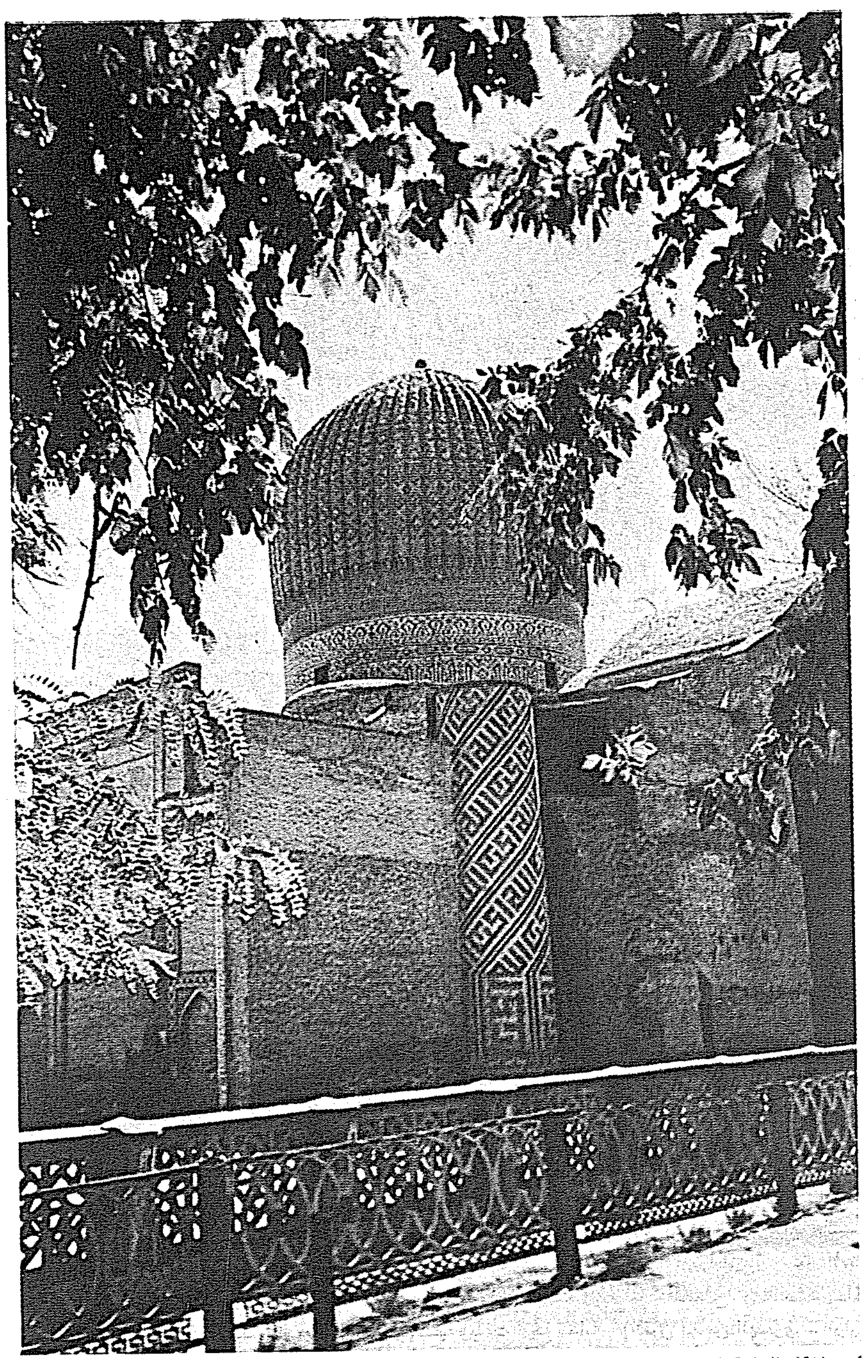
سمرقند: صورة لتوضيح النقوش الرائعة والكتابة على جزء من القبة التي يرقد تحتها تيمورلنك.



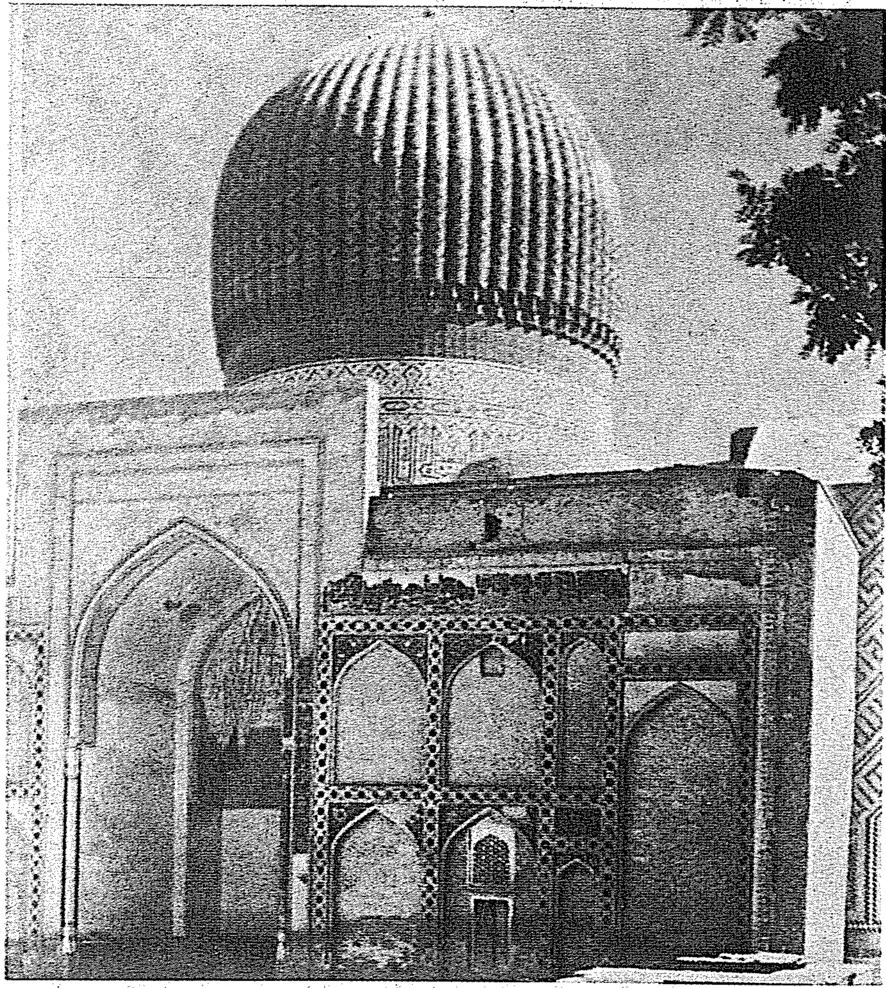
سمرقند: صورة أخرى لجزء من بوابة المدرسة العظيمة والتحفة الفنية النادرة التي أنشأها أولوغ بك سنة ٨٢٣ هـ - (١٤٢٠ م) ، وقد أقام مثلها في بخارى وهكذا كان الأغنياء والأمراء يتنافسون ويسارعون إلى إقامة المدارس والمساجد ويقفون لها الأموال العظيمة ابتغاء وجه الله... لقد حول الروس البلاشفة هذه المدارس والمساجد جميعاً إلى متاحف وصالات وأماكن لتعليم الإلحاد والشيوعية...



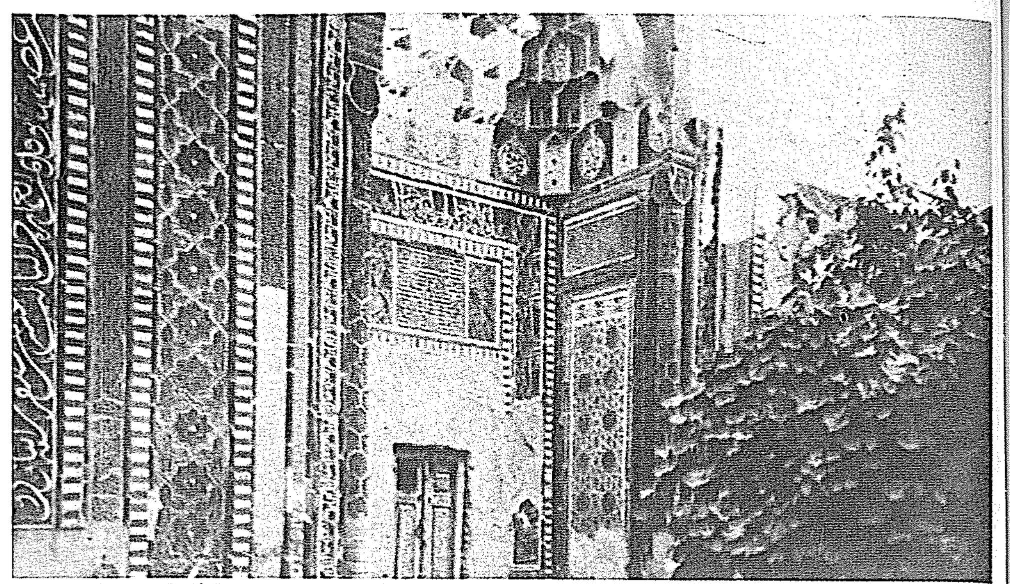
سمرقند: مدرسة أولوغ بك ٨٢٣ هـ (١٤٢٠ م) منظر من الواجهة الأمامية. لقد اشتهر أولوغ بك التيموري بحبه للعلم والعلماء وتشييده للكثير من المدارس العلمية وإنشائه لمرصد سمرقند.. الذي اجتمع فيه كثيرٌ من علماء الفلك في ذلك العصر وحددوا فيه خطوط الطول والعرض للكرة الأرضية كما وضعوا كثيراً من الخرائط الدقيقة للعالم القديم.. ولكثير من النجوم والكرات السماوية.. لقد كان هذا الأمير التيموري محباً للعلماء مشاركاً لهم في ابحاثهم ودروسهم حتى لقد اشتهر بأنه قضى معظم حياته معهم...



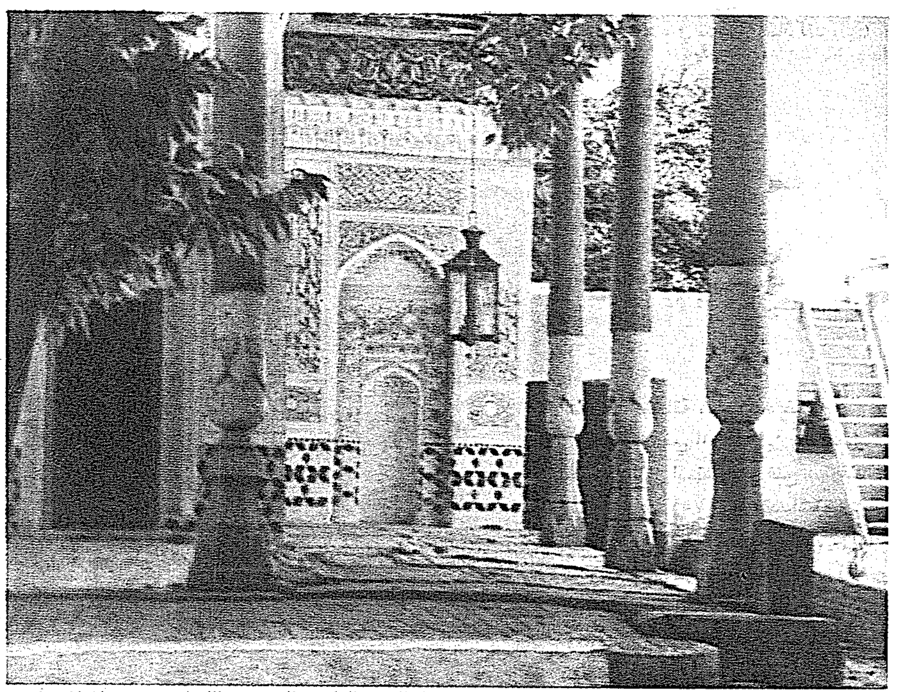
أحد المآثر الهامة في سمرقند حيث يرقد تيمورلنك الذي ملك الدنيا، في عاصمته سمرقند.



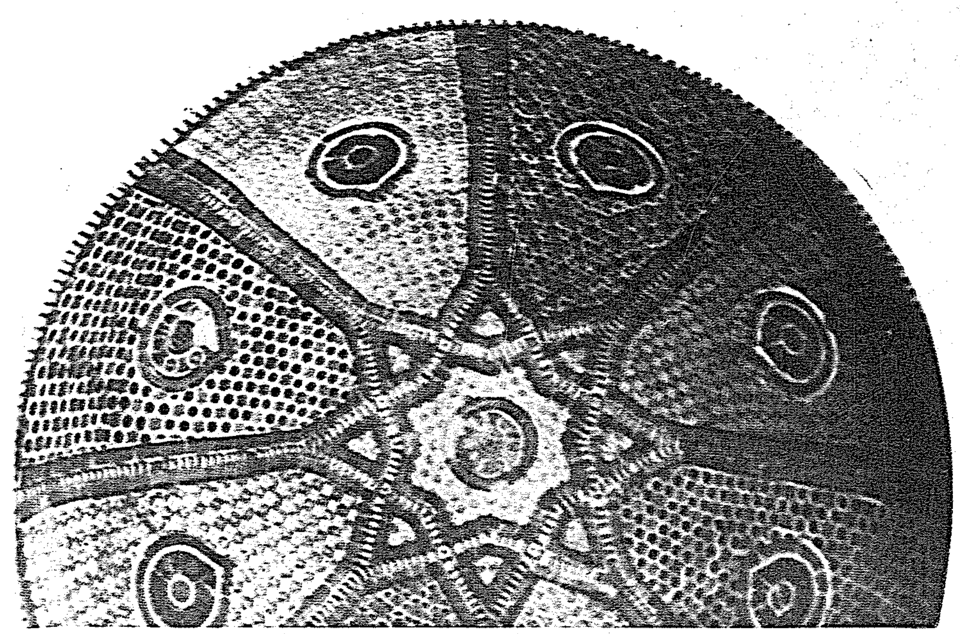
سمرقند: ها هنا يرقد تيمورلنك الذي أخضع موسكو وبولندا للحكم الإسلامي .. والذي حكم أعظم وأضخم امبراطورية في عهده ... ورغم ما اشتهر به تيمورلنك من شدة البطش بأعدائه إلا أنه كان حفياً بالعلوم والصناعات كثير القراءة للقرآن الكريم ولا يصلي إلا في جماعة ... وقد اشتهرت امبراطورية المغول (وهم ليسوا من المغول) في الهند من أبنائه وأحفاده الذين ظهر منهم أورنك زيب الملك الصالح. والملك أكبر. لقد كانت سمرقند في عهد تيمورلنك عاصمة الدنيا وبهجتها وبلغت أرفع مكانة . (القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي).



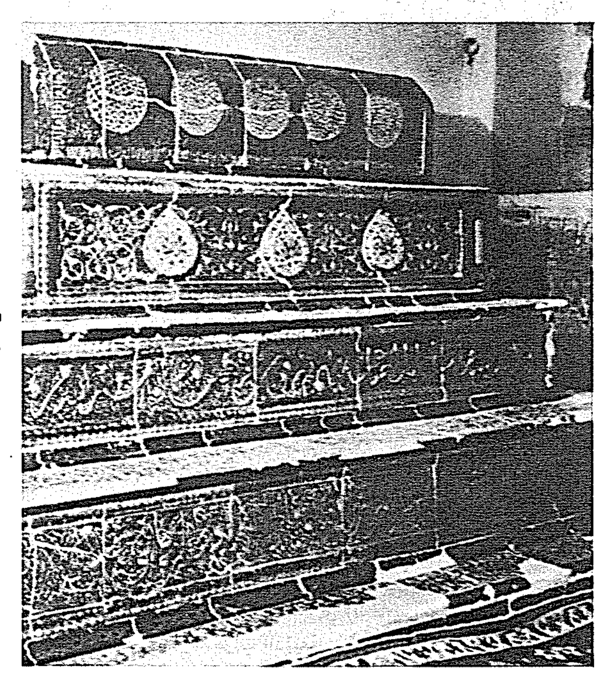
سمرقند: منطقة شاه زندة التي قبر فيها قثم بن العباس رضي الله عنه والتي أصبحت مجموعة فنية أثرية من المساجد والمدارس والخانقاه والأخرجة.



سمرقند: مسجد صيفي في سمرقند اقامه الخواجة عبدي في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) تبدو فيه رشاقة البناء وروعته وتناسق الأعمدة الرخامية مع نقوش المحراب الدقيقة.

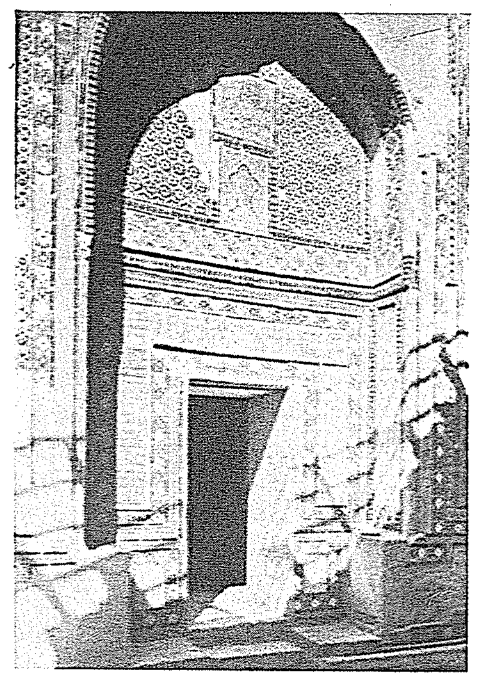


سمرقند: منطقة شاه زندة: صورة رائعة لقبة مسجد تركان آقا المنقوشة بالفسيفساء في تناسق أخاذ لقد بنيت هذه التحفة الفنية سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١ م) القرن الثامن الهجري.

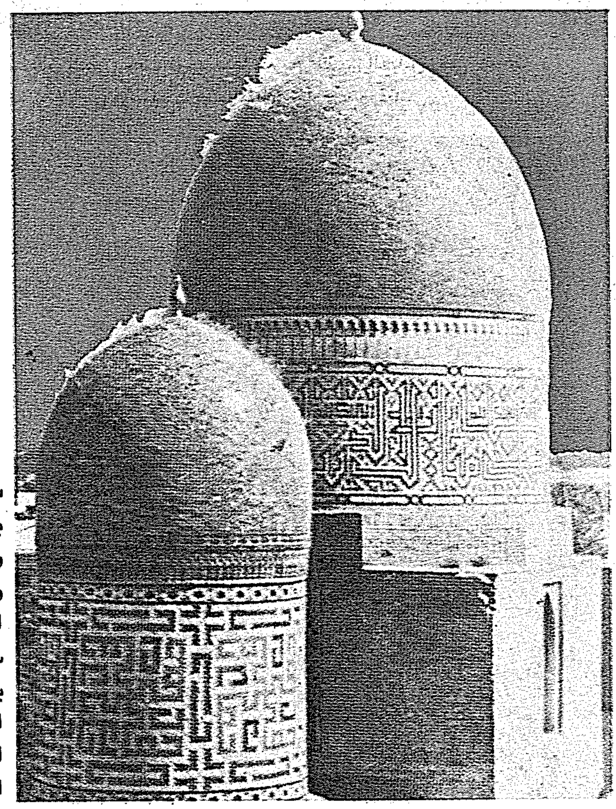


سمرقند: منطقة شاه زندة ضريح قثم ابن العباس رضي الله عنه ابن عم رسول الله ﷺ الذي استشهد في فتح سمرقند سنة ٥٦ هـ (٦٧٥ م) وقد اشتهرت المنطقة التي قُتل وقبر بها باسم مزار شاه زندة أي مزار السلطان الحي ذلك لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وكان قثم أحد ثلاثة أو أربعة أشبهوا برسول الله ﷺ وهم: الحسن بن علي ابن أبي طالب وجعفر الطيار بن أبي طالب وابنه عبد الله وقثم بن العباس.

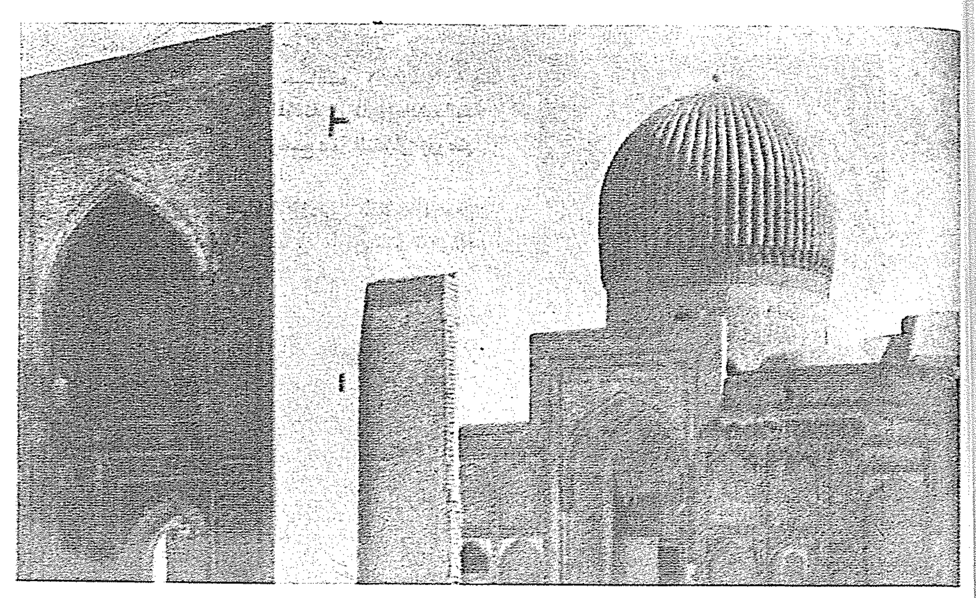
سمرقند: منطقة شاه زندة (أي السلطان الحي) حيث يوجد فيها ضريح قثم بن العباس رضي الله عنه الذي استشهد في فتحها سنة ٥٦ هـ (٦٧٥ م) وأصبحت هذه المنطقة خارج سمرقند.



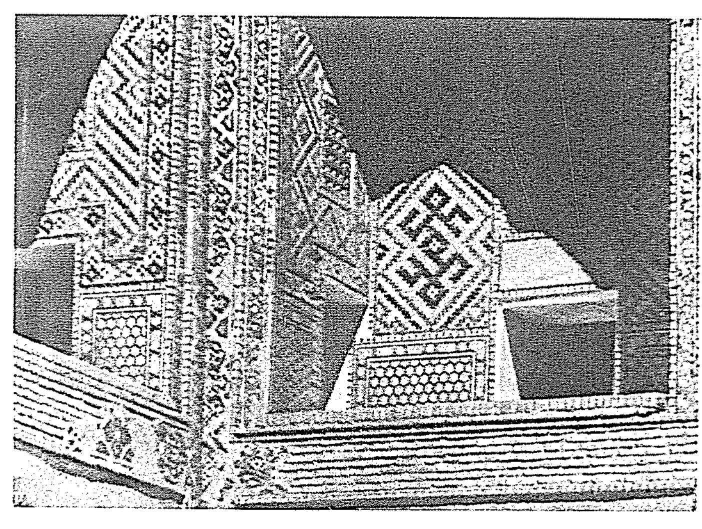
سمرقند: منطقة شاه زندة. مسجد أمير زادة الذي بناه سنة ٧٨٨ هـ (الثامن الهجري) (١٣٨٦ م) توضح الصورة جزءاً من البوابة الرئيسية المنقوشة بالفسيفساء..



سمرقند: منطقة شاه زندة الغنية بالآثار الإسلامية ومئات المساجد والمدارس ومدافن الأمراء والعلماء ويكفيها أن فيها استشهد قثم بن العباس رضي الله عنه أثناء فتحها سنة ٥٦ هـ (٦٧٥ م). ها هنا يرقد العلامة الشهير قاضي زاده الرومي الذي نبغ في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي).



سمرقند: مسجد تيمورلنك أحد القادة والحكام العظام في التاريخ.
لقد حكم تيمورلنك موسكو ووارسو وخضعت له جميع الأراضي المعروفة اليوم باسم الإتحاد السوفياتي البالغة مساحتها أكثر من ٢٢ مليون كم مربع. كما خضعت له إيران وأفغانستان والهند بأكملها (باكستان وبنغلادش والهند) والعراق والشام... وغرب الصين.
لقد عاش تيمورلنك ٦٩ عاماً (٧٦٥ ـ ٨٠٧ هـ) (١٣٣٦ ـ ١٤٠٥ م) ارتفع خلالها من ضابط بسيط إلى أحد أشهر حكام الدنيا.

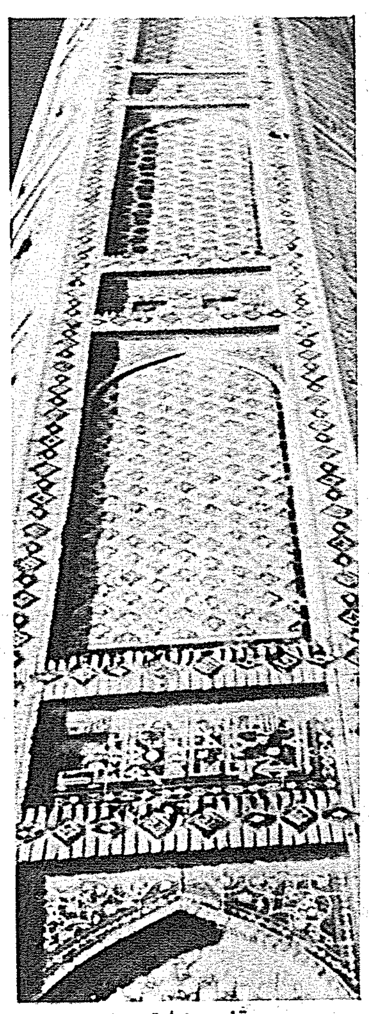


سمرقند: مدرسة شير دار (بنيت في السنوات ١٠٢٩ ـ ١٠٤٦ هـ) (١٦١٩ ـ ١٦٣٦ م) جزء من واجهة الصحن.

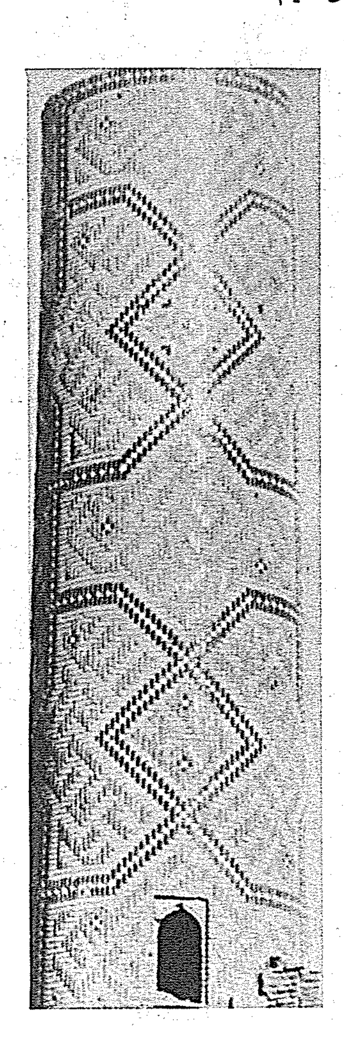
سمرقند:

مسجد بي بي خانم ٨٠٢ ـ ٨٠٧ هـ (١٣٩٩ ـ ١٤٠٤ م) المئذنة (المنارة) الشمالية لمسجد بي بي خانم توضح دقة النقوش وروعتها وتناسقها وتناغم ألوانها.

هكذا كان الأمراء والأميرات يتسابقون إلى فعل الخيرات وإقامة المساجد والمدارس التي تبقى لهم على مدى الأيام.

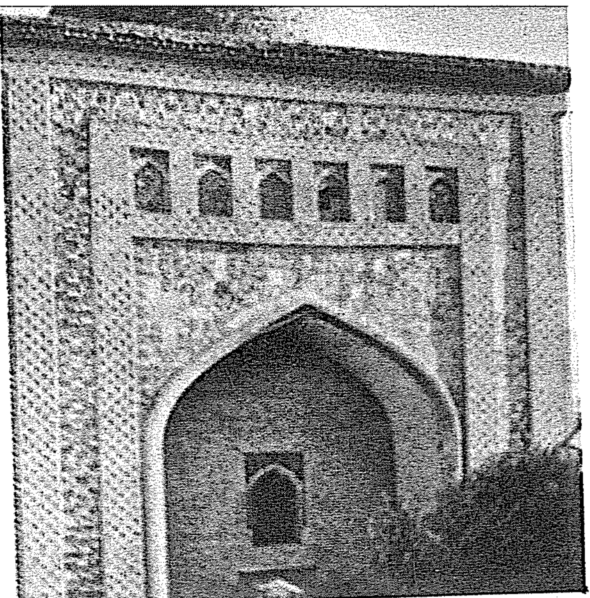


سمرقند: منارة مسجد بي بي خانم وهي تختلف في هندستها وزخرفتها عن المنارة الشمالية في الصورة السابقة. لقد تهدم هذا المسجد الرائع ولم تبق منه إلا المآذن التي لا يرتفع منها صوت الأذان من بعد أن احتلتها القوات البلشفية.



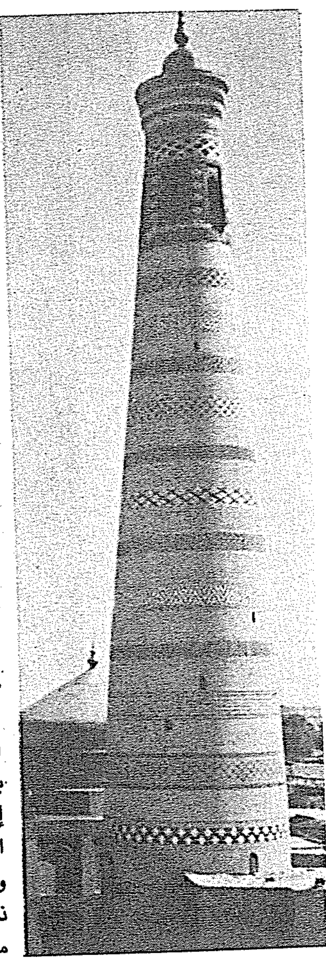


سمرقند: مدرسة طلاكاري من الواجهة الأمامية، لقد أنشئت هذه المدرسة في القرن السابع عشر الميلادي أي ما يَعتبر عصر انحطاط نسبي، فكيف ترى كان الحال أيام الازدهار والرقي؟؟ . أما الآن فقد تحولت هذه المدرسة مثلما تحول الآلاف غيرها إلى متاحف ونوادٍ وصالات للشيوعيين يلعبون فيها ويمرحون.



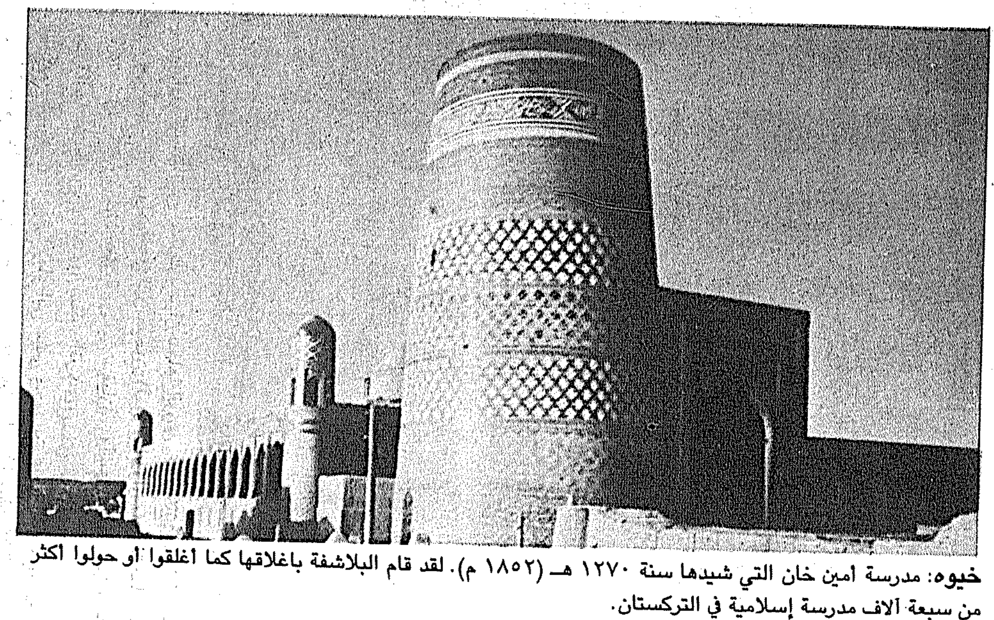
خيوه: لقد ورثت خانية خيوه بعض امجاد خوارزم وها هي مدرسة بهلوان محمود التي أقيمت في بداية القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) تقوم شاهداً على ذلك ١٢٢٥ ـ ١٢٥٠ هـ (١٨١٠ ـ ١٨٣٤ م) واستمرت هذه المدرسة الإسلامية تؤدي دورها العظيم حتى أغلقتها السلطات الروسية الشيوعية بعد أن دخلتها عام ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م).

خيـوه



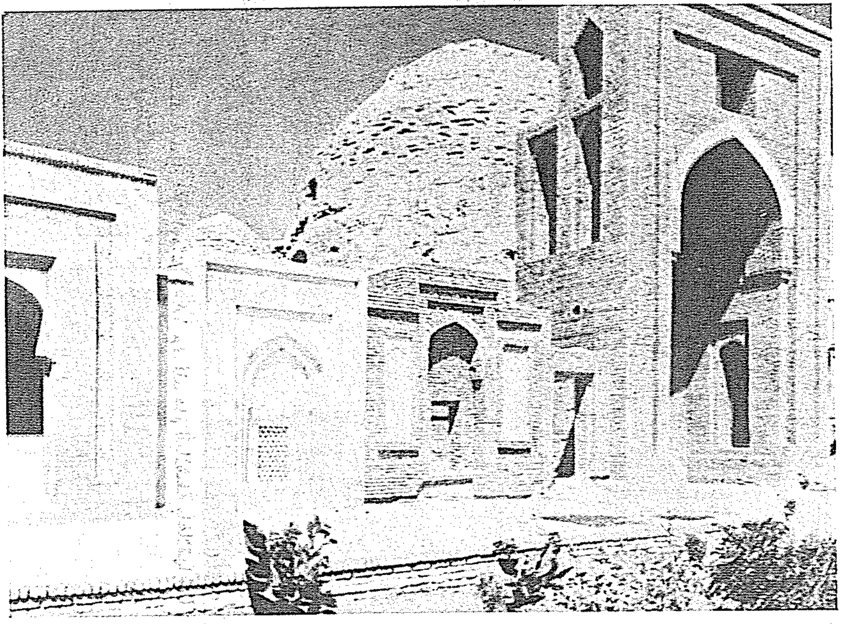
خوارزم وخيوه: منارة جامع خواجـه إسلام في خيـوه في خوارزم (خانية خيوه) قبل أن تهاجمها قوات لينين وتحتلها سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤ م). وهذا المسجد من آخر ما بُني في تلك المناطق حيث تم بناؤه سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) أي قبل دخول البلاشفة الروس إليها بأربعة عشر عاماً فقط. ومن هذه المنارة تتضح المحافظة على الطراز القديم في البناء وإن لم تبلغ روعته ودقته.

ومنذ أن دخل البلاشفة لم يبن أي مسجد جديد بل على العكس من ذلك حطم الروس البلاشفة في التركستان وحدها أكثر من ستة آلاف مسجد وأكثر من سبعة آلاف مدرسة إسلامية.



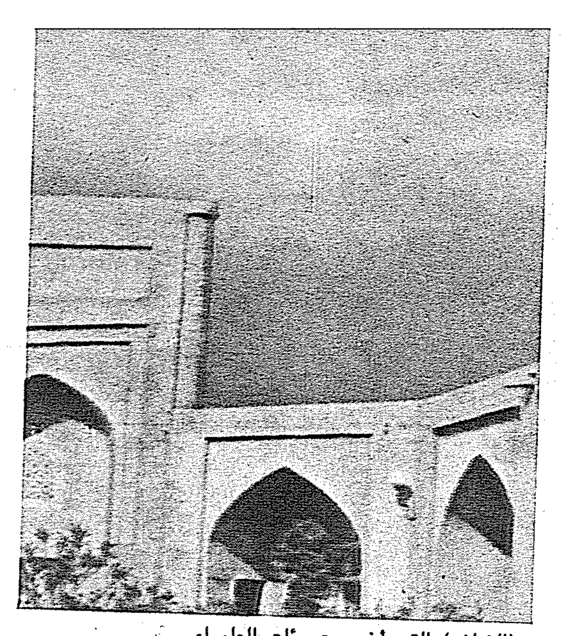
خيوه: مدرسة امين خان التي شيدها سنة ١٢٧٠ هـ (١٨٥٢ م). لقد قام البلاشفة باغلاقها كما اغلقوا او حولوا اكثر من سبعة آلاف مدرسة إسلامية في التركستان.

ترمذ



تُرمذ: إحدى مدن جمهورية أوزبكستان التي اندثرت بعد أن دخلها الروس.. وقد كانت ترمذ كما وصفها (ياقوت الحموي) مدينة مشهورة من أمهات المدن راكبة على نهر جيحون (أموداريا) وأول من فتحها الصحابي الحكم ابن عمرو الغفاري سنة ٤٦ هـ (٦٦٤ م) في عهد معاوية بن أبي سفيان... وأشهر من ظهر من ترمذ الإمام محمد ابن عيسى الترمذي صاحب (الجامع الصحيح) المشهور بسنن الترمذي..

وهذه الصورة لمسجد الحكيم الترمذي. وهو غير الإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.. وقد اشتهر محمد ابن علي المعروف بالحكيم الترمذي بعلمه وولايته وقد توفي محمد بن علي هذا سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م). وهذه الأطلال هي بقايا لمدينة ترمذ القديمة والتي بها قبور مجموعة كبيرة من آل بيت النبي ﷺ معروفة هناك باسم (سلطان سادات) كما بها مجموعة من المساجد والمدارس الأثرية التي حطمها الروس عند دخولهم ترمذ... ولم يبق منها إلا بعض الآثار البسيطة.



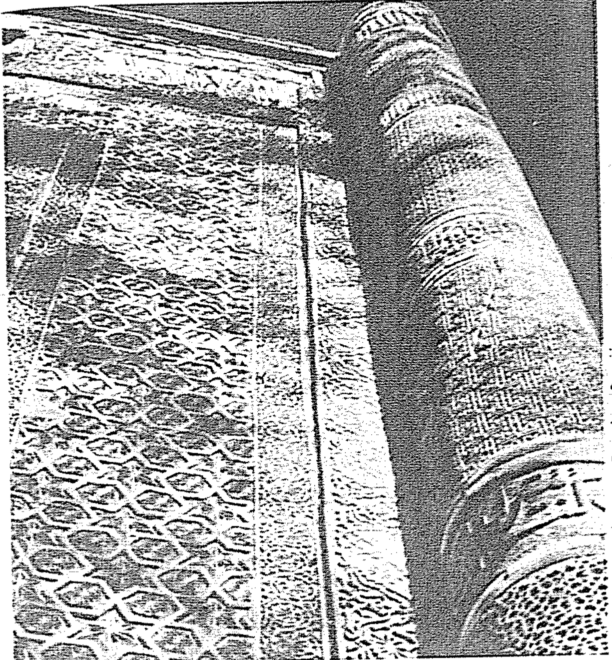
طشقند

طشقند: هذه صورة لواجهة مدرسة براق خان في طشقند التي شيدت في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فيما يُعتبر بداية عصور الانحطاط فكيف يا ترى كانت عصور النهضة والرقي؟!. إن طشقند (الشاش) التي أخرجت مئات العلماء اصبحت الآن مدينة نصف سكانها من الروس والأوكرانيين المستعمرين وطشقند هي عاصمة جمهورية أوزبكستان..

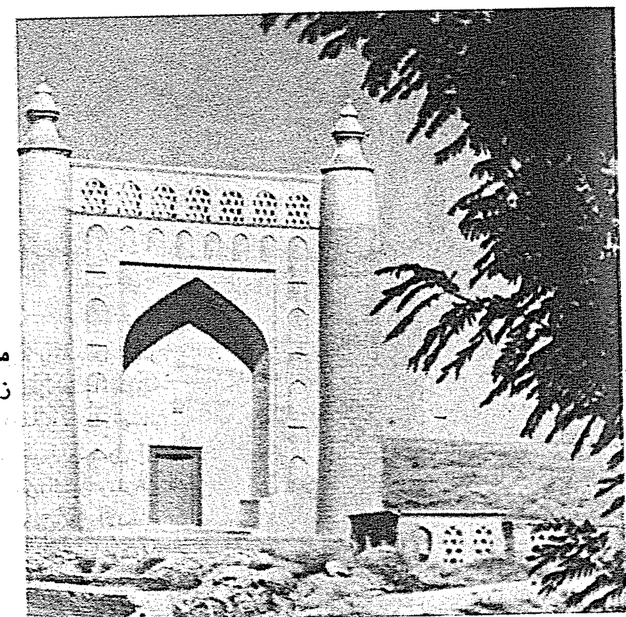


طشقند: ها هي طشقند اليوم يرتفع في أكبر ميادينها تمثال لينين.. ويا لها من مأساة مهولة تهدد كثيراً من أوطان الإسلام حيث تُهدم المساجد والمدارس الإسلامية وتحول إلى متاحف وصالات ويمنع تدريس الدين ويفرض الإلحاد فرضاً... ويجبر المسلمون على الانحناء لهذا الصنم إذا مروا أمامه.. أي ذلٍ وهوان أصاب المسلمين حتى يُفرض عليهم أن ينحنوا لهذا الصنم الذي أصبح يُعبد من دون الله...

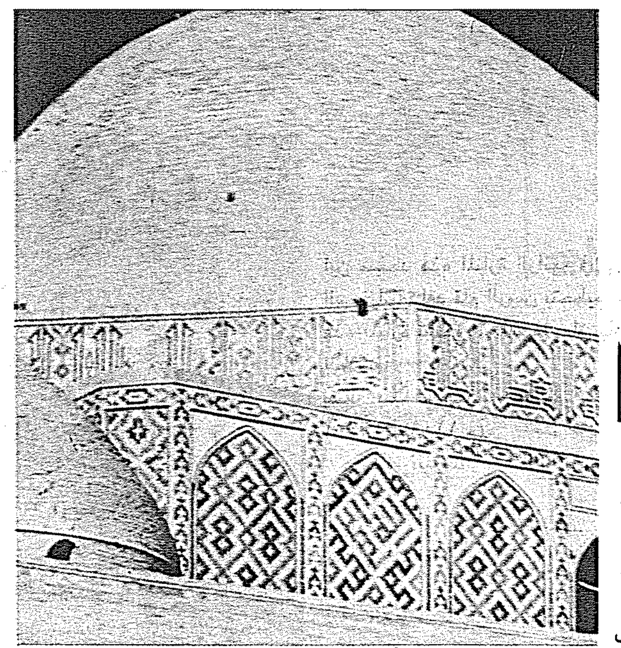
نمنكان



مدينة نمنكان (التركستان): زاوية خواجة أمين. جزء من النقوش على البوابة. القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي).



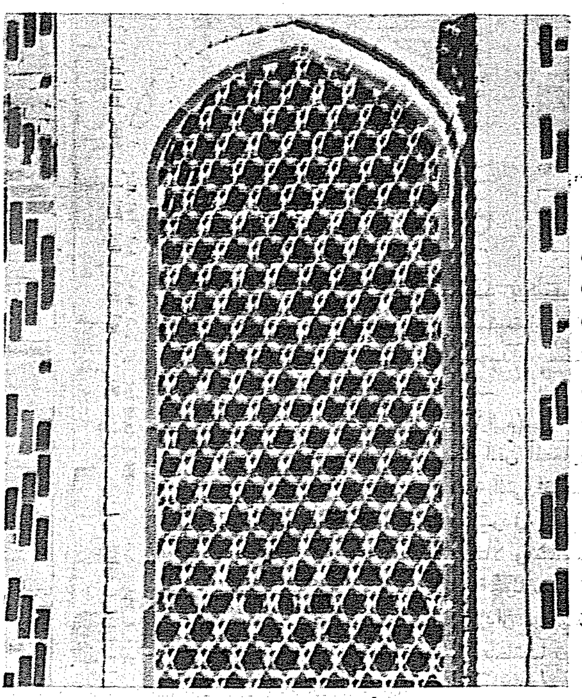
مدينة نمنكان (التركستان): زاوية مولوي صاحب الطريقة المولوية المشهورة، ترى أمام الزاوية قناة فرهاد..



يسي

مدينة يسي أو التركستان: مسجد الإمام الداعية إلى الله أحمد اليسوي المتوفى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م)، الذي أسلم على يديه الآلاف من المغول والذي امتد تأثير تلاميذه إلى ملايين المغول في جميع أرجاء آسيا الوسطى وتتاريا. هذا المسجد لا يزال باقياً منذ ذلك العهد رغم الحوادث المدمرة المريعة التي أصابت الكثير الكثير من الآثار الإسلامية.

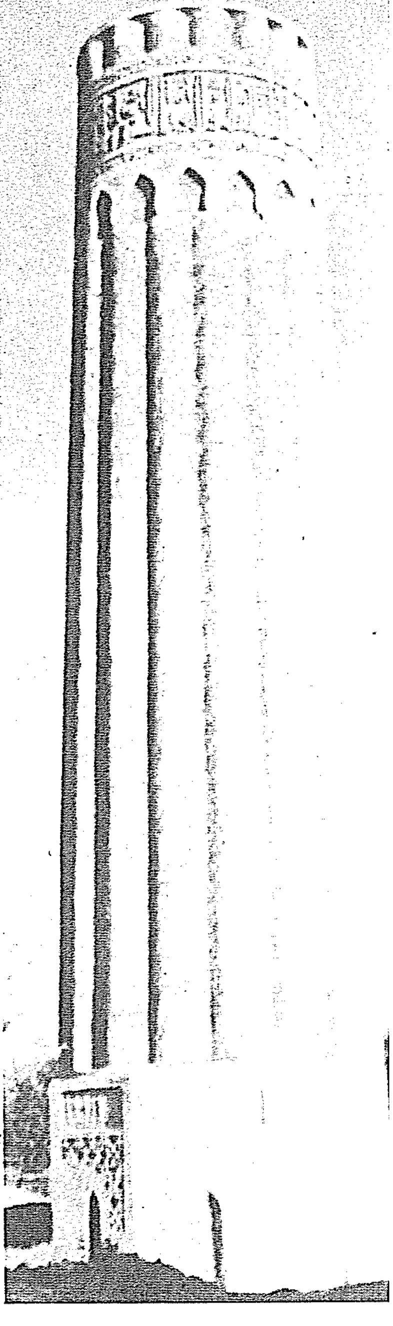
يقع هذا المسجد في مدينة تركستان (يسي) وهي تقع في منطقة تشيمقند في كازاخستان...

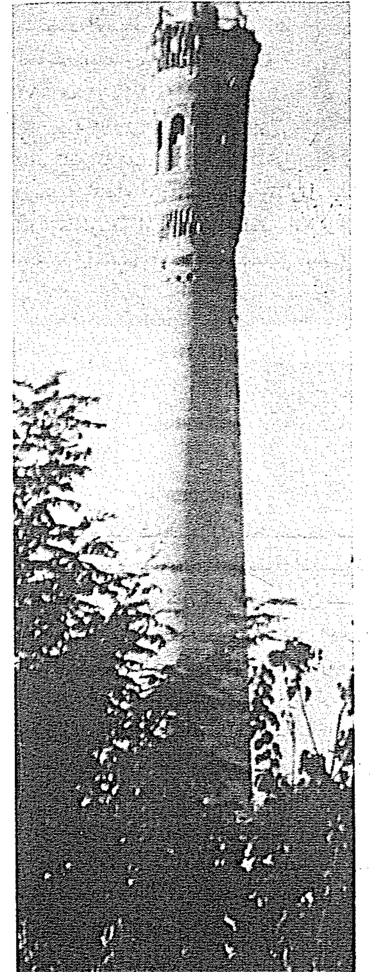


يسي: جزء من شباك من حائط مسجد سيدي أحمد اليسوي صاحب الطريقة المشهورة في التركستان والذي كان لتلاميذه دور كبير في إسلام قبائل المغول. يعتبر مركز الطريقة اليساوية في قازاخستان ولها أنصار ومريدون في جميع أنحاء التركستان وخاصة في قرغيزيا.. ولقد كان لهم دور عظيم في محاربة الروس القياصرة كما كان لهم دور كبير في محاربة الشيوعية وقوات لينين وخاصة جماعة (الايشان) التي يتهم مريدوها بالتعصب الديني والنشاط المناهض للسوفيات منذ عام ١٣٣٩ هـ (١٩٢٠ م) كما يقول بنجيسن ولو مرنسييه في كتابهما (المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي).

أين مسجد هذه المنارة الرائعة في جرقورغان في جمهورية أوزبكستان السوفياتية؟ لقد قام الروس بتحطيم المسجد الرائع الذي لم يبق منه إلا هذه المنارة تشكو إلى الله ما حاق بأهل التركستان من طغيان الروس البلاشفة.

لقد بنيت هذه المنارة ومسجدها سنة ٥٠٢ ـ ٥٠٣ هـ (١١٠٨ ـ ١١٠٩ م).





منارة مسجد بيكند في جمهورية أوزبكستان، بُني هذا المسجد سنة ٥٩٣ ـ ٥٩٤ هـ (١١٩٦ ـ ١١٩٧ م).

تظهر روعة الفن المعماري في هذه المنارة التي تنافس أجمل المنائر في العالم الإسلامي جمالاً وهندسة ونقوشاً وزخرفة. وللأسف لم يعد يُسمع الأذان من هذه المنارة منذ أن دخلتها قوات لينين.

المراجع

١ ـ أوقطاى آصلان آباد وأحمد محمد عيسى: فنون الترك وعمائرهم، مركز الأبحاث والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول. استانبول، ١٩٨٧.

٢ ـ ابن الأثير (علي بن محمد الشيباني): الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٥ م.

٣ ـ ابن خلّكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٤ ـ ابن بطوطة (محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي): رحلة ابن بطوطة، دار التراث، بيروت، ١٩٦٨.

٥ ـ ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير): البداية والنهاية، دار ابن كثير، بيروت لبنان بدون تاريخ.

٦ ـ أورخان محمد علي: السلطان عبد الحميد الثاني، الفصل الأول نشوء الدولة العثمانية، مكتبة دار الأنبار، العراق ١٩٨٧.

٧ ـ أحمد زيني دخلان: الفتوحات الإسلامية. المكتبة التجارية الكبرى القاهرة ١٣٥٤ هـ.

٨ ـ د. أحمد محمود الساداتي: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩.

٩ ـ أحمد بن يحيى البلاذري: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨.

١٠ـ أحمد (أبو العباس) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة.

١١ـ د. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والفاطمي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١.

١٢ـ د. أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٧٥.
١٣ـ بارتولد (فاسيلي فلادمير): تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨١.
١٤ـ بارتولد (فاسيلي فلادمير): محاضرات في تاريخ آسيا الوسطى، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم.
١٥ـ بارتولد (فاسيلي فلادمير) ومجموعة من المستشرقين: دائرة المعارف الإسلامية، كتاب الشعب، القاهرة.
١٦ـ البار (محمد علي): المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ، دار الشروق، جدة ١٩٨٣.
١٧ـ البار (محمد علي): أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي، دار العلم، جدة ١٩٨٥.
١٨ـ د. حسن أحمد محمود: الإسلام في آسيا الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٢.
١٩ـ د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٧.
٢٠ـ د. السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة، العربية بيروت لبنان (بدون تاريخ).
٢١ـ د. سعد بن محمد حذيفة الغامدي: أوضاع الدول الإسلامية في الشرق الإسلامي، كلية الآداب، الرياض الطبعة الثانية ١٩٨٣.
٢٢ـ السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة الطبعة الرابعة ١٩٦٩.
٢٣ـ د. أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، دار المعارف، القاهرة (بدون تاريخ).

٢٤ـ النرشخي (محمد بن جعفر): تاريخ بخارى، تعريب د. أمين بدوي ونصر اللّه الطرازي، دار المصارف بمصر.
٢٥ـ د. الشناوي (عبد العزيز محمد): الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٠.
٢٦ـ د. شكيب أرسلان (لوتروب مؤلف الأصل): حاضر العالم الإسلامي، دار الفكر، بيروت.
٢٧ـ د. فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة، بيروت ١٩٨٠.
٢٨ـ عيسى البتكين: قضية تركستان الشرقية، مؤسسة مكة للطباعة.
٢٩ـ السيد عبد المؤمن السيد أكرم: أضواء على تاريخ توران، مطبعة رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة (بدون تاريخ)
٣٠ـ محمود شاكر: تركستان الصينية (الشرقية)، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٦.
٣١ـ محمود شاكر: تركستان. دار الإرشاد بيروت ١٩٧٠.
٣٢ـ محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت ١٩٨١.
٣٣ـ ياقوت بن عبداللّه الحموي الرومي: معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، بيروت (بدون تاريخ).

المراجع باللغة الإنجليزية.

1) Israli R: Muslims in China, Scandinavian Institute, Asian studies, Monograph Series No 29, Curzon Press, Ltd London 1980.
2) Keene H.G. The Turks in India. Idrah Adabiyat–Delhi, India, 1972
3) Minorski V: The Turks and Caucasus in The Middle Ages, Variorum Press, London 1978.

الفهرس